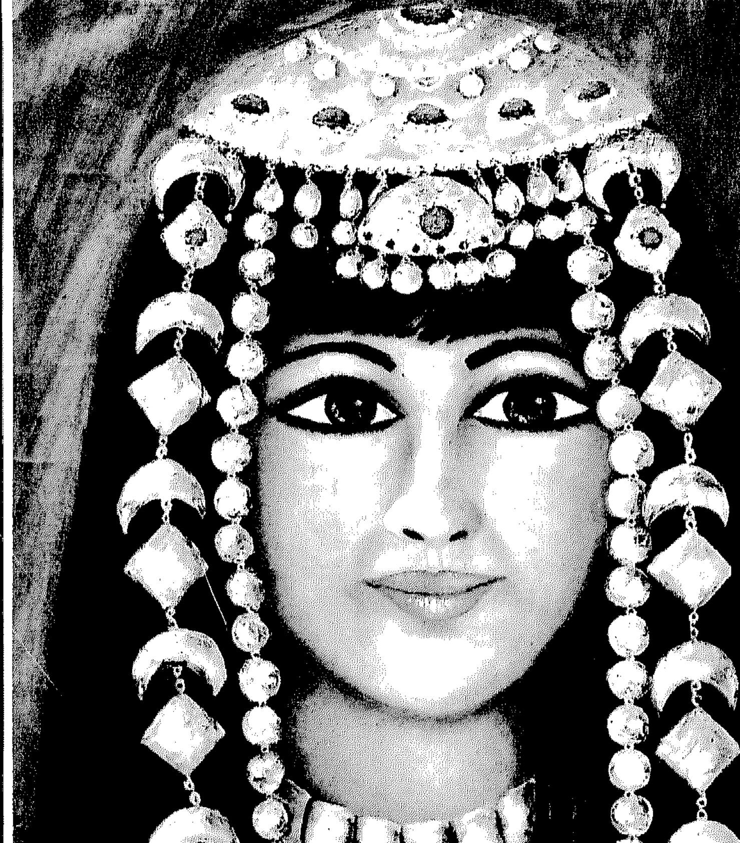
رحلاتي إلى الشرق والغرب





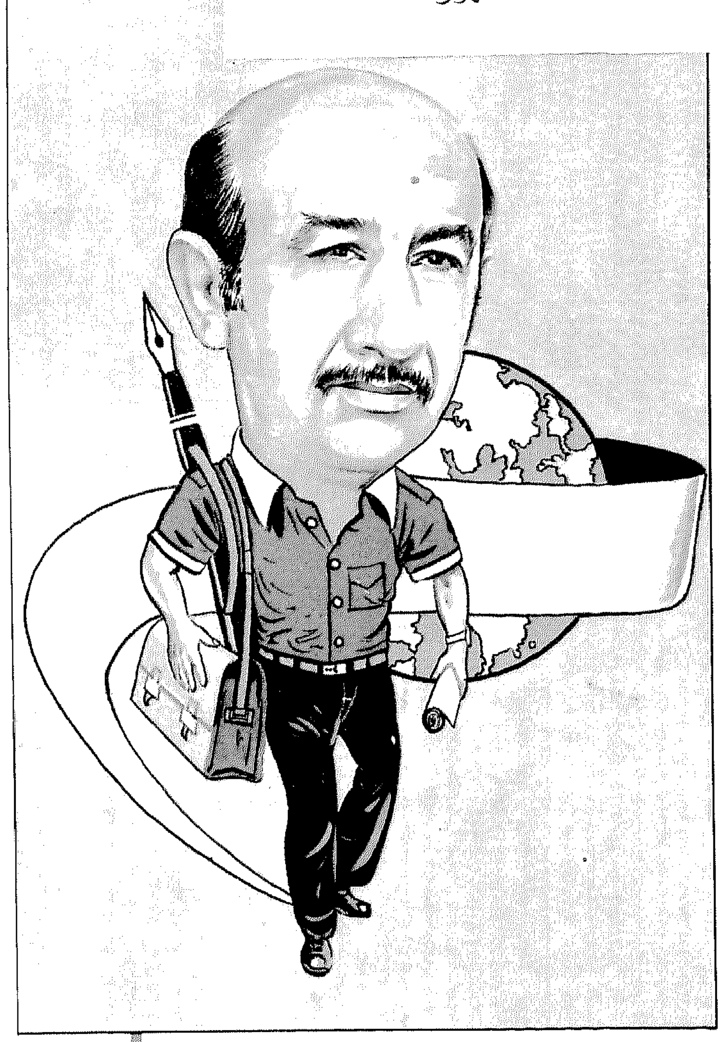


كمال سعد

اهداءات ٢٠٠٢

السفير فتحي الجويلي

دمنهور



بريشة : جلال عمران

المؤلف

● كمـــال ســـعـد
● الكاتب الصحفى بمجلة المصور
● بدأ عمله الصحفى فى مجلة آخر ساعة عقب تخرجه من آداب القاهرة ـ قسم الصحافة ، وتولى رئاسة قسم التحقيقات الصحفية بها عام ١٩٦٣ .
● شارك فى اصدار مجلة الدوحة ، وكان نائبا لرئيس تحريرها .
● اختارته جامعة القاهرة عام ١٩٨٨ محاضرا لطلبة بكالوريوس اعلام فى فن التحقيق الصحفى .
● قام برحلاته الصحفية فى ٥٤ دولة فى العالم
● من مؤلفاته التى أصدرتها (المكتبة العصرية) :
ـ صفحات ضائعة من حياة بيرم التونسى (طبعة ثانية)
ـ ثورة الهيبيز : مأساة العصر (طبعة ثانية)
ـ سقوط جدار الوهم (حرب اكتوبر) (طبعة ثالثة)
● تحقيق الأعمال الكاملة لفنان الشعب بيرم التونسى التى صدر منها :
* مذكراتى والديوان الأول
* الديوان الثانى
* السيد ومراته فى باريس
* السيد ومراته فى مصر
* مذكرات بيرم فى تونس
* عزيزة ويونس

لوحة الغلاف بريشة
سوزان حسن فهمى

رحلاتي إلى الشرق والغرب

كمال سعد

(الطبعة الأولى)

١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

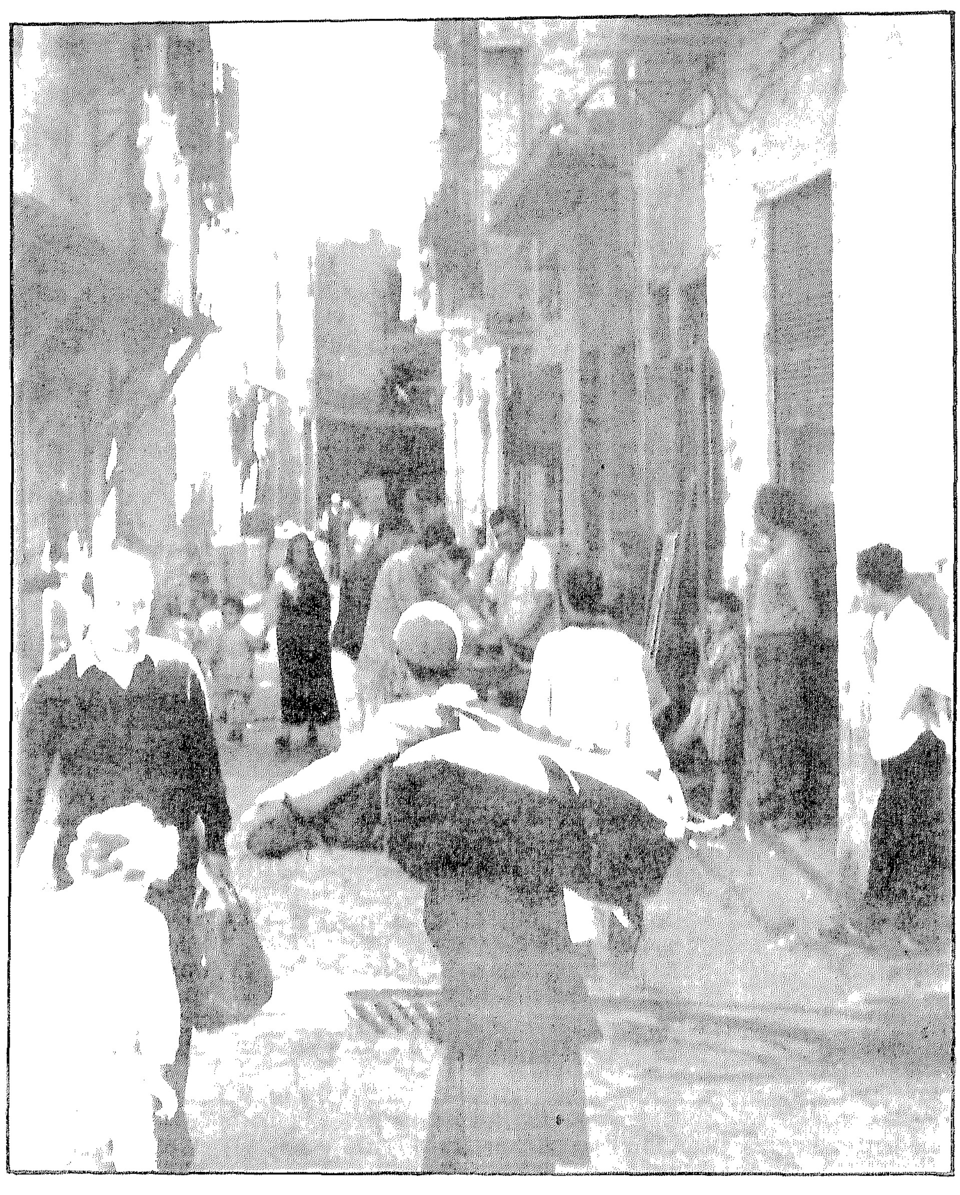
إشراف فني : عبدالوهاب صادق

في هذا الكتاب

صفحة



بداية الرحلة



● لخص شاعر تركيا الكبير « ناظم حكمت » فكرة ورسالة الرحلة فى ذهنه عندما قال :

لا تحيا على الأرض كمستأجرِ بيتٍ
أو زائرِ ريفٍ يتأمل إشراقه
بل عِشْ فى العالم
وكأن العالمَ بيتُ أبيك
إمنحْ ثقتَك للحبِ وللأرضِ وللبحر
وابدأ بالإنسان
وتألمْ للغصنِ الجاف
للنجمِ الخامد
للحيوانِ المقعد
واحملْ أكثرَ ماتحمل آلام الإنسان
سترى أفراحَك وسطَ الظلِ والإشراق
أما أجملُ أفراحِك
فسيحملُها لك إنسان

وقد عشت مع فكرة الرحلة ورسالتها النبيلة منذ نعومة أظافرى ، وجعلنى أبى ـ بما يملك من موهبة فى السرد ـ أزداد ولعا بها ، كلما اغترف لى من هذا النبع الدافىء فى قصص القرآن والأنبياء التى كان يرويها على مسمعى ، وأنا مشدود نحوها ، أصغى بكل ذرة فى كيانى الصغير !

كانت أحب القصص إلى نفسى هى قصة « آدم وحواء » التى رأيت فيها ـ فيما بعد ـ سر تعلقنا بالرحلة ، فقد هجرنا الجنة فى رحلة إجبارية ، دفع آدم وحواء ثمنها غاليا ، عندما أكلا من ثمار الشجرة المحرمة ، وكان العقاب هو الهبوط الى الأرض ، لنظل ـ نحن ذريته ـ فى رحلة المعاناة الدائمة ، بحثا عن الفردوس المفقود فى كل مكان !

وكانت بعض القصص التى يرويها أبى أمامى لايستوعب مغزاها عقلى فى هذه السن المبكرة ـ وإن كانت أحداثها ظلت عالقة فى ذهنى ـ مثل قصة « موسى والعبد الصالح » التى تؤكد أن معرفة الإنسان ـ حتى لو كان نبيا ـ

محدودة ، فقد تصور موسى أنه أعلم الناس ، ثم اكتشف خطأه ، فكفر عن هذا الخطأ برحلة مع أحد فتيانه « يوشع » إلى مجمع البحرين فى الطرف الغربى الجنوبى من سيناء ، ليلتقى ـ بإذن ربه ـ مع الرجل الصالح الذى يقال فى بعض التفسيرات إنه « سيدنا الخضر » ليصطحبه فى رحلة طويلة يكتشف أثناءها أن الأسفار تعلمنا الكثير ، وأننا مهما حققنا من العلم ، فاننا لن نؤتى منه إلا قليلا .

وكنت أطلب دائما من أبى أن يكرر على مسمعى قصة « سليمان والهدهد » وكنت معجبا بذلك الهدهد الذى طاف فى الآفاق ورفرف بجناحيه فوق بعيد الأمصار ليكتشف فى سبأ النبأ اليقين : إمرأة أوتيت من الغنى والسلطان والجمال والنفوذ كل شىء ، وتحكم شعبها من فوق عرش لا مثيل له فى الدنيا ، وإن كانت تعبد معهم الشمس من دون الله ، وأراد سليمان أن يختبر صدق القصة فأرسله بكتاب يدعوها فيه إلى الإيمان ، ولكنها تصورت أنه سيتغاضى عن دعوته بالمال ، فبعثت له الجواهر والهدايا لاسترضائه ، ولتتطور الأمور عقب ذلك برده الهدايا وإحضار عرشها ليستقر بين يديه فى لحظة واحدة ولتقوم بلقيس ـ بنفسها ـ مع حاشيتها برحلة من اليمن الى مملكة سليمان فى بيت المقدس ، معلنة ولاءها لسلطانه ودخولها فى زمرة المؤمنين ، بعد أن رأت ـ رأى العين ـ ما أعطاه الله لسليمان من قوة ونفوذ على الجان والإنس وشتى المخلوقات .

وكثيرا ما شدنى أبى بقصصه إلى النبى الرحالة إدريس ، الذى كان محبا للتنقل والأسفار من أجل هداية البشر ، والى سيدنا نوح ورحلته البحرية الشهيرة التى جمع فيها من كل زوجين اثنين مع المؤمنين من قومه الذين يسكنون أرض بابل بالعراق لتستقر سفينته على قمة جبل « أرارات » فى آسيا الصغرى (الأناضول) بعد انحسار الطوفان أو الماء الطاعن الذى نزل من السماء وانفجرت به الأرض ، وإلى أبى الانبياء إبراهيم عندما سافر مع زوجه هاجر وابنهما اسماعيل إلى صحراء الحجاز فى أشرف رحلة تدفقت أثناءها مياه زمزم تحت أقدام الطفل اسماعيل ، وعرفنا خلالها معنى الفداء ، وبدأت معها إشراقة الإسلام الأولى ببناء الكعبة . . كما كان يروى لى بإسهاب قصة لقمان الحكيم الأسود البشرة الغليظ الشفتين المجعد الشعر ، الذى خرج من رحم

القارة الأفريقية ، ومن كثرة ترحاله وتجواله وسط غاباتها وتسلقه لجبالها العالية ومواجهته لحيواناتها الضارية فى جرأة وصلابة ، تعلم فضيلة تأمل روعة الطبيعة وحركة الكون والحيوان والطير ، وجعلته تلك الفضيلة يقدم الحكمة على النبوة لإدراكه ـ بحس الإنسان الرفيع ـ أن الحكمة هى قمة المعرفة ، وهى طريقنا الوحيد الى لمس سر معجزة الجمال وإدراك عظمة خالق هذا الكون الذى لاقدرة لغيره على منح الرزق أو أخذ الحق فى السلطان المطلق .

ليلة السفر

وقد عشت طفولتى وصباى فى بلدتى أسيوط ، التى قاومت ظلم المماليك الجراكسة ، وانتقمت من حملات الفرنسيين وقتلهم المواطنين العزل بإصابة الكولونيل الفرنسى « بينون » برصاصة قاتلة فى نهاية القرن الثامن عشر !

وكنت أراها ـ وقتئذ ـ بعيدة جدا عن القاهرة رغم أن المسافة بينهما لاتتجاوز ٣٧٥ كيلو مترا ، ولهذا فكثيرا ماكنت أقف طويلا على الشط ، أرقب النهر القادم من أعالى الصعيد كريما متسعا عند أرضها ، وأحمله سلامى إلى أهل « القاهرة أم الدنيا » وهو فى طريقه لإكمال الرحلة الطويلة (٦٦٤٠ كيلو مترا) من هضاب الحبشة حتى المصب فى البحر المتوسط !

وكانت بلدتى التى يحتضنها الجبل الغربى فى قسوة تثير دهشتى بحقيقتين :

* الأولى : إنجابها لعدد كبير من الخالدين أمثال عمر مكرم ، ومصطفى لطفى المنفلوطى ، وجلال الدين السيوطى أحد أئمة الفكر الإسلامى ثم عبد الناصر ، مع امتلاكها لذلك الخليط الهائل من طرق التجارة القديمة (طريق الجمال) والآثار الإسلامية والقبطية والفرعونية التى تتناثر فى بطن جبلها وفى قراها .

* والثانية هى دماء أهلها الحارة التى ربطت اسمها بالثأر وجعلت من جبلها العتيد مأوى للمطاريد فى كل صعيد مصر ، يهجعون إليه للاحتماء بمغاراته ومواصلة مسلسل الثأر الذى لم يتوقف أبدا !

وفى منتصف الخمسينات كنت على موعد مع الرحيل من بلدتى أسيوط للالتحاق بالجامعة والاستقرار فى القاهرة ، وفى ليلة السفر لا أدرى ما الذى دفعنى لأن أتفاخر أمام أهلى بأننى الصعيدى الوحيد الذى يغادر أرضه دون أن « تدمغه » لدغة عقاربها المؤلمة السامة ، وبعد الحديث نمت فى شرفة بيتنا الخشبية « التراسينة » هربا من الحر اللافح فى الحجرات ، لأنظر إلى السماء متأملا نجومها بشغف لأول مرة ، حالما بالحياة الدائمة فى القاهرة ، وأنا الذى لم أزرها إلا زيارات خاطفة فى الصيف ، ولم أتجول فى دنياها الواسعة إلا من خلال الأفلام وقراءات الكتب والقصص والروايات التى كنت أدفع فى أعظم كتاب منها نصف قرش « لعم أحمد » بائع الكتب القديمة الذى كان يعيرنا أى كتاب لنقرأه بهذا المبلغ الزهيد ، على أن نرده فى حدود خمسة أو ستة أيام على الأكثر ، وإذا أردنا الاحتفاظ بالكتاب بعد قراءته فما علينا إلا أن نكمل المبلغ لقرشين !

وفجأة وأنا أحتضن أحلامى الوردية ، شعرت بها تغرس فى ساقى « حمة » ذنبها التى تشبه الإبرة ولها كيس ملىء بالسم ، وشعرت بألم اللدغة ، فقمت مذعورا أنفض جلبابى ، لأجد تلك الزرقاء القاتمة فى حالة انتشاء بعد أن أفرغت سمها فى دمى ، وأسرعت مناديا على أهلى لمساعدتى فى قتلها وإسعافى قبل فوات الأوان !

وفى مثل تلك الحالة يلجأ أهل الصعيد إلى ربط أعلى الساق وأسفلها بأربطة قوية لوقف الدورة الدموية عن السريان حتى ينحسر السم فى أضيق الحدود ولايتسرب إلى بقية الجسد ، ويحضرون على وجه السرعة سكينا ساخنة مطهرة يشقون بها جرحا بسيطا فى منطقة الإصابة ويسحبون عن طريقه بالفم كمية الدم التى اختلطت بالسم ، وأثناء الاستعداد لبداية الإجراءات الطبية يسكبون « الجاز » على العقرب بعد قتلها ويشعلون فيها النار حتى لايبقى لها أثر وحتى لاتأتى بقية عائلتها إلى نفس المكان !

المهم ، حملونى فى أقرب سيارة الى المستشفى ، ليتم تطهير جرحى وحقنى بعقار مضاد للسم ، وعدت الى منزلى وأنا أحمل آثار لدغة العقرب بآلامها الشديدة ، وماتركته على ساقى من بقعة كبيرة حمراء ، وأمضيت بقية

ليلتى بعد أن تلاشى الحلم من ذهنى تحت وطيس الرعشة وحمى الجسد ومايصاحبها من هذيان !

وهكذا غادرت بلدتى أسيوط صعيديا مائة فى المائة بعد أن لدغتنى تلك المخلوقة التى لانعتبرها ـ مع العناكب ـ من الحشرات !

فى قلب أم الدنيا

فى القاهرة بدأت أشق طريقى ـ سواء فى الجامعة أو الصحافة ـ وسط مدينة قاسية بالغة التعقيد ، يلهث معظم سكانها بشتى ألوانهم وانتماءاتهم وراء تطلعات وأحلام تتساقط فى أغلبها كأوراق الأشجار فى الخريف !

قطعت مشوارا طويلا فى البحث عن نبض المدينة المتشابكة وسر عطائها الدائم والمتجدد ، واختلطت بشخوصها بداية من الصعاليك والفقراء والمغمورين إلى ذوى الحظوة والأثرياء والفنانين والمثقفين وغيرهم من المشاهير ـ على كل لون ـ الذين يصرون فى مدينة لا تتعامل الا مع « الماكياج » الخارجى على أن الموهبة الخارقة هى التى قادتهم الى القمة !

وفى أثناء رحلتى مع عالم المدينة المتسعة ، شعرت أننى أعود وليدا يخطو أولى خطواته الخائفة وسط أمواج من البشر والضجيج الهائل ، غير أننى سرعان ماتعودت على المكان ، وإن كنت قد ظللت فى حيرة من أمر هؤلاء الذين هجروا قراهم الآمنة باحثين عن سراب الحياة الأفضل فى مدينة لاينهزم فيها الا العارقون !

ولكم اهتز قلبى هلعا وأنا أرى أحياء القاهرة القديمة بعد رحلتها الطويلة عبر القرون والأزمان غارقة فى طوفان الإهمال والفوضى ، ولم أصدق عينى وأنا أرى كنوز تاريخنا فى الجمالية والمغربلين وسوق السلاح والتبانة والقلعة والغورية والحسينية وغيرها من المناطق المزدحمة بالمساجد والآثار الإسلامية وهى تئن من الشكوى ويهددها الفناء بسبب العدوان المستمر وزحف المبانى الحديثة وقسوة تعامل البشر معها ، وكذلك النسيان المتعمد ، فمن يصدق مثلا أن مسجد الظاهر بيبرس بحى الظاهر ظل يبحث عمن ينتشله من الخراب الذى

غرق فيه دون مجيب ، منذ أن داس حرمته الفرنسيون وحوله محمد على إلى مصنع للصابون الى أن استخدمه جنود الاحتلال الانجليزى كمذبح يمدون منه معسكراتهم باللحوم !

فى مدينة الألف مئذنة ، ومن خلال تعاملى مع الناس التقيت مصادفة بالنصاب الذى باع لأهلنا الترام ، وتحولت الواقعة ـ بقدرة قادر ـ الى نكتة سخيفة هدفها خلق جدار من الحذر والخوف والتحفظ ضد شطارة وفهلوة ابن العاصمة فى صدر كل صعيدى قادم إلى القاهرة !

كنت أكتب سلسلة فى مجلة « آخر ساعة » فى أوائل الستينات بعنوان « أين ذهبوا ؟» عن هؤلاء الذين صنعوا الخبر وعاشوا تحت الأضواء وكانت اسماؤهم حديث الناس فى كل مكان ، ثم مضت السنون وابتلعتهم دوامة الحياة الى القاع !

وكان من بين هؤلاء النصاب « رمضان أبو زيد » ولقبه « العبد » والمتخصص فى قضايا الاحتيال التى من أشهرها بيعه الترام للقروى الساذج « حفظ الله سليمان » القادم من المطاعنة مركز البدارى بمديرية أسيوط ، والذى كان قد عقد العزم على القيام بأول رحلة فى حياته الى القاهرة فى الأربعينات لوضع تحويشة العمر فى أى مشروع يحقق أرباحا ، ووجد فيه النصاب مادة سهلة فباع له الترام رقم (٣٠) بـ ٢٠٠ جنيه دفع منها ٨٠ جنيها والباقى اتفق على دفعه من حصيلة الكمسارى اليومية من الركاب !

وما إن التقيت بالنصاب وجها لوجه بعد أكثر من عشرين عاما على هذا الحادث ، حتى قال لى إنه كان يرمى شباكه لا على الصعايدة وحدهم ولكن على كل القرويين السذج القادمين من قرى الوجهين البحرى والقبلى على حد سواء ، وان الصحافة هى التى أثارت تلك النعرة الاقليمية بصورة مبالغ فيها ، وجعلت السذاجة صفة لاصقة بكل قادم من الصعيد !

وأراد أن يبرىء نفسه من تهمة الإساءة إلى الصعايدة فى مجموعهم بقوله إن النصب مسألة عالمية ، ولا علاقة له بالإقليمية ، فهو عملية بيع وشراء تتم على وجه السرعة بين عقل مخطط وذكى وعقل ساذج لم يجرب ، بدلالة أن « روبرتو » النصاب الايطالى الشهير باع برج بيزا المائل لأحد القرويين البسطاء

وفى لندن باع نصاب ساعة بج بن ، وفى أمريكا باع أحد النصابين عمارة « امباير ستيت » لأحد القادمين من ولايات الجنوب دون أن يثير أدنى شك فى ذهن الأمريكى الشارى !

ثم أكد لى براعته فى النصب حتى على أكثر الناس دهاء وحرصا ، فقال إنه احتال على الجواهرجى اليهودى المعروف « باروخ ليشع » بعد أن أفهمه أنه نجل الدكتور الشهير على ابراهيم وأنه أرسله ليصطحبه ومعه عينات من الجواهر سيختار منها الشبكة لأخته ، وكان قبل ذلك قد ذهب للجراح وأخبره أن لديه شقيقا نشأ فى أوربا وهناك عملية ختان لابد أن تجرى قبل أن يتزوج ولكنه خائف منها ، ولذا فمن المستحسن أن يعطيه مخدرا فى الشاى بمجرد وصوله إلى العيادة وتجرى له العملية دون أن يشعر ، وهكذا أخذ بنفسه الجواهرجى الى عيادة الدكتور ليشرب المخدر فى الشاى ، وسحب منه حقيبة الجواهر بعد أن أدخله بنفسه مع الممرضين الى غرفة العمليات مخدرا ، وليهرب بالجواهر بينما يد الطبيب الكبير مستغرقة فى إجراء الجراحة !

وعلى كل حال ، فإن الخلاصة التى خرجت بها بعد لقائى مع أشهر نصاب عرفته القاهرة ، هو أن مثل تلك الحوادث وغيرها لاتخرج عن كونها حالات فردية لايجوز أن نصدر من خلالها أحكاما عامة على البشر ، مثلما يفعل بعضنا عندما يوزع على أهل كل مدينة أو محافظة ما سمعه عنها من صفات تتدرج من السذاجة المضحكة ، أو الكرم العبيط ، أو الجبن ، إلى الإفراط فى البخل ، أو حب الوقيعة أو خيانة الصديق وغير ذلك من الصفات الكريهة التى لا أساس لها من الصحة ، فهى مجرد تجارب شخصية قديمة مع أناس قد نجدهم فى أى مكان ويرتكبون نفس الخطايا بل وأبشع منها .

وقد كرهت مثل تلك الرؤى الظالمة والمتسرعة على الناس والأشياء ، وعاهدت نفسى فى كل أرض حللت بها الا أحكم على الأشياء من أول نظرة ، وأن أحرص على عدم وصم المجتمعات أو حتى التغنى بخصالها من خلال الأحكام المسبقة أو النماذج الباهتة أو المظاهر الخادعة التى تبعدنا عن النظرة الموضوعية وتقودنا بسهولة ـ ودون أن ندرى ـ الى مصيدة التعميمات وترديد الآراء الخاطئة التى تقلب الحقائق رأسا على عقب ، وتجعل من الإنسان وحشا

كاسرا يصفق له هواة الإثارة عندما يعض قردا !

الاهتمام بتراث الرحلة

وكنت قبل تجوالى فى الخارج قد انطلقت لأجوب رحلة الداخل فى شوق ، فالتقيت بالإنسان فى المدن والقرى والنجوع والصحارى والواحات وعلى أرض النهايات عند الحدود .

وقد سلحت نفسى قبل السفر فى ذلك العالم الرحيب من حولنا ، بالاستغراق فى تتبع قصة الرحلة فى تراثنا القديم والحديث ، ووجدت أننى أجدف بقاربى المتواضع فى نهر لاينضب من العطاء والإبداع وإثراء الفكر بالثقافات المتنوعة ، وكشف حضارات الغير وأسرار الكائنات والحياة .

فالرحلة فى أعماقنا موروثة منذ عصور سحيقة ، سجلتها البرديات عندما روت بأسلوب أدبى رفيع قصة سنوحى أحد رجال البلاط فى الأسرة الثانية عشرة الذى جعلته الأحداث السياسية يهيم على وجهه هاربا فى رحلة أوصلته الى فلسطين ليقيم بها ويقارن الحياة على أرضها بالحياة فى مصر التى عاد اليها شيخا طاعنا ليدفن فى ترابها .

وسجلتها كذلك جدران آثارنا فى عام ١٤٩٥ قبل الميلاد عندما انتهت الملكة الجميلة الذكية حتشبسوت من بناء معبدها « أعجب العجائب » الذى نطلق عليه اليوم الدير البحرى فى الأقصر ، فأحضرت كبير مهندسيها « سنموت » وحامل اختامها « يهمس » وأمرتهما بتجهيز خمس سفن بحرية يذهبان بها على رأس بعثة إلى بلاد بونت « الصومال » الواقعة على البحر الأحمر والتى لم يصلها غريب منذ الف سنة ، لإحضار أشجار العطر واللبان والمر لتجميل هذا المعبد .

وما إن رست السفن فى بلاد « بونت » وخرج مليكها وزوجته وحاشيته مرحبين بأول ضيوف على أرضهم ، حتى كان السؤال الملح : من أين جئتم . . وهل هبطتم بهذه السفن من السماء ؟

وعادت السفن إلى مصر محملة بالتوابل والمعادن والعاج وريش النعام

والقرود والأشجار التى غرسوها فى رحاب المعبد وعند مدخله ، وكانت المفاجأة التى تنتظر الملكة حتشبسوت التى ظلت تحكم مصر ٢٢ عاما ، هى وجود ملك بلاد بونت وزوجته وبعض رعاياه على متن تلك السفن ، فقد أثارتهم فكرة الرحلة لرؤية مصر وملكتها وشعبها ، ولولا ذلك لما رأينا صورهم منقوشة حتى اليوم على أعمدة وجدران الدير البحرى ، إلى جوار الأنواع المتعددة من الأحياء المائية التى تعيش فى البحار الحارة وفى مقدمتها الأسماك النادرة والأخطبوط !

ولم تكن الرحلة فى حضارة مصر المبكرة ـ وحدها ـ مثار اهتمامى ، فقد قرأت بشغف أكثر ماكتب عن مشاهير عشاق السفر فى بلاد العرب ، منذ أن كان لعرب شبه الجزيرة العربية وماجاورها من بلدان رحلتان فى الجاهلية ، جاء ذكرهما فى القرآن الكريم وهما رحلتا الشتاء والصيف ، وكانت أغلب تلك الرحلات التجارية الى اليمن والعراق والشام وغيرها ، كما كان عرب اليمن بالذات يقيمون العلاقات التجارية البحرية بالهند وبساحل افريقيا الشرقى قبل مجىء الاسلام بقرون !

فأنا لا أنسى ـ مثلا ـ قصائد شعراء العصر الجاهلى الذين كانوا يتجولون داخل شبه الجزيرة وخارجها مهتمين بوصف الرحلة ، بنفس قدر اهتمامهم بالمقدمة الغزلية التى تستدرج انتباه السامعين ، فهم لايهملون ـ مطلقا ـ فى صورهم الشعرية مدح الفرس أو الناقة التى تتحمل متاعب السفر وأهواله ، أو وصف العواصف والرعود والحيوانات والنباتات والمدن التى رأوها رأى العين فى أسفارهم عبر الصحراء !

كما أننا جميعا نعرف أن الرسول الكريم سافر بالتجارة إلى الشام أكثر من مرة ، وسافر ـ كذلك ـ الى اليمن ، وأن اصحابه من بطون قريش وعلى رأسهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف هاجروا الى الحبشة بناء على نصيحته لما أصابهم البلاء ، وقاموا فعلا بالرحلة ليكرمهم ملكها النجاشى ويؤمنهم على حياتهم .

ثم ألم يكن الحج الى الأراضى المقدسة ـ باعتباره فريضة خامسة ـ من العوامل الهامة التى غرست فى نفوسنا حب الترحال والانتقال ، تماما كما كانت

فتوحات جيوش المسلمين بما قدمته من تجارب ومعارف ومخالطة للناس والأقوام ، بمثابة انطلاقة هائلة نحو الرغبة فى الاكتشاف والمغامرة والبحث عن كل ماهو جديد ، خاصة عندما بلغت تلك الفتوحات ذروتها بالوصول الى الهند وأرمينيا والقوقاز وبلاد الروم ، إضافة الى عبورها جبل طارق إلى الأندلس واختراقها وادى الرون إلى أوربا ؟

ومن منا لم يعرف أن العرب أنفسهم انفردوا قديما دون غيرهم بأغانى الحداء التى كانوا يستعينون بأنغامها الشجية على مشاق الرحلة الصعبة ؟

أنا ـ بالذات ـ مازال يرن فى أذنى حتى اليوم صوت حادى القافلة فى رائعة أحمد شوقى « مجنون ليلى » التى جرت أحداثها فى صدر الدولة الأموية ، وقرأتها فى صباى لتظل فى مخيلتى ـ وبشكل مجسم ـ صورة القافلة القادمة من نجد بينما حاديها ذو الصوت الجميل ينشد مادحا الحسين حفيد الرسول وأهله وهو يقود ركابه الى يثرب فى لحظة كان فيها قيس مستلقيا فى الصحراء غائبا فى إغماءة الوجد واللهفة على ليلى ، ولتفوته فرصة رؤية هذا الموكب الطاهر البديع الذى لم يشغل باله أو يوقظ فكره !

ومازلت أعتبر الشاعر أبا الطيب المتنبى ألمع شهيد فى الرحلة العربية ، فقد قضى معظم سنوات حياته فى ترحال بين مصر والشام والعراق مادحا الولاة وفى مقدمتهم سيف الدولة الحمدانى بقصائد رائعة خلدها التاريخ ، الى أن ترصده بعض الأعراب أثناء عودته من شيراز بإيران إلى الغرب بسبب قصيدة ضمنها رأيه ـ عندما هجا بها خال زعيمهم ـ فهاجموه بين الكوفة وبغداد وقتلوه مع ابنه وأتباعه وجردوهم من كل مامعهم من مال أو هدايا !

ومازال يلتصق بذهنى بيتان للشاعر العظيم أبى تمام الطائى الذى عاش فى القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، وفى البيتين يحث الناس على الرحلة بقوله :

وطولُ مقام المرء فى الحى مخلقٌ
لديباجَتيهِ ، فاغتربْ تتجدد
فانى رأيتُ الشمسَ زيدَتْ محبةً
إلى الناسِ ان ليستْ عليهم بسرْمد

ولعل تجديد النفس بالترحال كما حث عليه أبو تمام ، هو الذى جعل بديع الزمان الهمذانى - مثلا - فى مقاماته الشهيرة ، يطوع لغتها المذهلة فى براعة مجسما أمامنا تجاربه أثناء سفره فى بلاد فارس فى القرن الرابع الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ولقائه بفئات عديدة من البشر منهم البسطاء من عامة الشعب وبينهم الأدباء والوزراء ، كاشفا الكثير من العادات والتقاليد فى عصره ساخرا فى قسوة بالغة من الصفوة أو أبناء الطبقة الراقية !

وربما نفس السبب - كذلك - هو الذى جعل أبا العلاء المعرى يخرج فى نفس القرن فى رحلة قصيرة إلى بغداد عاصمة الخلافة وقتئذ ليتردد على دور العلم ، ويلتقى بكبار الأئمة ورجال الفكر والأدب ، وليؤثر كل ذلك على تكوينه ومواقفه الفكرية والفلسفية التى أثمرت بعد هذه الرحلة الهامة فى حياته أكبر وأهم دواوينه « اللزوميات » ، الذى ضمنه فلسفته ونظرته النقدية فى المجتمع والإنسان والكون !

وقد كان أبو العلاء - بالذات - رائدا فى رحلته الخيالية الشهيرة التى قطعها من الجحيم الى المطهر فى مؤلفه المتميز « رسالة الغفران » الذى قلده فيه الشاعر الإيطالى « دانتى اليجييرى » بعد أربعة قرون من الزمان فى رائعته « الكوميديا الإلهية »!

الرحالة العظام

ورغم أهمية المتنبى والمعرى فإن هناك رحالة عربا عظاما - بمعنى الكلمة - تحملوا مشاق السفر بشكل مثير للدهشة ، كانوا فى البرارى يقطعون المسافات الطويلة بالدواب أو سيرا على الأقدام بينما يعبرون البحار فوق سفن متواضعة ، وكثيرا ماتعرضوا فى رحلاتهم لمخاطر عديدة كمفاجآت قطاع الطرق وحيوانات الصحراء وأهوال الجوع والعطش وقسوة عواصف البر والبحر وأسماك المحيطات المتوحشة ، وكانوا بتلك الرحلات إما أن يصلوا إلى القمة ويحققوا طموحاتهم الشخصية واكتشافاتهم لبلاد جديدة على الذهن العربى ، كما رأينا فى أسفار الرحالة المغربى « ابن بطوطة » التى استغرقت ٢٩ عاما قضاها متنقلا فى بلاد عجيبة من المحيط الأطلسى حتى الصين ، واختاروه أثناءها ليتولى

منصب قاضى القضاة فى دلهى بالهند ، وبعث به السلطان سفيرا إلى امبراطور الصين ، وكان أول من قدم فى الحياة العربية معلومات هامة عن حياة الشعوب فى القرن الرابع عشر الميلادى تضمنها كتابه « تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » الذى أصبح مرجعا لبداية التاريخ العثمانى والهند الإسلامية وأفريقيا الغربية .

أو كانوا يقضون الشهور الطويلة فى أعماق سجون البلاد التى حلوا بها ، إضافة إلى تعرضهم إلى مآس تزلزل النفس والروح ، كما حدث للفيلسوف العربى الأندلسى عبد الرحمن بن خلدون الذى رحل إلى شمال أفريقيا وربوع الأندلس ، ودرس تصرفات الحكام من خلال تجربته الخاصة التى اكتسبها أثناء توليه المناصب الحساسة فى قصورهم أو معاناته المريرة داخل سجونهم وتعرضه فى حياته لمأساة فادحة كادت تقضى عليه عندما استدعى زوجته وبناته من تونس بشفاعة من سلطان مصر ، فجاءوا اليه فوق مركب هلك كل ركابه عندما غرق فى بحر الاسكندرية ، ورغم تلك المعاناة والآلام التى اكتوى بنارها فى حياته ، فقد قدم لنا ذلك التحليل السياسى والاجتماعى عن أحوال المناطق التى زارها فى القرن الرابع عشر الميلادى ، واستطاع أن يسبق عصره بقرون عندما قدم لنا فهما جديدا للتاريخ يسمونه اليوم « علم الحضارة » .

لقد كان هؤلاء الرحالة العظام ـ بحق ـ مرآة مضيئة لأمتهم ، ولهذا كنت أتعامل مع تراثهم بنوع من الألفة والحب والتقدير ، كنت أرى فيهم أحلى الصفات : الهمة والنشاطة والحركة الدائبة المستمرة والصبر والإصرار ودقة الملاحظة ، وفوق كل هذا وذاك الاهتمام بكل شىء مع تنوع الفهم للأمور ، وإن كان بعضهم قد حلق أحيانا فى عالم من الخيال تحت تأثير الموروثات الشعبية وماسمعوه عن خرافات الشعوب وأساطيرها .

ومن متابعتى لهؤلاء الرحالة فى حياتهم وجدت أن أغلبهم تجاوز السبعين من عمره ، فابن بطوطة الذى مازالت رحلاته حية فى وجداننا بعد أكثر من ستة قرون عاش ٧٣ عاما ، وابن جبير الذى جال وصال بامكاناته المتواضعة فى سردينيا ومصر وجزيرة العرب والعراق والشام وصقلية وغيرها ، تاركا كتابه العظيم « رحلة ابن جبير » الذى اعتبره النقاد من « كلاسيكيات » أوصاف

الرحلة فى الأدب العالمى ، عاش ٧٢ عاما فى فترة كان صلاح الدين الأيوبى يستعد فيها لطرد الصليبيين من الشام ، وابن خلدون عاش ٧٤ عاما ، وأبو الريحان البيرونى ٧٥ عاما ، وابن عساكر ٧١ عاما ، وابو بكر بن العربى ٩٥ عاما ، وابن خرداذبة ٩٢ عاما ، وكذلك تجاوزت أعمار أحمد بن فضلان ، وشمس الدين المقدسى ، وأبى الحسن المسعودى ، وعبد اللطيف البغدادى ، وياقوت الحموى ، والاصطخرى ، وابن رسته ، وابن حوقل السبعين بكثير ، وربما يعود ذلك إلى مافى الأسفار من رياضة كاملة للعقل والجسد ، فالرحلة تغير نمط الإنسان الذى يعيش على وتيرة واحدة داخل بلاده ، كما أنها تجدد الحياة وتبعث فى النفس شبابا دائما وتمنحنا متعة مابعدها متعة ، وقد لخص الرحالة العربى « المسعودى » أثر الرحلة العميق على الذهن والنفس بقوله : « ليس من لزم جهة وطنه ، وقنع بما نمى إليه من الأخبار فى اقليمه ، كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار ، واستخراج كل دقيق من معدنه وإثارة كل نفيس من مكمنه ».

ومن الحقائق التى خرجت بها عن هؤلاء الرحالة القدامى ، أنهم كانوا أكثر شجاعة وتضحية من رحالة الغرب ، فقد اعتمد أغلبهم فى رحلاتهم الطويلة على قدراتهم الذاتية المتواضعة فى توفير الزاد والمال واحتياجات الطريق ، بعكس رحالة الغرب الذين كان يدعمهم الملوك والحكومات والمؤسسات العلمية بلا حدود ، حتى أن « ايزابيللا » ملكة قشتالة التى نلعنها فى تاريخنا منذ سقوط آخر معاقل الأندلس ، عندما جاءها الرحالة « كريستوفر كولمبس » يطلب مساعدته فى رحلاته بتوفير بضعة مراكب ، وبعض من البحارة ليقطعوا معه ثلاثة آلاف ميل عبر المحيط ، لرسم طريق مختصر جديد الى الهند وكشف أمم جديدة ، نظرت حولها فوجدت الخزائن خاوية ، لايوجد بها مايساعد على هذا المشروع ، فلم تتراجع ، ولم تدع اليأس يدب فى قلب الرحالة المتحمس بل قدمت له أبلغ تضحية بقولها : سأرهن ما أملك من حلى لأمدك بالنفقات اللازمة !

الى هذا الحد وصلت المساعدات للرحالة فى الغرب ، بينما كان رحالتنا لايجدون من يساندهم فى أسفارهم بمثل هذا الشكل الملحوظ الذى جعل « ايزابيللا » تدرك مغزى نجاح كولمبس فى مهمته ، وكيف أن الفوز لن يعود

على صاحبه ـ وحده ـ بالشهرة والنفع العظيم ، ولكنه يعود أولا وأخيرا على الوطن ـ كله ـ بالخير الوفير ، وقد صدق حدسها عندما اكتشف كولمبس القارة الجديدة ، فقال التاريخ إن اكتشافها كان مرهونا على الشجاعة والهمة المتقدة لامرأة أعطت لوطنها كل شيء ، حتى زينتها !

وقد نعثر بين حكايات الرحالة العرب على نفر قليل منهم وجد المساندة والتقدير أثناء رحلاته ، إلا أنها ـ مع الأسف ـ كانت تأتى دائما من خارج الوطن ، فمثلا الشاعر والرحالة أبو عبد الله محمد الادريسى عندما قام برحلاته فى القرن الثانى عشر الميلادى لم نسمع عن أحد فى الوطن العربى فى زمانه يستدعيه ليستفيد من تجارب أسفاره التى زادته علما على علم ، ولكن التاريخ قال لنا إن ملك صقلية النورماندى « روجر الثانى » استدعاه لقصره ليرتوى من معارفه ويستمتع بطرائفه وثروة المعلومات التى جمعها من أسفاره الى القسطنطينية ومصر والمغرب وآسيا الصغرى والأندلس وايطاليا وانجلترا وفرنسا ، وكانت دهشته بالغة عندما صمم له كرة أرضية من الفضة أشار فيها باللغة العربية الى المناطق التى زارها ، وأثناء إقامته فى بلاطه شجعه على تأليف كتابه « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » الذى أصبح من أهم المراجع التى اعتمد عليها الرحالة الأوربيون فيما بعد ، وخاصة فيما تضمنه من معلومات جغرافية فلكية وطبيعية واقتصادية ، ولما احتواه من تفاصيل عن النظم الاجتماعية وتوزيع الأجناس البشرية على سطح الأرض !

وقد لاحظت أن أغلب الرحالة العرب فى العصور الوسطى كانوا يحصرون رحلاتهم فى البلاد الإسلامية وعالم الشرق المثير الذى وصلوا فيه إلى الصين والهند وأندونيسيا ، وإن كان قليلهم من اتجه برحلاته الى الغرب !

ومع انتهاء القرن الخامس عشر الميلادى فوجئنا بذلك التراجع الحاد فى الرحلة العربية ، نتيجة لتدهور الحياة العربية نفسها وأفول شمس نهضتها التى أذهلت العالم لحقبة طويلة من الزمن ، ولهذا لم نعثر فى أوراق الرحلة خلال تلك الفترة إلا على القليل الذى لم يتجاوز استنبول عاصمة الخلافة العثمانية ، أو الأراضى المقدسة فى الحجاز وفلسطين ، بينما رأينا ـ على النقيض من ذلك ـ كيف نشطت حركة الاستكشافات الأوربية بصورة لافتة للنظر ، وكيف

استفادت فى معظمها من تجارب وخبرات الرحالة العرب فى البلاد التى زاروها !

وظل الأمر على تلك الحال ، حتى كانت الحملة الفرنسية على مصر ، وماتركته خلفها من آثار علمية وثقافية ورغبة عارمة فى التعرف على أسرار نهضة الغرب ، فبدأ النشاط يدب من جديد فى عالم الرحلة ، وأخذ الرحالة العرب الجدد فى مطلع العصر الحديث يتجهون إلى أوربا ليتصلوا بحضارة الغرب الجديد ويسجلوا مشاهداتهم وملاحظاتهم على العلوم والمعارف والآداب والقيم الاجتماعية والسياسية ، وكثيرا ماعقدوا المقارنات البديعة بيننا وبينهم فى جميع المجالات !

لقد كان أشرف أهداف أسفار هؤلاء الرحالة هو اقتباس أسباب تقدم الغرب ونقلها الى البلاد العربية ، لعلها تنقذنا من السبات العميق ، وتعيد دورة حضارتنا الى حالتها الأولى !

ولهذا فتنت بذلك الشيخ الأزهرى الذى جاء من الصعيد ، ليرسله محمد على إلى باريس لمدة خمس سنوات ضمن أول بعثة علمية يستفاد بها عند عودتها فى البرنامج الإصلاحى ، الذى أصبح هدفا لحاكم مصر بعد خروج الحملة الفرنسية .

وتمنيت وأنا أتابع سيرته لو كنت رفيقا للشيخ رفاعة رافع الطهطاوى فى رحلته التى قام بها فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى ، وبدأها بقارب شراعى أوصله عبر النيل الى الاسكندرية ، ليصعد على ظهر سفينة حربية فرنسية أوصلته إلى مرسيليا بعد ٣٣ يوما ، وليقطع المسافة عقب ذلك من الميناء الفرنسى حتى باريس بالعربات برا فى مهمة غالية تضمنها كتابه «تخليص الابريز فى تلخيص باريس» الذى ينبه فيه المصريين الى آفاق التقدم من خلال مشاهداته وملاحظاته للحياة فى باريس ، ودعوته للاستفادة من كل إيجابيات بلاد الافرنج المتمثلة فى احترام القوانين التى تنص على الاستقلال الذاتى ، والحرية الشخصية ، وحرية الدين والرأى ، واستقلال القضاء وتمثيل الرعية بوكلاء يتم انتخابهم،وواجبات الحكام ، إضافة الى جرأة الإصلاح وعدم إسراف المسئولين وآداب المائدة والنظافة (رغم أنهم ليس عندهم مثقال ذرة من الإيمان) والتفانى فى العمل مع الدقة وحب العلوم والفنون وتطوير الصنائع

وغير ذلك من الأمور التى تفيد البلاد وتقضى على آفة الخمول والتنبلة التى مازالت مستقرة فى حياتنا !

ولكم عشقت روح النقد والفكاهة التى سيطرت على أسلوب الرحالة أحمد فارس الشدياق ، الذى ولد عام ١٨٠٤ فى لبنان ومات فى الآستانة عام ١٨٨٨ ، فقد انطلق على سجيته وبدون أدنى تزويق ليعقد المقارنة فى مجالات الحياة الاجتماعية فى البلاد الأوربية التى أقام بها إقامة طويلة لحوالى ٢٣ عاما وبين مصر والشام ، وكان فى كتابيه «الواسطة فى معرفة أحوال مالطة» و«كشف المخبأ عن أحوال أوربا» عندما يتطرق الى تلك المقارنة لا يجامل ولا يتسرع بإصدار الأحكام ، ولكنه يتحول إلى باحث مدقق لكل ما تجمع فى ذهنه من مشاهدات ومعلومات وتجارب وقراءة للتاريخ ، حتى يصل الى الحقائق التى تفيد بنى وطنه وتجعلهم يأخذون عن الغرب كل حسن ومفيد ويتركون ماهو ضار أو غير نافع .

واستغربت من نهاية هذا الرحالة المغامر الطواف أمين الريحانى (١٨٧٦ - ١٩٤٠) الذى ترك قريته «الفريكة» فى لبنان بعد أن سلح نفسه بمختلف ألوان الثقافة والتجربة الفنية ، وراح يتنقل فى رحلات لا أول لها ولا آخر فى بلدان أوربا وأمريكا وجميع الدول العربية ، التى جالس فيها البسطاء والحكام على حد سواء ، ودعا من خلال مؤلفاته العديدة الى ضرورة إشباع العقل العربى من المدنية الحاضرة للغرب والى أهمية نشر الأفكار القومية ، والعمل على طريق الوحدة العربية حتى نحقق طموحاتنا ونعيد سيرتنا الأولى .

إن هذا الرحالة الذى عاش حياته بالطول والعرض فى أسفاره العديدة لم يتحمل الغربة فى شيخوخته ، فعاد الى قريته شيخا فى الخامسة والستين من عمره ، حالما بتجديد الشباب واستعادة أيام العمر الضائعة ، فاشترى دراجة بدأ يطوف بها فى كل المناطق التى ارتبطت فى حياته بأعز الذكريات ، وفجأة وهو غارق فى أوهام «ليت الشباب يعود يوما» سقط من فوق دراجته بعد أن داهمه الموت وتوقف قلبه عن الخفقان ! .

وفى كتاب «الدنيا فى باريس» لشيخ العروبة أحمد زكى باشا (١٨٦٨ - ١٩٣٤) عشت مع محاولة لإمتاع النفس والقلب والفؤاد بكل مافى لندن

وباريس من متع ومسرات ، فقد ظل يعبر المانش بين العاصمتين الكبريين فى عام ١٩٠٠ احدى عشرة مرة دون أن يصيبه دوار البحر أو يناله منه سوء ، ولم يكن يبغى من وراء تلك الرحلات إلا الاستزادة من العلم والتوسع فى البحث ، وكذلك التطلع الى كواكب الجمال ، وجمال الكواكب ، فى ذياك الفلك الدوار !

وكانت رحلات هذا الرجل المتعددة الى أسبانيا وآسيا وافريقيا وأوربا ومشارف القطب الشمالى وبلاد القوقاز وبعض البلاد العربية كاليمن وفلسطين والحجاز ، تكسبه طاقة ضخمة من الخبرة والتجربة والمعرفة . . كما أنها دفعته الى فكرة إحياء الكتب القديمة وطبع مخطوطاتها على نفقة الحكومة ، وفى مقدمة تلك الكتب التى عثر عليها ونقلها خلال رحلاته «مسالك الأبصار لابن فضل الله» وفيه وصف لآثار القدس وكتاب «الأصنام لأبى المنذر هشام بن محمد» وكتاب «الاكليل للهمذانى» .

وعندما ذهب الى الأندلس وقابل ملكتها كان أول ما طلبه منها الكشف عن بقايا مدينة الزهراء التى أنشأها عبد الرحمن الناصر .

وكان اعتزاز أحمد زكى ببواعث تلك الرحلات يفوق كل وصف ، حتى انه قال عنها ذات يوم «إننى رجل أميل الى الحركة والبحث منذ كنت شابا يافعا ، أقتل الليل منقبا عن مسألة ما ، وأجتاز البحار وأقطع القفار للعثور على أثر أو حقيقة ضائعة» !

وكان القاضى محمود رشاد (١٨٥٤ - ١٩٣٤) مثله من العاشقين لأهداف ومزايا الرحلة ، فقد مثل مصر فى مؤتمر المستشرقين بفيينا ، وقام برحلات عديدة الى روسيا والمجر ورومانيا وتركيا والنرويج ، وكتب فصولا ممتعة تعرض فيها لكل ما يخطر على البال بداية من الملابس والمبانى والمحاكم والشوارع والأطعمة الى العفة والعادات غير المألوفة فى الغرب .

ومن أطرف ما قرأته فى رحلاته ، عندما خرج من محل كوافير فى أوربا ليحذر زملاءه المصريين بقوله : «إياك ياصاح أن تجازف وتقص أظافرك عند حلاق فى أطلس أو غيرها من مدن أوربا ، وعول على مقصك وقلم أظافرك بنفسك ، فإن قص أظافر اليدين أجرته ثلاثة فرنكات ، أى أكثر من أجرة حلق

الرأس والذقن معا ، فاحمد الله على ما أنت فيه من الرخاء ، وادع لحلاق سيدنا الحسين وباب المزينين بطول العمر والبقاء» !

وغير هؤلاء هناك الرحالة الشهير محمد ثابت الذى كان مشرفا على النشاط الاجتماعى والرياضى بوزارة المعارف العمومية ، وكان شغوفا الى حد كبير بالرحلة حتى أنه لم يترك مكانا فى الدنيا إلا وانتقل إليه بداية من الدول الأوربية وأمريكا ، الى اليابان وأوغندا ، وألف عن تلك الرحلات ١٥ كتابا من أمتع الكتب ، لأنها تقدم صورا حية للبلاد التى زارها ، وتعرض فيها لعدة أخطار كان من بينها دخوله سجن «جوهانسبرج» عندما قبض عليه البيض الأوربيون أثناء رحلته فى افريقيا بتهمة أنه ملون !

ولم يكن أحمد فكرى ، والشيخ محمود الباجورى ، ومحمد عياد الطنطاوى ، ولبيب البتانونى ، ومحمد الخضر حسين ، ومحمد فريد ، وشكيب أرسلان وغيرهم من الرحالة ، أقل عشقا للسفر واهتماما بالبحث عن أسباب نهضة الغرب وتخلف الشرق ، فقد سجلوا انطباعاتهم عن تجديد الحياة فى الغرب بصور لم تكن مألوفة ، ولهذا أقبل على قراءتها بشغف قطاع عريض من الناس ، شدهم هذا النوع من الكتابات التى هى خليط من المعارف الإنسانية بكل أبعادها العلمية والأدبية والتراثية !

أين أدب الرحلة ؟!

وإذا كان مطلع هذا القرن قد شاهد حركة لا بأس بها فى أدب الرحلة ، فإن نصف القرن الأخير تراجع فيه هذا اللون بشكل ملحوظ ، رغم ازدهار صناعة الطباعة وتعدد دور النشر وانتشار الكتب وتطور وسائل النقل والاتصالات وأجهزة التصوير والتقدم الهائل فى عالم الالكترونات !

إننا نلاحظ اليوم أن الرحلات صارت أسهل وأيسر ، بعد أن استبدل الإنسان محاولات قطع المسافات على قدميه أو بالجمال والخيول ، بالسيارات والبواخر العملاقة والطائرات المجهزة بكل وسائل الراحة والاسترخاء . . وبعد أن أصبح فى مقدور الآلاف فى عالمنا العربى أن ينتقلوا الى أى مكان على وجه

الأرض دون أدنى تعب أو عناء . . وبعد أن وفرت التكنولوجيا الحديثة أغلب احتياجاتنا أثناء الرحلة ، وأصبحنا نستخدم أجهزة تسجيل فى حجم علبة السجائر ، نجمع فوق أشرطتها كل احتياجاتنا من المعلومات والانطباعات والمقابلات أثناء الرحلة . . وهذا - بالطبع - بالإضافة الى هذا الكم الهائل من شركات السياحة التى تتبارى فيما بينها من أجل إعداد الرحلات الجماعية ، التى تأخذنا الى أى مكان فى العالم بنفقات أقل وتضع أمامنا خطط الرحلة منذ المغادرة حتى العودة الى الوطن فى أمان ويسر !

إذن لماذا لم تسفر كل تلك التسهيلات عن كتب تثرى المكتبة العربية بدفء الحياة فى ذلك العالم الواسع الرحب ، الذى مازلنا لا نتعرف عليه إلا من خلال المعلومات السطحية التى لا نجنى منها فى النهاية سوى القشور ؟! . .

ولماذا ضاع فن أدب الرحلة وسط أكوام الكتب المتعددة التى تصدرها دور النشر ، رغم ما يمثله من قيمة ذهنية ممتعة تجمع بين كل أساليب الفنون الأدبية من قصة وشعر ومسرحية ونقد ومقال وتراث شعبى ؟!

هل يمكن أن تكون تسهيلات السفر واختراعات القرن الأخير الهائلة بمثابة نقمة على الأديب والصحفى والكاتب ، تقتل فى داخله العواطف ، وتجمد الأحاسيس ، نتيجة لانعدام المعاناة وضياع فكرة المغامرة التى تقوم عليها أصلا جذور الرحلة ؟

إننا لو بحثنا من حولنا فى السنوات الخمسين الأخيرة ، فإننا لن نجد من آثارها فى كتب الرحلات الا القليل !

بعض تلك الكتب لا نستطيع أن نسميها رحلات بمعنى الكلمة ، ولكنها نتاج إبداعى ممتع على هامش الرحلة ، مثل «فى منزل الوحى» للدكتور محمد حسين هيكل ، و«ليلى المريضة بالعراق» للدكتور زكى مبارك ، و«أبو الهول يطير» لمحمود تيمور ، و«زهرة العمر» لتوفيق الحكيم ، و«فى الصيف» للدكتور طه حسين .

بينما نجد أن كتب الرحلات بمعناها العريض الواسع لو قسمناها على السنوات الماضية لكان منها كتاب فى العام الواحد على الأكثر ، مثل «رحلات»

لعبد الوهاب عزام ، و«فى صحراء ليبيا» لأحمد حسنين و«رحلة الى الحجاز» لابراهيم عبد القادر المازنى ، و«الانجليز فى بلادهم» لحافظ عفيفى ، ومجموعة «سندباديات» لحسين فوزى ، و«حقيبة فى يد مسافر» ليحيى حقى ، و«أمريكا الضاحكة زمان» لمصطفى أمين ، و«ايران فوق بركان» لمحمد حسنين هيكل ، و«شهر فى روسيا» لأحمد بهاء الدين ، و«الفنون والجنون فى أوربا ١٩٦٩» للدكتور لويس عوض ، و«عربى فى الصين» لناصر الدين النشاشيبى ، و«مشاهدات فى الهند» لأمينة السعيد ، و«الصعلوكى فى بلاد الأفريكى» لمحمود السعدنى ، و«ممنوع الهمس» لكامل زهيرى ، و«حول العالم فى ٢٠٠ يوم» لأنيس منصور ، و«مصرى فى الصين الشعبية» لصبرى أبو المجد ، و«جواز سفر إنسان» لمفيد فوزى ، و«مثلث الخطر» لمصطفى نبيل ، و«مسافر على الريح» لعبد الفتاح رزق ، و«رحلاتى حول العالم» للدكتورة نوال السعداوى ، و«صالون من ورق» لكمال الملاخ ، و«السفر على جواد الشعر» لفتحى سعيد ، وغيرها من الكتب المماثلة التى أعطت إضافة ممتعة لهذا الفن الأدبى الجميل .

ولهذا فإننى فى هذا الكتاب أحاول أن أقدم بعين صافية ، رحلاتى المتعددة التى زرت خلالها ٥٤ دولة فى وطننا العربى والقارة الأفريقية وآسيا وبعض البلاد الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية .

ففى تلك الرحلات كثيرا ما كانت بعض المدن تحرك فى قلبى مواجع هذا الزمن الردىء الذى غرقنا فيه حتى النخاع ، بعد أن سرقوا من أعماقنا كل ما ورثناه من أمجاد الحضارة . .

وكنت أرى بعض المدن من خلال أبطالها الذين تعمقوا فى أرواحنا وخطفوا أبصارنا وعقولنا ، بما قدموا من مواقف وتضحيات غالية ، غير عابئين بذهب المعز وسيفه . . كما كنت أجد نفسى فى مدن أخرى ضعيفا أمام التراث الموغل فى القدم ، فلا أجد مفرا من التجوال فيها فوق صهوة حصان الزمن ، لعل لمعة أسنة سيوف الحق تمحو همومى الشخصية التى هى حصيلة الأسى والترحم على المجد الزائل .

فى إحدى رحلاتى الأفريقية حاولوا أن يصنعوا منى صيادا ماهرا فى غابات الوحوش ، ولكن خوفى على زوال عالم البرارى النقى جعلنى أرفض أن أكون مدمرا لعالم الغابة المفرط فى الجمال والحسن . . وكذلك عندما عشت وسط قبائل الغجر فى أوربا ، تمنيت أن أمارس حريتى مثلهم ، بعيدا عن قناع الحضارة الزائف ، وأن أخلع مثلهم أظافر البشرية الدامية لأستبدل بها صفحات تعيد لنا الأحلام واللحظات الجميلة التلقائية !

بعض المدن جردتنى من الشعور بالدفء والإحساس بلمسة الفن الأصيل ، لأنها اهتمت ـ فقط ـ بتأكيد قوتها وتفوقها وسلطانها على البشر أجمعين بلا حدود . . بينما كنت أتحول فى مدن أخرى الى عاشق ينهل من فيض ذلك النهر الإنسانى ، الذى لم يجف أو ينضب ، رغم قسوة السنين !

عشت فى مدن ضخمت «الأصنام» ثم اكتشفت الخديعة الكبرى ، فألقت بهم من حالق . . ورأيت مسلمين منسيين فى عزلة تامة عن المجتمع الإسلامى ، يغسلون أحزانهم فى مياه المحيط الهندى ويعيشون كمواطنين من الدرجة الثالثة فى بلادهم !

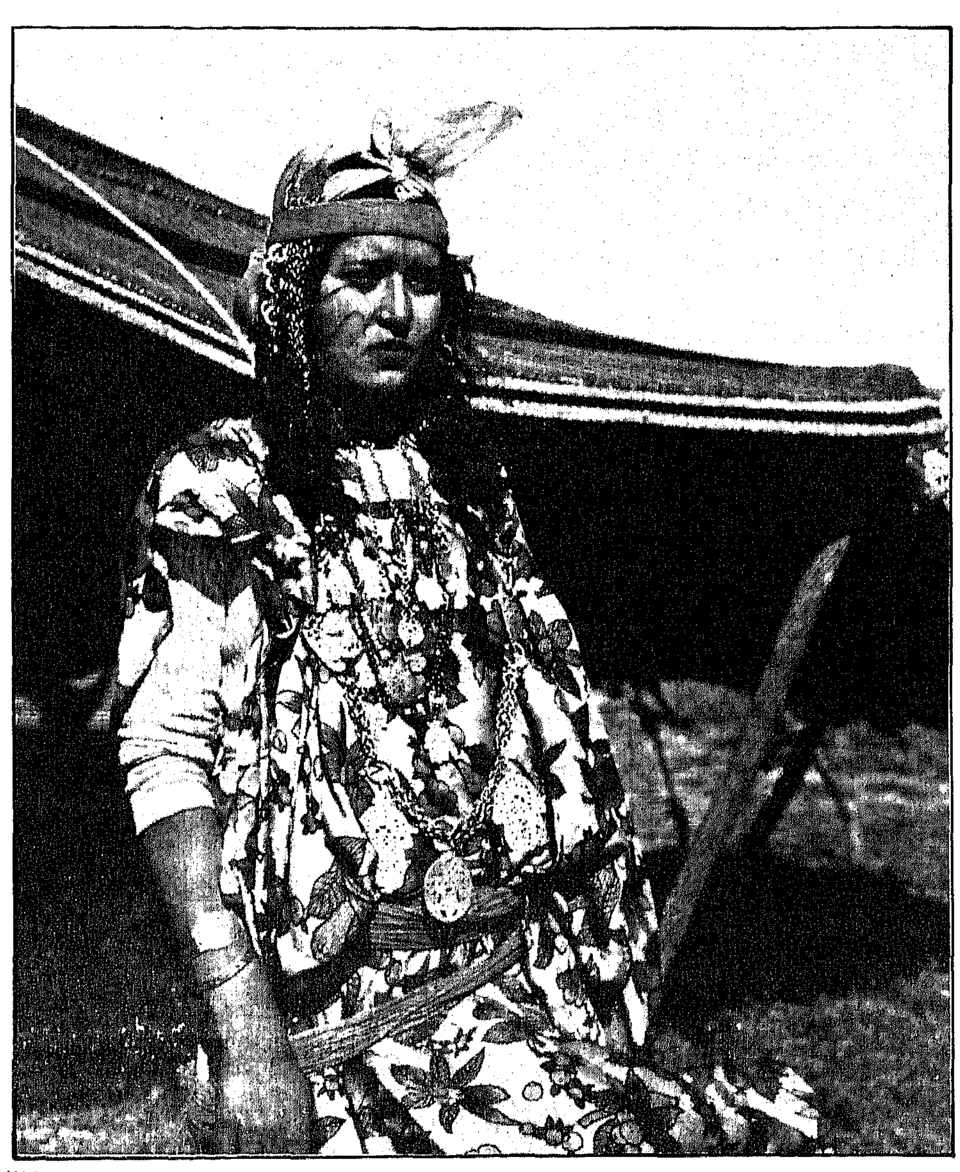
وباختصار عشت فى كل مكان حللت به مع نبض الإنسان على هذه الأرض ، وحلمه الدائم فى أن تظلله شجرة العدل والحرية المورقة فى كل عصر وأوان !

واذا كان هذا الكتاب ثمرة من ثمرات عشقى للإنسان أينما كان . . فهو فى نهاية الأمر جهد متواضع أحاول من خلاله أن أقدم للمكتبة العربية كتابا جديدا فى هذا المجال ، يضاف الى جهود زملائى السابقين الذين أعطتهم الرحلة طاقة ضخمة من الخبرة والتجربة ، فسجلوا فى مؤلفاتهم حياة الأمم والشعوب بأسلوب رشيق يجمع بين المتعة والفائدة باعتبارهما أسمى رسالة .

إننى بتقديم فصول هذا الكتاب للقارىء العزيز ، أتمنى مخلصا أن أكون قد نقلت إليه ـ بصدق ـ تجربتى فى الشرق والغرب على حد سواء ، والله الموفق .

كمال سعد

تونس فوق صهوة
جـــواد الزمـــن !



أول مايصادفك على أرض تونس الخضراء عندما تتجول بها ، هو ذلك البساط البديع الذى يغطى صفحة الأرض بالعشب والنبات والأشجار ، ولهذا فإن اسمها لم يطلق مجازا ، ولكنه حقيقة واقعة تغلف المكان كله بلون الحياة الذى يزداد نشوة وبهجة مع البيوت البيضاء ذات الشرفات والقباب التى تتناثر فى الساحل والداخل وكأنها سيمفونية رائعة تصدح بأحلى نغمات الطبيعة الحانية سواء فى « صفاقس » الخصبة الأرض ، أو فى « رفراف » موطن العنب المغروس على مدارج متتالية ، أو فى « عين دراهم » القرية المكسوة بغابات كثيفة من الأشجار ، أو فى « جربة » ذات النخيل الباسق ، أو « جرجيس » التى هى واحة مشجرة بالخضرة ، أو فى « الحمامات » بعيونها المعدنية الحارة وسلال بقولها وفواكهها ، وفى القيروان وبنزرت وتونس العاصمة وغيرها من المدن والقرى التى تتفجر فيها الطبيعة بكل محاسنها على مر الفصول الأربعة !

وداخل الأزقة والقصبات مازلت ترى الإنسان التونسى المتمسك بزيه الوطنى المتمثل فى عباءة للرجال تحتها سروال وقلنسوة شبيهة بطربوش العمامة فوق الرأس ، وعباءة أخرى للمرأة معها حجاب لا يظهر سوى عينيها ، وعبارة حلوة يرددونها فى مناسبات عديدة أمامك كعنوان على الترحاب : « تونس تضوى على البرانى » أى أنها تعطى البهجة والفرحة لكل زوارها !

ولأن مدن تونس وقراها الجميلة تذكرك دائما بحكايات المجد الغابر ولمعة أسنة سيوف الحق ، فقد قررت أن أدخل إليها هذه المرة فوق حصان الزمن ، أن أبدأ رحلتى إليها بتلك الأيام التى حفرت فى ذهنى أسئلة عديدة لم أحصد خلال البحث عن أجوبتها سوى الأسى والترحم على حضارة انطفأت شعلتها وماتت موت الشهاب !

فى بداية رحلتى ، قطع بى حصان الزمن مئات السنين إلى الوراء ، تاركا أمامه كل آلام سنوات الضعف والتمزق والانهيار ، منذ أن أصبحت خناجر الغدر والاستسلام مغروسة فى قلب وظهر الأمة !

ولم يأخذنى مباشرة إلى لحظة وصول الجيوش الإسلامية إلى تونس ، قبل أن يقطع بى مشوارا أبعد يمهد به لهذا الحدث الهام :

* الزمان : القرن التاسع قبل الميلاد .

* المكان : شبه جزيرة صغيرة فى خليج تونس قرب مدينة تونس الحالية .

* الرواد : آلاف الفينيقيين الذين جاءوا إلى السواحل التونسية بهدف تحقيق حلمهم فى اقتناء معادن البحر المتوسط ، وليصبحوا سادة تجار البحر بإقامة قاعدة بحرية يراقبون منها كل مناطق نفوذهم على الشواطىء الغنية .

وما إن استقر الحالمون الجدد ، حتى أقاموا مدينة عصرية بمعنى الكلمة ، كانت مدينة ناطحات السحاب الأولى فى العالم كله لأن طوابق مبانيها وصلت إلى ثمانية طوابق وهو أمر غير مألوف حتى ذلك العصر ، كما وضعوا لها أول دستور فى الدنيا ، ونبغ العديد من أبنائها فى العلوم وخاصة المهندس الزراعى « ماجن » أول من ألف فى علم الفلاحة بشهادة التاريخ الذى أكدت صفحاته أن الإغريق والرومان اقتبسوا من كتبه معظم معلوماتهم فى الزراعة !

واستطاعت « قرطاج » أو المدينة الجديدة - حسب ترجمتها من الاسم الفينيقى - أن تحقق جانبا من أحلام الرواد الجدد بالانطلاق من فوق شبه الجزيرة الصغيرة إلى شواطىء الشمال الأفريقى لتصل اكتشافاتهم حتى سيراليون ، وليصبحوا سادة - بحق - للتجارة البحرية فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد عندما سيطروا على غربى البحر المتوسط ، وبسطوا نفوذهم على سردينيا ومالطة وغيرهما !

وعندما فشلوا فى السيطرة على صقلية بسبب تعاظم القوات الرومانية ، عوضوا ذلك بفتح أسبانيا بعد أن أتمه القائد القرطاجى الشهير « هانيبال » الذى مازالوا يدرسون خططه فى معظم الكليات العسكرية فى العالم باعتباره واحدا من أهم عظماء القادة العسكريين فى كل العصور ، نتيجة لبراعته فى وضع الخطط الحربية ، وجرأته النادرة ، وقدرته التى لامثيل لها فى الاحتفاظ بولاء الجيوش التى جندها فى بلاد أجنبية .

فهانيبال أو هنيبعل (٢٤٧ - ١٢٨ ق . م) هو ذلك القائد الأسمر الذى قال عنه نابليون بونابرت : « إنه أكبر قائد عسكرى فى العالم »!

ولعل السر فى إعجاب القائد الفرنسى العبقرى بالقائد القرطاجى الفذ ، إنما يعود إلى التشابه الغريب فى روح الابتكار والالهام وحب المفاجأة فى أفكار وخطط القائدين أثناء الحروب ، فقد كان كلاهما يفضل العمل فى جيش يتم اختيار أفراده بعناية على العمل فى جيش لاتتوافر فيه إلا صفة الكم الهائل من الجنود الذين لايعرفون فن الحرب ، كما أن كليهما كان يفضل المواجهة عن طريقين : المباغتة ، واختيار المستحيل ، وقد فضل هانيبال ـ فعلا ـ كما فعل بعده نابليون فى معظم حروبه ، أن يتحرك بجيش صغير مختار لفتح روما فى عقر دارها ، واستطاع بهذا الجيش أن يعبر جبال البيرينيه والألب برجاله وبكل معداته الثقيلة التى من بينها « الأفيال » القوة المدرعة الرئيسية فى قواته ، وانتصر على الجيش الرومانى فى عدة مواقع من أشهرها تريبيا (٢١٨ ق . م) ، وكاد يهاجم أسوار روما الضخمة لولا أن تصدى له القائد الرومانى الشهير فابيوس (٢٧٥ ـ ٢٠٣ ق . م) الذى أعطاه المؤرخون صفات عديدة من بينها « المماطل » و« المؤخر للعدو » فقد واجه هانيبال بتكتيك جديد اعتمد خلاله على تجنب المواجهة الحاسمة بهدف الاستنزاف ، ولذا رسم خططه على أساس مناوشة قوات هانيبال باستمرار دون الاشتباك معه فى معركة حاسمة،وفى هذه الأثناء كان هانيبال قد بدأ يتجه إلى الجنوب لكسب العديد من الحلفاء إلى صفوفه ، وكانت روما نفسها قد ضاقت ذرعا بخطط فابيوس التى لم تحقق أية ثمرة حربية واضحة ولهذا استبدلوا به قائدا غيره ، لتُسحق جيوشهم تحت أقدام جيوش هانيبال عند قرية قديمة فى الجنوب هى « كاناى » عام (٢١٦ ق . م) ، وكاد هانيبال بزحفه نحو روما ينجح فى دك أسوارها فى تلك المرة ، لولا أن جاءته أخبار هزيمة أخيه هازدروبال عند نهر متاوروس ، فاضطر للانسحاب إلى جبال بروتيوم ، ثم عجل بعودة قواته من أجل الدفاع عن قرطاجة ضد جحافل الرومانيين .

فى ذلك الوقت كان انتصار قرطاج أو « قرطاجنة » ونموها وازدهار الحياة فى ربوعها الذى يمضى بسرعة البرق ، قد بدأ يبدده الصراع والانقسام الخطير الذى حال دون حصول هانيبال على الامدادات الضرورية لمواجهة حصار الرومان للمدينة ، ولذلك هزمه الرومان فى عقر داره فى موقعة زاما (٢٠٢ ق . م) وسقطت قرطاج العظيمة تحت سنابك وعجلات القائد الرومانى

« سكيبيو » الذى دمرها عن بكرة أبيها ، انتقاما من ثلاث حروب استمرت أكثر من قرن ونصف قرن ، وعرفت باسم الحروب « البونية ».

وعلى أثر تلك الهزيمة ، بارح هانيبال بلاده مفضلا المنفى على الوقوع فى الأسر ، واستقر فى إقليم قديم فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى هو « بيثينيا » الذى يمثل الآن جزءا من تركيا الحديثة ، ولكنه عندما أحس بأن حكام هذا الإقليم فى طريقهم لتسليمه للرومان ، اختار الانتحار بوضع السم فى طعامه على أن يقع فى قبضة أكبر خصومه !

وإذا كان هانيبال قد أغاظ أعداءه بعدم الوقوع بين أيديهم ، فإن انتقام القائد الرومانى المنتصر لم يتوقف عند حد تدمير المدينة وإحراق وجهها العصرى باشعال النيران فى كل شبر من حقولها ومبانيها ، ولكنه رش أرضها بطبقة سميكة من الملح حتى لاتصلح للنبات والحياة ، وحتى يتعلم أى جنس من الشرق ضرورة الانحناء للغرب !

. . . .

وهنا أبى حصان الزمن أن يمضى معى فى الرحلة بتسلسلها الطبيعى ، فقد أراد أن يرينى مدى استيعابنا لدروس التاريخ وعبرها ، فانطلق كالسهم يسابق الريح ، عابرا المسافات الهائلة وأحداث الزمن الغابر طوال ٢٢ قرنا ، ليضعنى أمام مشهدين :

المشهد الأول ، لمثقف من أبناء الشعب التونسى يقرأ قصيدة للشاعر أمل دنقل - مثله مثل كل الذين قرءوها فى العالم العربى - وهى قصيدة بعنوان « كلمات سبارتكوس الأخيرة » أراد بها أن يصرخ فى وجوه الذين جعلونا غرباء فى وطننا ، وأراد - أيضا - أن يجرح هؤلاء الذين لايملكون قوة الإرادة للخروج من المأزق العربى :

يا إخوتى الذين يعبرون فى الميدان فى انحناء
منحدرين فى نهاية المساء
لاتحلموا بعالم سعيد
فخلف كل قيصر يموت : قيصر جديد .

وإن رأيتم فى الطريق « هانيبال »
فاخبروه أننى انتظرته مدى على أبواب روما المجهدة
وانتظرت شيوخ روما - تحت قوس النصر - قاهر الأبطال
ونسوة الرومان بين الزينة المعربدة
ظللن ينتظرن مقدم الجنود . .
ذوى الرءوس الأطلسية المجعدة
لكن « هانيبال » ماجاءت جنوده المجندة
فاخبروه أنى انتظرتُه . . انتظرتُه
لكنه لم يأت !
واننى انتظرتُه . . حتى انتهيت فى حبال الموت
وفى المدى « قرطاجةً » بالنار تحترق

أما المشهد الثانى ، فقد كان لمثقف آخر من أبناء تونس منكب على قراءة ماكتبه المؤرخ الفرنسى المعاصر « شارل بيكار » عن عظمة العصر القرطاجى فى مؤلفاته العديدة التى أكد فيها أن حدود دولة قرطاج القوية تجاوزت مدينة باريس حاليا ، وأن أسوارها كانت تحيط بكل هذه الرقعة الواسعة التى كانت تحتوى على مساحات شاسعة من البساتين والحقول لضمان قوت سكان المدينة أيام الحصار الطويلة !

إنه يقرأ ماقاله هذا المؤرخ وماقاله عديدون غيره عن قمة نمو وازدهار واتساع قرطاج فى عصرها الذهبى ، ويتساءل متعجبا : لماذا انسقنا - كالعادة - وراء من أرادوا إكمال الهزيمة العسكرية بهزيمة نفسية ؟! . . لماذا لم نستفد من سلبيات وإيجابيات أول مدينة قوية لنا فى البحر المتوسط ، ولم ندرك من قراءة التاريخ أن المصائب كانت تحل بنا مع كل صراع وانقسام بين صفوفنا ؟!

. . . .

والآن عذرا لاكتفائى بالمشهدين من عصرنا الحالى ، لأننى لا أريد أن أقطع أوصال أحداث الماضى بالاستغراق فى آلام الحاضر ، ولهذا قررت أن أقطع رحلة العودة - مرة أخرى - إلى زمن انتحار هانيبال ، وعندما وجل حصانى أمام قرطاج المحترقة ، بدأت الأحداث تتلاحق أمام عينى من جديد . .

لا أحد كان يتصور أن يعيد الرومان بأنفسهم بناء قرطاج بعد احتراقها ، ليصبح ساحلها كله خاضعا لحكم روما المباشر ، بينما بقية أرضها فى الوسط والجنوب مع نوميديا (الجزء المقابل للجزائر الحالية) يتولى أمرها أمراء البربر بتوجيه من روما وتحت إشرافها !

ويفرز لنا التاريخ من بين أمراء البربر الأمير يوغرطه (١٥٠ ـ ١٠٥ ق . م) نتيجة لاهتمامه بالزراعة وسعيه الحثيث لتعمير البلاد وتقويتها ، وتدفعه تلك الشهرة إلى التفكير فى طرد الأجنبى من أرض بلاده ، ويبدأ فى رفع شعار مقاومة الرومان ، وبينما كان ينظم صفوفه للمواجهة خانه ـ كالعادة ـ أقرب الناس إليه ، لقد جاءته الخيانة من أولاد عمومته الذين أوقعوه بين أيدى الرومان ليصدروا حكما ضده بالسجن حتى الموت فى أصعب جحور روما وأكثرها ظلاما !

ولم ينقذ سكان قرطاج الأصليين من وطأة ظلم الرومان إلا استنجاد حاكم افريقيا الرومانى « بونيفاس » بجنسريق ملك الوندال (قبيلة جرمانية قديمة) الذى كان يحكم أسبانيا ، فقد وجدها الأخير فرصة ذهبية لتجهيز جيش يغزو به شمال أفريقيا ، فزحف إلى المنطقة غير عابىء بمن استنجد به ، وهاجم بجيوشه المستغيث ـ بونيفاس نفسه ـ الذى ولى هاربا تاركا خلفه قرطاجنة ليستولى عليها ملك الوندال عام ٤٣٥ م .

وعقب سيطرة ملك الوندال اتجه بجيوشه إلى روما واستولى عليها بسهولة ، ولكن نشوة الانتصارات وكثرتها أصابته بالغرور وحب الترف وابتلت رجاله بالصراع المستميت على السلطة .

وكان طبيعيا أن يفرز هذا الوضع المتردى خليفة للحكم غاية فى الضعف هو « هلدريق » الذى لم يستطع جيش الوندال أن يتحمل ضعفه فأنزله من الحكم ليضع مكانه « جليمار » الذى كان من نفس أفراد عائلته .

وتتكرر قصة أول سقوط للحكم الرومانى فى قرطاجنة ، عندما يستنجد ملك الوندال المخلوع بأصدقائه البيزنطيين ليساعدوه فى العودة إلى العرش ، فيأتوه على صورة جيش تسد جنوده عين الشمس ، ليتم استيلاؤهم على تونس وتظل

تحت حكمهم ١٠٨ أعوام (٥٣٤ م حتى عام ٦٤٢ م) وطوال تلك السنوات القاسية المغرقة فى الظلم ، كان أهالى البلاد فى ثورات مستمرة على حكم الروم البيزنطيين الذى فرض الضرائب الباهظة وعمم الاضطهاد والرشوة وأحيا عصرا من الملذات والمتع كانت فى نظرهم من ضروريات الحياة كالماء والهواء !

فارس الأحلام

ويبدو أن تلك الأحداث وغيرها كانت تمهد لدخول حصان الزمن إلى أزهى فترات نضال الأمة العربية فى عام ٢٦ هـ (٦٤٧ م)

المشهد بالغ الروعة . .

شمس الإسلام تزحف على شمال إفريقيا فتبدد الظلام وتغمره بنور الحق . .

والشمس الزاحفة تشع بنورها على ٢٠ ألف مقاتل مسلم يقودهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح والى مصر فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وهم يستعدون لملاقاة مائة ألف مقاتل بيزنطى تحت إمرة القائد جرجير (جريجوريوس) الذى امتد نفوذه من طرابلس حتى طنجة ، واتخذ من قرطاجنة مقرا له بعد أن ولاه امبراطور الروم هرقل على أفريقيا .

ويتقدم صفوف المسلمين سبعة فرسان كلهم يحملون نفس الاسم : عبد الله !

إنهم عبدالله بن سعد بن أبى سرح ، وعبدالله بن الزبير بن العوام ، وعبدالله بن عمر بن الخطاب ، وعبدالله بن جعفر ، وعبدالله بن مسعود ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وعبدالله بن عباس بن عبد المطلب . . وكان معهم الحسن والحسين .

ويلتحم الجيشان على أرض سبيطلة ـ بالقرب من القيروان ـ فى معركة سميناها : معركة العبادلة السبعة .

وأثناء المعركة يحاول المسلمون إيقاف سفك الدماء باعطاء فرصة للقائد

البيزنطى جرجير بالدخول فى الاسلام أو دفع الجزية ولكنه يرفض ذلك فى عناد لترتفع حرارة القتال بين الطرفين !

ويلاحظ قادة العدو أن عبد الله بن سعد يصول ويجول فى الساحة ببطولة وشجاعة وفداء ، فيدفعون بمناديهم ليصيح فى جنودهم حتى يتكالبوا للتخلص منه « لاتتركوا عبد الله بن سعد . . ومن قتله له مائة ألف دينار بخلاف زواجه من ابنة قائدنا جرجير »!

ويفطن المسلمون لهذا النداء الخبيث ، ويدركون أن جيش بيزنطة يريد بقتل عبد الله بن سعد أن يحدث ارتباكا بين صفوف المجاهدين ، وعندئذ يصدر القرار المضاد باستخدام نفس السلاح . . سلاح الحرب النفسية . . وينادى منادى المسلمين : « ياقوم . . من جاء برأس جرجير أعطيناه مائة ألف دينار وزوجناه من ابنته واستعملناه على بلاده » .

وما إن سمع القائد البيزنطى جرجير هذا الرد السريع على خطته الماكرة حتى أصيب بالهلع والرعب الشديد .

ويبرز من بين صفوف المسلمين فارس كالحلم ، يمتطى حصانا بالغ الرشاقة ، ويلف رأسه بعمامة كبيرة بيضاء ، ويقبض على سيف بتار فى يده ، يشق به صفوف الأعداء ، باحثا عن قائدهم جرجير الذى ما إن وصل إليه حتى ضربه بسيفه ضربة قوية شقت رأسه ، وجعلت المسلمين يكبرون ، واندفع عبد الله بن سعد ليقبل جبين المقاتل الفدائى الذى أحدث فوضى هائلة بين صفوف العدو بعد مقتل قائدهم وجعل الاختيار الوحيد أمامهم هو ان يولوا الأدبار تاركين خلفهم سبيطلة فى أيدى المسلمين .

كان هذا الفارس هو عبد الله بن الزبير الذى تقول رواية المؤرخ والكاتب العربى ابن الأثير (١١٦٠ ـ ١٢٣٤ م) إنه طلب من ثلاثين فارسا أن يحموا ظهره ، واندفع كالرمح نحو القائد الرومانى جرجير الذى كان يمتطى حصانا أشهب وخلفه جنوده ومعه جاريتان تظلانه بريش الطاووس ، وعندما وصل إليه طعنه وأجهز عليه بالسيف وحز رأسه ونصبه فى رمح وكبر وأخذ ابنته سبية .

وهكذا تم انتصار المسلمين فى سبيطلة ، وعادوا إلى مصر مكتفين بهذا الانتصار الكبير الذى أدى إلى دخول أعداد كبيرة من أهل البلاد فى الاسلام ،

وقبول البقية بدفع الجزية التى كانت عبارة عن ٣٠٠ قنطار من الذهب .

غير أن جيوش المسلمين عادت مرة أخرى لمحاربة الروم فى عام (٤٥ هـ) وفى عهد معاوية بن أبى سفيان ، وكان سبب الحرب كما حققه اللواء الركن محمود شيت خطاب فى كتابه القيم « عقبة بن نافع الفهرى » ترجع إلى أن الروم عندما سمعوا بالأموال التى أعطاها البربر لقوات المسلمين ، أجبروهم فى أفريقية على أن يعاملوهم بالمثل ، واعتذر البربر لأن ذلك ليس فى طاقتهم ولأنه لايعقل أن يدفعوا للظالمين والمستعبدين ، ونظموا صفوفهم تحت إمرة خليفة جرجير ، الذى لم يستطع بقواته أن يصمد أمام جحافل الرومان ، ففر بعد الهزيمة إلى الشام ، واتصل بمعاوية بن أبى سفيان وزين له فتح أفريقية ، موضحا له خيراتها وثراءها ، ودله على عورات الروم ، فما كان من معاوية إلا أن جهز جيشا كبيرا ليعود به فاتحا لأفريقية مرة أخرى .

كان هذا الجيش بقيادة معاوية بن حديج السكونى ، الذى خرج على رأس عشرة آلاف رجل معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك بن مروان ، ومضى بجيشه حتى نزل إلى « قمونية » وهى مدينة كانت فى موضع القيروان ، فهزم الروم عند حصن « الأجم » وأرسل عقب هذا الانتصار ثلاثة قواد من جيشه مع مجموعات من المقاتلين لتحقيق فتوحات فى مناطق جديدة ، وكان هؤلاء القواد هم :

* عبد الله بين الزبير الذى فتح مدينة سوسة.
* عبد الملك بن مروان الذى فتح جلولاء بالقرب من القيروان ، كما دخل بجيوشه إلى بنزرت.
* رويفع بن ثابت الأنصارى الذى فتح جزيرة جربة .

ويعود ابن حديج إلى مصر بعد ثلاث غزوات لأفريقية ، وبعد إقامة ثلاث سنوات - فى الغزوة الأخيرة - بجبل « القرن » المعروف حاليا بجبل « وسلات » ويترك خلفه ميراثا عظيما من العمران ممثلا فى عدة آبار سميت باسمه،وعدة مساكن أطلق عليها اسم « قيروان » وهذا بخلاف تلك الأعداد الهائلة من أهل البلاد التى دخلت فى دين الله أفواجا .

ومنذ عودته الأخيرة إلى مصر ، لم تبرح مخيلته ضرورة أن يصل الاسلام

إلى كل شبر فى أفريقيا ، ولهذا لم يهنأ باله إلا عندما بعث عقبة بن نافع فى عام (٥٠ هـ) إلى آفريقيا مرة أخرى ، لتتوالى ـ عقب ذلك ـ الأحداث والمشاهد .

معارك عقبة بن نافع

وصل عقبة بن نافع الفهرى إلى القيروان مع قواته ، تدعمه الفتوحات الإسلامية العديدة الحافلة بالانتصارات ، والتى جعلته فى مقدمة القادة العسكريين الذين رفعوا ـ بجهادهم العظيم ـ راية الإسلام فى ربوع أفريقيا .

وما إن بدأت جيوشه تستريح بعد طول سفر وعناء ، حتى بدأ يستخير الله ثم مستشاريه فى أن يتخذ من المكان قاعدة عسكرية تكون أولا حصنا منيعا للاسلام ، خاصة بعد أن اتضح له من تجاربه وتجارب السابقين : « أن افريقيا إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام ، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر » وتكون ثانيا بمثابة نقطة انطلاق لاستكمال فتوحاته فى الشمال حتى المحيط الأطلسى .

وعندما اتفقوا فى الرأى وعقدوا العزم بدأ يخطط لبناء مدينة القيروان فى عام خمسين هجرية ، ليستغرق بناؤها خمس سنوات ، ولتصبح مدينة متسعة تضم الحصون والأسوار والمساكن والحدائق والمساجد التى كان من أهمها الجامع الكبير .

ولم تعطل جهود بناء المدينة الحصينة القائد الفارس عن فتوحاته ، فقد كان طوال سنوات بنائها يرسل جنوده فى غزوات متعددة أدت إلى دخول أعداد هائلة من البربر فى الإسلام .

إلا أنه بحلول عام (٥٥ هـ) كان القائد المنتصر على موعد مع مفاجأة غريبة من تلك المفاجات المأساوية التى ابتليت بها الأمةالعربية حتى فى أزهى عصورها ، فالعمل الشاق والإخلاص والتفانى والاستبسال فى الجهاد كثيرا ماتصرعه النفوس الضعيفة التى تهزمها ـ دائما ـ العلاقات الشخصية والحسد والمجاملات الصارخة التى كثيرا ما أجهضت بل وعطلت مسيرة الأمة لعدة

قرون !

هاهو عقبة بن نافع ، سليل بنى فهر (قريش) وابن خالة القائد العربى الفذ عمرو بن العاص يرى كل أحلامه تتهاوى أمام عينيه فى لمح البصر ، بعد أن استكمل العدة للاتجاه للشمال ، فقد عزله فجأة معاوية بن أبى سفيان ، لالخطأ ارتكبه ، أو لهزيمة لحقت به ، أو لظلم أحاق بجنوده أو بأهل البلاد ، ولكن كل جريرته أنه لم يخضع لمقاييس الاختيار الشخصية عند معاوية بن أبى سفيان الذى لفظه وهو فى قمة الإشراق ، ليضع مكانه رجلا اعتبره مؤسس الدولة الأموية من قلة ظلت مخلصة للخليفة عثمان بن عفان حتى بعد مقتله ، كما اعتبره - أيضا - من أهم الذين ساهموا فى تدعيم أركان الدولة الأموية !

ومنذ الدقيقة الأولى لوصول الوالى الجديد مسلمة بن مخلد الأنصارى إلى القيروان ، واكتشافه مدى شعبية عقبة بين الناس والجند ، بدأ الحسد يدب في قلبه ويجعله فظا معه،وبدلا من أن يحتفي بالقائد الفارس الذى سيسلمه راية المنتصر ، عامله بطريقة مهينة ، فوضع الحديد فى يديه وأرسله إلى السجن لشهور ، ليظل على تلك الحال المبكية ، إلى أن سمع معاوية بهذا التصرف الأحمق ، فأصدر أمرا بإطلاق سراح عقبة فورا من سجنه وإرساله إليه فى الشام .

ويصل عقبة إلى الشام ليختلف الرواة حول مصيره السياسى ، فهناك من يقول فى كتب التراث إنه عندما التقى بمعاوية عاتبه على ماحدث له فاعتذر ووعده بأن يعيده إلى عمله . . ويقول رواة آخرون إن عقبة عاد إلى الشام ليجد معاوية قد مات ، وما إن استقبله ابنه يزيد حتى ولاه على أفريقيا مرة أخرى فى عام (٦٢ هـ) بينما تقول رواية ثالثة إن عقبة ظل فى الشام إلى أن مات مسلمة ابن مخلد ، فاستدعاه يزيد وأخبره بقراره باعادته إلى أفريقيا وهو يقول « أدركها قبل أن يخربها » فقد كان يزيد لايحب أبا المهاجر دينار رغم مابذله من محاولات لإظهار أنه لايقل عن عقبة فى فتوحاته التى انتصر فيها على الروم فى قرطاجنة وعلى قبيلة « أوربة » البربرية برئاسة كسيلة الأوربى فى تلمسان !

ورغم اختلاف الروايات الثلاث ، فقد دبت الحيرة فى نفسى خلال رحلتى لاكتشاف عِبر الزمن ، عندما وجدت فارسا عربيا مثل عقبة - الذى لم يعرف

الهزائم العسكرية ـ يعود إلى القيروان على رأس جيشه متجاهلا مبدأ « العفو عند المقدرة » ومصرا على أن يدفع مهاجر ثمن غدره به فيضعه فى السجن ويصادر أمواله ، وما إن يقرر مغادرة القيروان لبداية مهمته الكبرى وهى فتح شمال أفريقيا ، حتى يعين نائبا له يتولى شئون المدينة فى غيابه وهو زهير بن قيس البلوى ، ويصر على عدم ترك مهاجر خلفه فى السجن ، بل يأخذه مكبل اليدين ليسير فى ركاب جيشه !

ويبدو أن عقبة فى تصرفه القاسى لم يخضع لمنطق العاطفة ، بقدر ماسيرته ظروف الواقع التى أملت عليه أن يتخلص أولا من خصمه الذى نافسه ـ يوما ـ على كرسى السلطة ، حتى يتسنى له أن يحقق كل أحلامه فى الشهرة والمجد !

وقد استطاع عقبة ـ حقا ـ أن يكتسح الرومان أمامه فى عدة مواقع منها باغاية وتلمسان وأربة وتاهرت ، وعندما استغاثوا بالبربر لمعاونتهم فى صد جحافل المسلمين ، خطب فى جنده قائلا : « أبشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم عز وجل لايسلمكم فالقوهم بقلوب صادقة » .

وانتصر عقبة ، وانهزم الروم والبربر ، ومضى الفارس العظيم فى طريق النصر إلى طنجة ليقاتل البربر ويهزمهم فى عقر دارهم ، وليصل بى حصان الزمن إلى ذلك المشهد الذى كثيرا ما هزنا نحن معشر المسلمين فى كل بقاع الأرض ، لإحساسنا بالهوة السحيقة بين حال الأمس بأمجاده الخارقة وحال اليوم الذى سقطت فيه الشجاعة والإقدام والنجدة وبقية الصفات النبيلة تحت سنابك الفرقة والتنابذ والغدر والخيانة والمباهاة بالعمالة لأعداء الله والوطن !

لكم تمنيت أن أكون شاهدا على مجد هذا المشهد وأنا أحيا عصره المذهل عندما وصلت خيول جيش عقبة إلى أقصى بلاد المغرب عند بلدة تسمى « ملبان » ، وما إن لمست حوافر فرسه مياه المحيط حتى قال قولته الخالدة : « يارب . . لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهدا فى سبيلك » ثم نظر إلى السماء وهو يقول : « اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود ، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك ، حتى لا يعبد أحد من دونك » .

إلا أن عقبة بعد طول فتوحات وانتصارات ، ينفض غبار المعارك العديدة من

على كاهله ليحصى ماتبقى له من جنود ، فيكتشف أن جيشه لم يعد يتجاوز الثلاثمائة فارس ، فيدب الوجل فى قلبه ويقرر العودة مسرعا إلى القيروان ليضم جنودا جددا من أهل البلاد إلى جيشه إلى أن يأتيه المدد من مصر والشام ليواصل جهاده .

ويعود مع جيشه الصغير وأفكاره بعيدة كل البعد عن الدسيسة التى دبرها ضده زعيم البربر « كسيلة » بإيعاز من الروم الذين استغلوا وجوده بين صفوف المسلمين فبعثوا له برسالة جمع على أثرها قبائل البربر لمهاجمة عقبة قبل أن يقوى جمعه !

وعندما احتدمت المعركة طلب أبو المهاجر من عقبة أن يحل وثاقه لكى يشارك فى الجهاد مع المسلمين ، مادام الخطر والهلاك يهددان الجميع ، ومادام العدو لايفرق بين مسلم وآخر حتى لو كانا عدوين لدودين .

وقال عقبة لأبى المهاجر وهو يفك وثاقه : « إلحَق بالمسلمين ، وقم بآخرهم واتركنى هنا لأغتنم الشهادة » . . وأبى أبو المهاجر إلا أن يقاتل فى صف عقبة ، ليسقط شهيدا مع كل فرسان المسلمين الذين استبسلوا حتى آخر رمق فى حياتهم ، وليدفنوا جميعا ـ بمن فيهم فارس الفرسان عقبة بن نافع ـ فى منطقة الزاب بالقرب من قسنطينة بشرق الجزائر .

ولكن ، هل يضيع دم عقبة بن نافع هكذا وببساطة ؟

بالطبع لا . . فها هو الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان يستقبل الخبر فى غضب شديد ، ويطلب من زهير بن قيس البلوى أن يثأر من خائن الأمانة ، وينجح فى قتل كسيلة بعد دحر قواته ويعود بعد الثأر لتهاجمه جيوش الرومان فيقاتلها حتى الاستشهاد على سواحل برقة !

ويعود عبد الملك بن مروان إلى غضبه من جديد . . ووقتها كانت ثورته أشد . . فجهز جيشا كبيرا وضع على رأسه حسان بن النعمان الغسانى فى عام ٧٧ هجرية ، وطالبه بأن يضع نهاية لكل تلك الحروب بتحقيق نصر شامل ، وتحرك الجيش ليدك قرطاجنة تماما كقاعدة أساسية للروم وليواجه البربر فى جبال الأوراس ، فتهزمه فى البداية أميرتهم الكاهنة « داهيا بنت ماتيا » فيعود

إليها باستعداد أكبر ليهزم قواتها تماما ولترفرف راية الإسلام فى أفريقيا ، ولتستمر بعد ذلك جيوش المسلمين فى توطيد هذه الراية وتثبيت فتوحات الإسلام فى تونس والأراضى الأفريقية ونشر الثقافة الإسلامية بين جميع أبناء قبائل البربر الذين أصبحوا من أكثر المدافعين عن العروبة والإسلام ، حتى أن أبناء أميرة البربر أصبحوا من ضمن قواد الجيوش الإسلامية المكبرين باسم الله فى كل معركة يخوضونها .

وبفضل تعاون العرب والبربر أشرق نور الإسلام ـ فيما بعد ـ على المغرب كله والأندلس بقيادة بطلين لامعين فى التاريخ الإسلامى هما موسى بن نصير وطارق بن زياد .

شاعر كالعاصفة

يعبر بى حصان الزمن السنين والأحداث وسط لهيب القيظ فى الصيف وبرودة الصحراء القارسة فى الشتاء ، مرورا بوالى أفريقيا عبد الله بن الحبحباب الذى بنى جامع الزيتونة فى عام (١١٦ هـ) إلى دولة الأغالبة التى استقلت فى عهدها أفريقيا وأصبحت مرتبطة بالخلافة العباسية ، إلى الدولة العبيدية الفاطمية التى أسسها عبيد الله المهدى بعد أن أنقذ من سجنه فى المغرب ونادى بنفسه خليفة فى أوائل القرن الرابع الهجرى معارضا الخلافة العباسية ، إلى دولة الموحدين التى استطاع مؤسسها عبد المؤمن بن على الكومى أن يوحد المغرب الأقصى والأوسط قبل وفاته فى عام (٥٥٨ هـ) إلى الدولة الحفصية التى شقت جهود توحيد البلاد فى عهد الدولة السابقة ، والتى ظل حكامها فى صراعات أدت إلى تعاون أحدهم وهو الحسن بن أبى عبد الله مع الأسبان ، فدخلوا تونس ونهبوها واستباحوا كل شىء فيها ، ولم ينته دور هذه الدولة إلا بدخول تونس تحت حكم الدولة العثمانية !

وينطلق الصهيل عاليا من رئتى جواد الزمن العربى المنهك ، عندما يدخل إلى عصر ذبول الأشجار والعيدان واندثار الألوان ، فهو لايريد الوقوف طويلا مع مجىء الحرب البروسية الفرنسية عام ١٨٧٠ ، وهى الحرب التى خرجت منها فرنسا مهزومة أمام المانيا ، فعوضت ذلك بتوقيع معاهدة « باردو » مع الباى

محمد الصادق فى ١٢ مارس عام ١٨٨١ والتى احتلت بموجبها فرنسا كل الأراضى التونسية ، واحتفلت بالمناسبة فى قصر الحكم « باردو » الذى ظلت الأسرة الحسينية التى أسسها حسين باى الأكبر تحكم منه تونس بالحديد والنار منذ عام ١٧٠٥ حتى ٢٥ يوليو ١٩٥٧ ، فقد كان « باياتها » يتحالفون باستمرار مع الاحتلال الفرنسى ضد الشعب ، ومنذ ذلك التحالف الكريه غطى الغبار كل جدران المدينة وانطلقت السهام والخناجر المسمومة إلى ظهر الأمة ، ووجدت نفسى لا أطيق المشهد الرهيب ، ففررت خارجا من باب المدينة ، باحثا عن سهل شاسع متسع ، أنسى فى رحابه سوق الدم والضغينة وبيع حرية الشعب المسلوب الإرادة بأرخص الأسعار !

ظل حصانى العربى يركض عبر السهول ، إلى أن بدأ الشعب التونسى يعلن عصيانه أمام هذا الاستعمار الاستيطانى ، فاستدار ليبدأ الرحلة من جديد ، فقد بدأت المقاومة الباسلة لكل أساليب فرنسا الهادفة إلى طمس عروبة تونس .

وخلال معركة الاستقلال دخل بى حصان الزمن من باب المدينة لأرى سنوات التضحية عندما تسلح أبناء تونس بروح التحدى فى سبيل استعادة الكرامة ، وتمسكوا بتراثهم القديم وتقاليدهم المغروسة فى الأرض ، ووقف بى أمام شخصيتين حفرتا اسميهما بأظافرهما فى جسم التاريخ وهما : محمد البشير صفر الذى كان أهم الذين أيقظوا الروح القومية فى نفوس أبناء تونس وعملوا على إحياء نهضة فكرية تتشبث بالهوية العربية والاسلامية ، والشاعر العظيم أبو القاسم الشابى .

كان البشير صفر كما يقول محمد الفاضل بن عاشور فى كتابه « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » رجل الحماس المتناهى والثورة المتقدة على الوضع السيىء الذى كانت عليه البلاد ، وكان يقف بالمرصاد لمحاولة فرنسة تونس روحا وفكرا .

إن عظمة البشير صفر تتلخص فى أنه رجل وطنى من أخمص قدميه حتى قمة رأسه ، فقد حاول الاستعمار الفرنسى أن يحتويه ويقتل فيه روعة الوطنية عندما أرسله شابا إلى مدارس باريس مع مجموعة من المتعلمين فى عام ١٨٨٢ لينهلوا من المعارف والتربية والحياة الفرنسية ، ولكنه عاد بعد إكمال تعليمه

وهو أكثر تمسكا بثقافة وتربية وحياة بلاده ، وعندما عينوه فى وظيفة عليا فى إدارة الأوقاف وقف يفضح سر تأخر البلاد وفقرها وقتل الصناعة والإبداع فيها ، فأصدر الباى قرارا بفصله بايعاز من السلطات الفرنسية ، ولكنه لم يعبأ بقرار الفصل ، وظل يقاوم فكر وروح الاستعمار فى بلاده حتى آخر رمق من حياته ! .

ولم تكن شخصية أبى القاسم الشابى (١٩٠٦ - ١٩٣٤) أقل تأثيرا على وجدانى من البشير صفر ، فقد رأى بلاده وكأنها مزرعة زيتون وفواكه ، ورأى المستعمر وهو يعتبر تونس وطنا له بينما يمنح ويمنع ابناءها من الجنسية التونسية ، فارتفع صوته فى قوة وهو يقاوم المرض الخبيث فى صدره ليوقظ يأس الراقدين فى قصيدته « النبى المجهول » :

أيها الشعبُ ليتنى كنْتُ حطَّابا
فأهوى على الجذوع بفأسى
ليت لى قوة العواصِف ، ياشعبى
فألقى إليك ثورة نفسى
إننى ذاهبٌ إلى الغاب ، ياشعبى
لأقضى الحياةَ وحدى ، بيأسى
إننى ذاهبٌ إلى الغابِ ، علىِّ
فى صميمِ الغاباتِ أدفنُ بؤسى
ثم أنساكَ ما استطعتُ ، فما أنت
بأهل لخمرتى ولكأسى
سوف أتلو على الطيور أناشيدى
وأفضى لها بأشواقِ نفسى
فهى تدركُ معنى الحياةِ ، وتدرى
أن مجد النفوسِ يقظةُ حسِ

وتبلغ ثورة شاعرنا الذى ولد فى قرية « الشابية » بتونس ، وتعلم بالمعهد الزيتونى ، وتخرج فى مدرسة الحقوق ، ليصاب فى ريعان شبابه بداء الصدر . . تبلغ ثورته أشدها عندما يخاطب المستعمر بأقوى الكلمات فى

قصيدة « إرادة الحياة » :

إذا الشعبُ يوماً أرادَ الحياةَ
فلابد أنْ يستجيبَ القدر
ولابـد للـيلِ أن ينجـلـى
ولابـد للقـيدِ أن ينكـسـر
ومن لم يعانقه شوقُ الحياة
تبـخرَ فـى جوِها ، وانـدثـر
فويل لمن لم تَشُقْهُ الحياة
مـن صفـعةِ العـدَمِ المنتصر
كـذلـك قالت لـى الكائنات
وحـدَّثنى روحـهـا المسـتـر

* * *

ويظل شاعرنا الشابى فى أناشيده ، مرة يحاول تحريك السكون ، ومرة أخرى يداعب الأمل ، وتارة ترى فى كلماته الحب والثورة ، وتارة أخرى تسمع مناجاة الوطن بقلب مشتاق لم يحتمل النبض سوى ٢٧ عاما ، فودع الحياة تاركا خلفه زوجة عاصرت سنوات الاستقلال والاصلاح وعاشت فى مدينة بنزرت ، وولدين أكبرهما محمد صادق الضابط وجلال المهندس .

العبور من بوابة الاستقلال

ينطلق بى حصان الزمن راكضا من بوابة الاستقلال وكأنه يمتلك الشمس والجبال والأشجار ، تاركا خلفه ذلك الزمن البغيض الذى ذهب بدون رجعة منذ وطأت الجيوش الفرنسية تراب المملكة التونسية واستعمرتها باسم الحماية إلى خروج آخر جندى فرنسى من قلعة بنزرت البحرية فى ١٣ أكتوبر ١٩٦٣ .

وأطوف بسنوات الاستقلال لأرى ثمرة جهد البلد الذى ينتمى لحوض الحضارات فى إنقاذ شخصيته القومية التى حاول الاستعمار طمسها ، وكيف جمعوا كل مظاهر الثقافة وانطلقوا بنزعة قوية لإحياء التراث العربى مؤكدين

غزارة نبعهم الأصيل .

وأثناء تجوالى يشدنى فى تونس تعلقها بكل فنون الحياة سواء كانت مسرحا أو سينما أو فنونا تشكيلية أو رقصات شعبية وأغانى بدوية أو الاقتباس من الطراز العربى الإسلامى فى المبانى الحديثة ، إضافة إلى المدن العتيقة ذات الطابع الأندلسى ببيوتها البيضاء وبساتينها الخضراء ورائحة الياسمين التى تعبق الجو كله بأيام وليالى قصر الحمراء وعهود قرطبة الزاهرة .

وأرى فيها مكتبات قديمة تضم أمهات الكتب النادرة فى التراث والمخطوطات الهامة التى مازالت بدون تحقيق أو إعادة نشر .

وأجد فى قرطاج والحمامات وأوتيكا وأميلكار وحلق الوادى وسيدى بوسعيد وغيرها من المصايف ، شواطىء مستلقية على خلجان هادئة !

وأرى فى « قربص البيضاء » التى تبعد عن تونس العاصمة بحوالى ٤٩ كيلو مترا أروع ماتراه العين ، أرضا تحتضن الجبل من ثلاث جهات والبحر يقبلها من جهة رابعة !

وفى سوسة أشاهد شواطىء خالية من الصخور والتيارات المائية والأمواج المعربدة ، وأتخيل ذلك اليوم الذى تحرك فيه الأسطول الإسلامى ، من مياهها لاحتلال جزيرة صقلية منذ ألف ومائة عام !

أطوف فى المنستير بالقلعة الكبيرة ، وأتأمل فى القيروان ثروات أيامنا الغالية فى جامع القيروان بأروقته ومئذنته الشامخة .

وأشم أزهار أشجار البرتقال والليمون الممتدة بساتينه فى الحمامات حتى شاطىء البحر !

وحتى فى تونس العاصمة تزلزلنى تلك الرائحة الرطبة فى أحيائها القديمة التى مازالت تموج بالحضارات المتعاقبة ، وأهتف فى أعماقى بروعة السجاجيد المطرزة برسوم ملونة ، ونقوش الأحجار المفرطة فى الحسن ، وبهجة ألوان زخارف النوافذ والأبواب ، وتلتصق بثيابى وثياب كل المارة رائحة العطور الباقية من زمن المجد الزائل ، وأرى حشدا من البشر الواقفين بأبواب

العطارين متعلقين بأمل العلاج بالأعشاب الطبية بعد أن خذلتهم « روشتة » الطبيب وأدويته الكيمائية !

وأطوف فى نهاية الأمر بالجامعة التونسية التى مضى على إنشائها أكثر من ربع قرن ، وبالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين التى احتفلت فى السبعينات بذكرى تأسيس جامع الزيتونة أول جامع إسلامى فى الشمال الأفريقى وقدمت فى تلك المناسبة الهامة دراسات متنوعة حول الإشعاع الثقافى والعلمى لأكبر جوامع تونس عبر العصور التى تجاوزت ١٢ قرنا .

الاجابات الشافية

وأخرج من الكلية الزيتونية لأمتطى حصانى المقدام ، وأنطلق به باحثا عن إجابات شافية لأسئلة خاطبت ذهنى فى سنوات مابعد الاستقلال : هل ماحدث فى تونس بعد أن تحرر تراب الوطن كان مواكبا لأحلام المجتمع وتطلعاته ؟ وهل استطاع أبناؤها بعد انتقال زمام الأمور إلى أيديهم أن يديروا حركة المجتمع باقتدار فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى ؟ ولماذا وئدت الحرية فى السنوات الأخيرة من حكم بورقيبة وأصبح المواطن التونسى لايفرق بين المستعمر الذى نصب من جذوع الأشجار مشانق وبين ابن البلد الذى أذاقه السم من نفس الوعاء ؟

بالبحث عن أجوبة لتلك الأسئلة وغيرها ، كان لابد من أن أشد لجام حصانى أمام مشهدين : مشهد تنصيب بورقيبة كأول رئيس للجمهورية فى ٢٥ يوليو ١٩٥٧ . . ومشهد عزل المجاهد الأكبر والمقاتل الأعظم ومهندس تونس الحديثة فى ٧ نوفمبر ١٩٨٧ ، وبعد أن ظل جاثما على أنفاس الشعب التونسى طيلة ثلاثين عاما ، وصل فى نهايتها إلى أرذل العمر (٨٤ عاما) وتدهورت حالته الصحية بصورة بالغة فسلم زمام أموره إلى « سعيدة ساسى » ابنة شقيقته التى سيطرت مع مجموعة القصر على مجريات الحياة اليومية فى رئاسة الجمهورية ، وجعلوا الوشاية والرشوة والمؤامرات والرغبة فى سفك الدماء وإقامة المشانق هى قمة ملامح الحكم !

في المشهد الأول ـ بقليل من التفاصيل ـ نرى الحبيب بورقيبة محمولا على أعناق الشعب التونسي ، بعد تاريخ حافل بالنضال ، تحدى فيه الاستعمار وفاوضه ، وتعرض أثناءه ـ منذ أوائل الثلاثينات ـ للاعتقال والتشريد والنفي في الداخل والخارج من أجل استرجاع سيادة تونس على تراب الوطن ، وتألق بموقفه الصارم عندما رفضت الحكومة الفرنسية مطالب التونسيين في ١٥ ديسمبر ١٩٥١ ، فما كان منه إلا أن طالب الشعب كله ببداية المقاومة ضد المحتل ، ليتم القبض عليه ، وليظل في سجون تونس لحين إبعاده إلى باريس ليعود منها منتصرا ويستقبل استقبال الفاتحين في أول يونيو ١٩٥٥ ، وليخطط ـ بعد تأكده من كسب الجماهير إلى صفه ـ للوصول إلى السلطة بطريقة شرعية ، فيتحدى قرار باي تونس محمد الأمين باعداد الدستور كمنحة من الملك إلى الشعب ، وينجح ـ فعلا ـ في إقصاء آخر ولاة الدولة الحسينية من الحكم بطريقة سلمية ، ليتولى السلطة مكانه ، معلنا نهاية الجهاد الأصغر وبداية الجهاد الأكبر لتحديث البلاد !

في المشهد الثاني . . نرى الشعب الذي حمل بورقيبة على الأعناق ينزع صوره من الشوارع والمتاجر والدواوين الحكومية بعد النهاية التي لم تستطع أن تحميها مهزلة قرار تنصيبه رئيسا لتونس مدى الحياة في جلسة مجلس الأمة التونسي يوم ١٤ ديسمبر عام ١٩٧٤ .

وبينما صعد بورقيبة إلى الحكم بعد كفاح ، فقد هوى منه في هدوء وشرعية بعد أن استخدم الوزير الأول زين العابدين بن علي حقه في تنحيته من أجل مصلحة تونس التي هي فوق كل اعتبار ، واستمد هذا الحق من المادة (٥٧) من الدستور التي تقضي بتنحية رئيس الجمهورية لعدم كفاءته الصحية والعقلية ولعجزه الكامل عن إدارة شئون البلاد ، وعقب إبلاغ الحبيب بالقرار التاريخي الذي أكد فيه سبعة من أطبائه عجزه الصحي والعقلي عن مباشرة سلطاته ، إنتقل للاقامة مع عائلته في مقره بضاحية مرناق التي تبعد ٤٠ كيلو مترا عن العاصمة ، على أن ينتقل في كل صيف إلى مسقط رأسه في صفاقس بالمنستير الذي يضم مقبرته التي أشرف على بنائها بنفسه !

وبين المشهدين المتناقضين كانت أوزار عهد مضى تنحصر في :

* إستغلال الرصيد الوطنى لبورقيبة فى ضرب مدرسة القرويين فى الحركة الوطنية التى أسسها الشيخ عبد العزيز الثعالبى ، كما استخدمه - أيضا - فى التخلص من زملائه فى الكفاح ، فقد تخلص من صالح بن يوسف ساعده الأيمن فى الحركة الوطنية وطارده من بلد إلى آخر لمجرد شعبيته فى تونس إلى أن نجح فى اغتياله فى مدينة فرانكفورت بألمانيا الغربية ، وراح يبطش ببقية زملاء الدرب أمثال الزعيم العمالى الحبيب عاشور (رئيس الشغل العام) الذى اعتقله فى عام ١٩٧٧ ، ومحمد المصمودى وزير خارجيته الأسبق الذى أجبره على ترك البلاد والإقامة فى باريس ، وأحمد بن صالح وزير الاقتصاد الأسبق الذى قفز إلى الصفوف الأولى فى السلطة خلال الستينات ثم دفعه إلى الهاوية فجأة فى بداية السبعينات وأحاله إلى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى وصدر الحكم عليه بالسجن عشر سنوات مع الأشغال الشاقة وتجريده من كل حقوقه السياسية ليهرب بعد ثلاث سنوات من السجن المركزى فى العاصمة تونس مخترقا حدود الجزائر سيرا على قدميه ليرحل بعد ذلك إلى أوربا ويعيش متنقلا بين فرنسا وسويسرا مطاردا بشبح الاغتيال ، ولم يحصد المنجى سليم ومحمود الماطرى والطاهر بلخوجة وإدريس قيقة من التفانى مع الحبيب إلا جزاء « سنمار » الذى بنى للنعمان فى الجاهلية قصر « الخورنق » الفريد الرائع على مقربة من الكوفة وصعد به إلى أعلى بناء ليكشف له عن سر مكان الآجرة التى لو زالت لسقط القصر على من فيه ، وأراد النعمان أن يحتفظ بهذا السر لنفسه فرمى بسنمار من أعلى حتى لايعرف السر غيره وحتى يؤمن ظهره بضمان سلامة القصر !

* لجأ إلى سياسة تصعيد خلفائه ثم الاستدارة نحوهم للقضاء عليهم بعنف عندما يشتد عودهم حتى لاينافسونه فى الزعامة ، فمنذ بدأت أمراض الشيخوخة تزحف على جسده لتصيبه بمرض القلب ثم بمرض الكبد ، رأيناه دائما ينقلب فجأة على رؤساء وزرائه وخلفائه ويبعدهم بطريقة مهينة وهم فى قمة تألقهم السياسى .

* بدأ مؤمنا بالانتماء لفرنسا على طول الخط ، لدرجة أن الصحفى الفرنسى المعروف « جان لاكوتير » كتب عنه فى الستينات يقول : « قال لى أحد الأمريكيين الذين قابلوا بورقيبة وتحاوروا معه طويلا ، إنه لم يقابل رجلا عربيا

أقل عروبة من بورقيبة ، ولايظن أنه قابل خارج فرنسا رجلا أكثر فرنسية من بورقيبة »!!

إلا أن حق الانتماء المطلق لفرنسا ، كان دائما يشوبه جشع المصالح ، نتيجة لإيمان بورقيبة بفكرة « خذ وطالب » التى طبقها فى سياسته الخارجية بطريقة مبتذلة .

* آمن بالتغريب إلى أقصى حد ، وتجاهل التعريب الذى كان فى مقدمة قضايا معركة التحرير ، وكان يرى أن اللغة الفرنسية هى الأساس ، وأنه لابد من جعل تونس قطعة من أوربا ـ على طريقة كمال أتاتورك فى تركيا والخديو إسماعيل فى مصر ـ ولهذا ضرب جامعة الزيتونية كحصن للغة العربية والتراث وفرق بين الساحل والداخل فأصبحت مدن الساحل مثل سوسة والحمامات وبوسعيد وكذلك جزيرة جربة ، هى المناطق العصرية التى لاقيود على أى شىء فى شواطئها ، وأصبح الداخل متخلفا ، ينظر أبناؤه إلى كل مايحدث على تلك الشواطىء باعتباره رجسا من عمل الشيطان !

* ولعل تلك الفجوة الهائلة هى التى ساعدت على نمو الاتجاهات المتطرفة فى تونس التى قامت فى أواخر حكمه بسلسلة من الانفجارات فى قلب أربعة فنادق سياحية ، إضافة لاستجابته لمشورة مستشاريه بالتغاضى عن هذا التيار ـ مرحليا ـ مادام سيخلصه من بقية أطراف القوى الوطنية ، وكانت محصلة تلك اللعبة الخطرة ـ بالطبع ـ هى استدارتها نحوه لتشهر سيفها فى وجهه ـ هو الآخر كرجل لايقيم وزنا فى مجتمعه للتقاليد !

* إلغائه للمحاكم الشرعية والتعليم الدينى وعدم رضاء الشعب عنه بسبب خروجه على الشريعة وإفطاره علنا مع جيسكار ديستان فى شهر رمضان ، رغم أن الأخير رجاه أن يراعى مشاعر مواطنيه فى هذا الصدد !

* عجزه عن إقامة حوار مع القوى الفاعلة فى المجتمع كالشباب والمثقفين والعمال ، ودخوله فى مسلسل رهيب من العزل والتعيين المستمرين بسبب خضوعه لمؤامرات ودسائس مستشاريه الطامعين بالفوز فى معركة الخلافة !

* تصاعد الغليان الشعبى فى بلد لايتجاوز تعداده سبعة ملايين نسمة بسبب

الصعوبات الاقتصادية التى لم تستطع برامج التطوير والتنمية أن تتغلب عليها ، والتى تمثلت فى عجز تجارى وصل إلى بليون دولار ، وعجز فى المدفوعات وصل إلى مليار دولار .

مازلت عاشقا

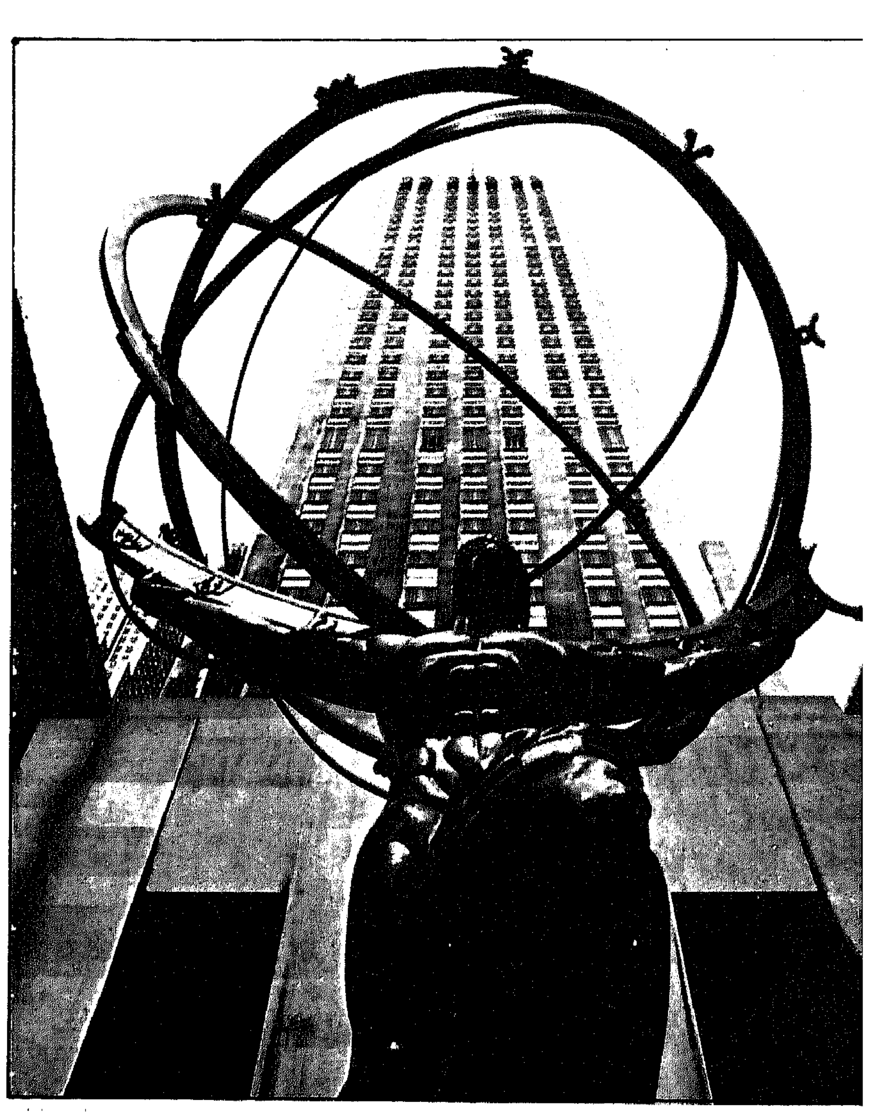
كل ذلك وغيره ، كان لابد أن يصيب حصانى بالغثيان والملل ، فقد تعب من رؤية الماضى بكل مافيه من تسلط وطغيان وفساد وقهر ، ولذا قرر أن ينهى رحلتى عند هذا الحد الذى انطوت فيه صفحة البورقيبية بدون إراقة نقطة واحدة من الدماء !

وهكذا استدار عائدا إلى قاهرة المعز ، لتظل خفقات قلبى وكل مشاعرى مع الشعب التونسى فى مشواره الجديد من أجل الإنقاذ وتحقيق آماله وطموحاته التى من بينها عودة تونس من اغترابها إلى حضن العروبة ، وضرورة الاختيار الديمقراطى على أساس من التعدد الحزبى ، وضرورة تعديل الدستور لتحديد مدة الرئاسة حتى لاينصب أى رئيس قادم نفسه مدى الحياة وحتى لاتتكرر أخطاء الماضى ، وضرورة إشاعة روح الوفاق بالإفراج عن المعتقلين وعودة المهاجرين ، وضرورة الخروج من المأزق الاقتصادى وترميم ماتركته معركة الخلافة من آثار !

ومع لهفتى لتحول كل تلك الضروريات إلى واقع عملى ملموس . . ومع الأحلام الجديدة لإعادة البناء وترميم شقوق الماضى ، أظل متعلقا بقباب تونس المستديرة ومآذنها وأسواقها وزواياها التى كانت دوما تمثل الرباط القوى المدافع عن العروبة والإسلام ، وقلاعها وحماماتها وبساتينها وسواحلها الممتدة لحوالى ١٢٥٠ كيلو مترا ، وسهولها الخضراء التى لاترويها أنهار ولكن تنساب إليها المياه من الهضاب المرتفعة !

أظل عاشقا لكل مافيها من تراث موغل فى القدم ، ولكل مايتمتع به سكانها من طيبة وبشاشة وجه وصراحة تجعلهم عندما يصفون أى انسان بالفساد فإنهم يقولون عنه إنه يشبه « طير الدُورِى » وهو الطير الصحراوى الذى يفسد المزارع ويعبث بها فى قسوة بالغة !

نيويورك : غابة السوبرمان والمسرات البابلية !



رأيت قلب نيويورك مثل غابة من ناطحات السحاب . . غابة لا يتعامل معها الا السوبرمان . . فقد مضى الحلم بطرزان الذى كانت صيحته المدوية تجد آذانا مصغية فى الغابة ، فتسرع كل الحيوانات ـ بلا استثناء ـ لنجدته . . فالغابة لم تعد مظللة بالعواطف ولا بلمسات الجمال التلقائية . . ولم تعد أوراق أشجارها الباسقة مصبوغة بلون الكلوروفيل . . فالعقول الخارقة هنا ـ وهى التى تمثل أعظم ما وصلت اليه التكنولوجيا والابتكارات الهندسية ـ أرادت بزرع هذه الغابة الشاهقة التى تتعانق فيها الهياكل المعدنية مع الأسمنت والزجاج وانعكاسات الأضواء الصناعية أن تقول لنا بالفم المليان : هنا أرض القوة والتفوق وتحقيق الذات ، ولهذا أقمنا تلك البنايات الشامخة التى تناطح السحاب ، وأنفقنا عليها بلايين الدولارات حتى نجعل من مدينة الأحلام ـ سابقا ـ رمزا للسطوة والاختراع والسلطان والتحدى . . وكذلك القسوة ، التى هزت كاتبا كبيرا مثل «جان بول سارتر» فصاح متسائلا : لماذا تقتل ناطحات السحاب قرص الشمس المتوهج عند الغروب ؟!

وصلت الى مدينة نيويورك وأنا محاط بسياج من الخوف والرعب ، فالكل حذرنى ـ هنا ـ قبل الرحيل بنصائح مزعجة :

ـ لا تخرج الى الشارع ونقودك فى جيبك . . وأيضا . . لا تترك جيبك خاليا من النقود حتى لا يغتاظ سارقك عندما يجد جيوبك خاوية فيقتلك ليشفى غليله !

ـ لا تمش على الرصيف بعيدا عن الشارع ، حتى لا تتعرض لمن يسحبك فى قوة لأحد الأركان ، لتعطيه كل ما فى جيبك والساعة التى فى معصمك دون السماح لك بأقل حوار !

ـ لا تذهب الى حى هارلم وهو حى السود الفقراء ، اذا أردت أن تعود برأسك سالما ، وكذلك لا تذهب الى حى الباريو أو حى بورى المشهور بالإدمان والذى ينام على أرصفته العاطلون من السود والآسيويين !

ـ لا تتصور أن العدوان بقصد السرقة يقوم به الأسود ـ وحده ـ فكل من الأسمر المكسيكى والبروتريكى ، والأبيض ـ أيضا ـ قد يهاجمك إذا كان من

مدمنى المخدرات وخاصة الهيروين والكوكايين !

- لا تغمض عينيك عن حقيبة يدك فى المطار ، حتى لا تفقدها فى ثوان !

وعموما فكل تلك النصائح وغيرها ، كادت تتبخر من رأسى عندما وجدت عبارات الترحيب الحارة بالقادمين فى مطار كيندى مكتوبة بكل اللغات ، وعندما تفحصت شتى الوجوه من حولى - بعد إجراءات الدخول فى دقائق - فوجدتها فى مجموعها أليفة وبشوشة رغم أنها متعددة الجنسيات !

ولكن سياج الخوف عاد يطاردنى من جديد ، وأنا أخترق المدينة فى طريقى الى الفندق داخل تاكسى أنيق وفخم ، مزود بعداد وبعازل يفصل ما بين الراكب والسائق ، ومثبت عليه عبارة بخط واضح تقول : السائق لا يحمل الا فكة عشرة دولارات فقط !

وتأكدت أهمية تلك النصيحة بمجرد صعودى الى غرفتى بالفندق فى لكسنجتون أفينو فى الشارع الثامن والأربعين واصطدام عينى خلف الباب بلوحة تحذيرية تقول : لا تغلق بابك من الداخل بالمفتاح فقط ، ولكن استعمل المغلاق - أيضا - ولا تفتحه لأى طارق قبل أن تتأكد من شخصيته من خلال العين السحرية !

وزاد يقينى عندما وجدت صحف الصباح والمساء تطالعك باعلانات عن الحراسة ، وسوق الكلاب المدربة على الحماية ، والأسلحة النارية بأنواعها التى يمكن أن يحصل عليها كل من تجاوز عمرة ٢١ سنة !

ووجدت قنوات التليفزيون المتعددة تلاحقك باحصاءات عن الجريمة ، وتقدم لك نماذج من أنواعها ، وتنبهك الى أن المدينة تستقبل مع كل دقيقتين جريمة فى أحد أقاليمها الخمسة : مانهاتن (القلب) ، وكوينز ، وبروكلين ، وريتشموند ، وبرونكس !

ولم أر فى حياتى إيقاعا سريعا كالذى رأيته فى مدينة نيويورك ، فالناس يتحركون فى حيوية وبسرعة وبلا ضجيج ، ولا يضيعون وقتهم فيما لا يفيد ، فهم غارقون حتى النخاع فى العمل واقتناص الأرباح التجارية ، ولهذا فإن ربع

أغنى أغنياء أمريكا ـ حسب آخر الإحصاءات ـ موجود فى هذه المدينة التى تشترى كل فكرة وكل كلمة وإشارة ، والتى لا تفهم لغة العواطف فى السوق ، فهى بلا قلب مع أنصاف الأذكياء أو الذين لا يعشقون العمل ، وهذا التعامل المادى الحاد ـ قطعا ـ هو الذى أنجب فى المدينة مدمنى المخدرات ونجوم أحداث العنف والجرائم الدامية !

ولعل مارأيت من نمط الحياة اليومية هنا ، هو الذى جعل هاتفا داخليا يردد معى نفس العبارة التى قالها عن نيويورك كاتب المهجر الكبير ميخائيل نعيمة : يالك من مدينة بابلية !

فنيويورك ـ فعلا ـ مدينة بابلية حديثة ، بكل ما تحمله من صور حضارية مذهلة ، وبكل ما تقدمه من ثراء وفخامة وبذخ ومسرات متعددة ومتنوعة ، لا يعكر صفوها إلا حماقات الغارقين فى «اللاوعى» وعصابات المافيا !

جنون الاستهلاك والأفكار

الاستغراق فى عالم المدينة المرعب والمبهج ، يستلزم منا أن نتوقف قليلا لنتعرف على خلفية المكان ، فقد نزل بموقعها الهولنديون (١٦٢٥ م) وسموها «نيو امستردام» لتصبح قاعدة لمستعمراتهم ، ولكن سرعان ما اغتصبها الانجليز بدون حرب (١٦٦٤ م) ليطمسوا اسمها الهولندى الى الأبد ويسموها نيويورك ، ولكنها تحررت نهائيا من النفوذ الانجليزى فى عام (١٧٨١ م) ، وتم اختيارها عاصمة للبلاد لعام واحد (١٧٨٩ ـ ١٧٩٠ م) ، وبعد تدفق المهاجرين إليها وازدهار نهضتها الصناعية والعمرانية والتجارية تم دمج أقسامها الخمسة فى مدينة كبرى واحدة (١٨٩٨ م) هى التى مازلنا نعرفها حتى اليوم .

ورؤية المدينة الحالية ـ التى أطلق عليها زوارها ألف اسم بداية من الهذيان والجنون والصخب الى عاصمة العالم أو بغداد الف ليلة وليلة ـ لا يمكن أن تحقق أهدافها الا بالسير على الأقدام فى شوارعها وبين سكانها الذين قفز تعدادهم فى قرن واحد من ٢٨ ألف نسمة الى ١٥ مليونا بالنهار و ١١ مليونا فى الليل !

تصيبنى الدهشة فى البداية أمام أمرين : زحام هائل ولكن منضبط يذكرنى بزحام القاهرة غير المنضبط . . والنقود التى تتبخر من جيبى بسرعة مذهلة ، فالدولار الذى نقيم له طقوسا فى بلادنا ونتصور عندما نضعه فى جيوبنا أنه يمثل قوة شرائية ، لا يساوى فى نيويورك أكثر من زجاجة مياه غازية .

وفى كل مكان فى نيويورك تصطدم عيناى بناطحات السحاب الشاهقة التى قيل لى إن أولها كان بناء «فولتيرن» عام ١٩٠٢ م ، وأن «الامباير ستيت» لم تعد أعلى بناية (٤١٦ مترا) فهناك ما يفوقها فى الارتفاع والحجم مثل «لوترا دتاور» و«الموور» و«وارلدتريد سنتر» .

وأقف طويلا أمام مجموعة مبنى «سكاى سكرابرز» بأيديها الطويلة ـ من الزجاج والصلب ـ لأراها وهى تمتد الى السماء ملامسة السحاب ، صانعة ظلالا هائلة على الأرض . . كما أننى أرى مليارات الدولارات فى بنائين : مركز «روكفلر» المتشابك الذى يمثل مدينة داخل مدينة . . ومركز «لينكولن» الذى يشع بمختلف أنواع السرور : الأوبرا ، الباليه ، المسرحيات ، الفرق الموسيقية !

واذا كان مبنى فندق «والدورف استوريا» الشهير فى الأفينو الخامس أو شارع الموضة هو المبنى الذى يتردد عليه أهم السفراء ورجال الأعمال العرب ، فانك فى نهاية شارع (٤٢) على ضفة نهر «ايست» ستجد مبنى الأمم المتحدة بطرازه الخاص الذى أقيم عام ١٩٥٢ ، وتعلقت عيون الشعوب المظلومة بقراراته التى تحولت ـ دائما ـ الى حبر على ورق فى كل قضية ، ولهذا فان أنسب المهام المنوطة به الآن هى تحوله الى مزار سياحى للجمهور بالنهار !

وبحكم تنقلى الطبيعى فى المدينة التقيت بأثرين يتجاوز أحدهما مائة سنة بقليل ، الأثر الأول هو مترو الانفاق الذى يعمل ٢٤ ساعة ، ويمثل أقدم وسائل النقل فى المدينة (٧٧ عاما) والذى سمعنا كثيرا عن الجرائم التى تتم فى نطاقه والتى من أبسطها السرقة بالإكراه . . أما الأثر الثانى فهو جسر بروكلين الذى شيد بطول كيلو مترين ، وتكلف بناؤه وقتها ١٠ ملايين دولار ، واستمر البناء فى هذا الصرح الحضارى والهندسى ١٤ عاما ، مات أثناءها ٢٧ شخصا من

العاملين فى المشروع ومن بينهم المهندس المشرف على البناء واسمة جون دويبلينج !

أحلام الحرية

ولأن الحرية شعار براق لازم الإنسان طوال تاريخه ، ولم يتحقق إلا فى قصائد الشعراء وروائع الفنانين وأفكار الفلاسفة وأحلام الفقراء ، فقد كان لابد من أن أرى تلك السيدة «اليقظة» التى تحمل فى يدها شعلة مضيئة ترمز الى النور الذى تمنحه الحرية للشعوب ، وعند قدميها السلاسل المحطمة التى ترمز الى الانطلاق والتحرير ، والتى واجهت عبر رحلة استغرقت مائة عام العواصف والأملاح والرطوبة ، وكانت شاهدة على عصر تمزقت فيه إرادة الإنسان .

والغريب أن هذا التمثال الذى أضاءوه وأنقذوه بعملية جراحية تجميلية وصلت تكاليفها ٦٦ مليون دولار ، كان مفروضا ألا يحتل هذا المكان لأن مبدعه المثال «فردريك أوجست بارتولدى» كانت أمنيته عقب زيارته للقاهرة وتأثره بضخامة تمثال «أبو الهول» أن ينجز تمثالا بنفس الضخامة ويضعه عند مدخل قناة السويس ، ولكن يبدو أن التنافس على النفوذ بين فرنسا وانجلترا فى مصر أدى الى استبعاد المكان ، لتستقر الفكرة فى ٢٨ أكتوبر ١٨٨٦ وبعد ١٥ عاما من العمل المتواصل فوق أعلى ربوة فى جزيرة «اليس» على أبواب مدينة نيويورك وسط احتفال مهيب دشنه الرئيس الامريكى الثانى والعشرون (جروفر كليفلند) بقوله : لن ننسى أن الحرية قد جعلت وطنا لها هنا .

وهكذا ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت عيون المتعطشين الى الحرية تتعلق بجزيرة اليس ، رغم أن الأمريكيين نظروا الى الفكرة فى بدايتها بعين الحذر عندما وصلتهم من باريس البارجة الحربية «بريمير» فى ١٧ يونيو ١٨٨٥ وعليها ٢١٠ صناديق تحوى كل قطع التمثال ، مع رسالة من الشعب الفرنسى الى الشعب الأمريكى تقول «الحرية تضىء العالم» وكاد التمثال يظل راقدا فى صناديقه بميناء نيويورك الى ماشاء الله ، لولا تدخل الصحفى الامريكى الشهير «جوزيف وليترز» رئيس تحرير صحيفة «ذاورلد» الذى دافع بحرارة عن فكرة إهداء الشعب الفرنسى لهذا التمثال الذى تكلف ١٠٠ ألف فرنك فرنسى ، ولم

يجد ضررا من أن تهدى الحرية من الشعب الفرنسى الى الشعب الأمريكى ، خاصة أن الفرنسيين قاموا بعدة أدوار هامة فى الثورة الأمريكية التى انتهت باعلان الاستقلال فى يوليو عام ١٧٧٦ ، فقد كسب الشعب الأمريكى تلك الحرب بمساعدة الجنرال «لافاييت» وأمثاله من الفرنسيين الذى تصدوا للانجليز وقاوموا ربط أمريكا ببريطانيا ، كما أن حرب الاستقلال ـ نفسها ـ هى التى فجرت الثورة بعد ذلك فى عام ١٧٨٩ .

وعلى مر التاريخ أطلق الأمريكيون عدة تسميات على التمثال النحاسى الذى يبلغ وزنه ١٠٠ الف كيلو جرام وارتفاعه ٤٦ مترا فوق قاعدة ارتفاعها ٤٥ مترا ، فقد عرفه العالم فى البداية باسم الحرية تضىء العالم ثم تغير الاسم الى أم المنفيين ، فالآنسة حرية ، فالسيدة حرية ، وأخيرا تمثال الحرية !

ولعل ما يشد انتباه المتطلعين الى الحرية عند زيارتهم لهذا المكان كلمات الشاعرة الأمريكية «أما لازاروس» التي تقول : أعطونى جماهيركم المرهقة الفقيرة التى تتوق الى التنفس بحرية ، أولئك المساكين الذين لفظتهم شواطئكم المزدحمة !

والعبارة ضمن قصيدتها عن تمثال الحرية المنقوشة على لوحة مثبتة على قاعدة التمثال ، وهى لا تخاطب الأمريكيين وحدهم ـ الذين بلغ تعدادهم ٢٤٠ مليون نسمة وكانوا ٥٧ مليونا وقت صنع التمثال ـ ولكنها كانت تخاطب أحلام العالم كله للهجرة الى الفردوس المفقود !

وليت هذا النداء استمر على حاله ، فقد انقطع صداه ، بصدور القوانين المقيدة للهجرة ، بعد أن غرق العالم كله فى دوامة الإرهاب والمؤامرات والصراعات السياسية ، وأصبحت دول العالم الثالث ـ بالذات ـ مراكز طرد للملايين ، ممن يحلمون بالهجرة ويتطلعون الى الثراء كلما أرهقت عيونهم وأجسادهم المجاعات وعبء الديون والأزمات الاقتصادية !

الهجرة نائمة

فى مدينة نيويورك بمساحتها الصغيرة جدا بالنسبة للقارة الأمريكية (١٢٨

ألف كيلو متر) اتضح لى أنها تضم أكثر من ٨٥ جنسية ، وأنها كانت دائما مأوى لشتى الهجرات بداية من الايرلندية واليهودية (أكبر جالية) والروسية والبرتوريكية والأسبانية الى الزنجية والصينية والعربية !

ولعل سر انجذاب كل هؤلاء المهاجرين إليها يعود فى المقام الأول الى أنها تضم أضخم سوق مالية فى العالم ، لأن بنوكها تتعامل يوميا مع أكثر من ٢٠ مليار دولار . وأغلب تلك الثروة يتركز فى «وول ستريت» معقل أصحاب الملايين وبورصة الأوراق المالية التى تحكم العالم .

ورغم أن مواطنى مدينة نيويورك الأصليين كانوا يفتخرون دائما بأنهم أوربيون ، وأنهم يرحبون بالمهاجرين من كل أنحاء الدنيا ، فهم الآن لا يطيقون مجرد النطق بكلمة «هجرة» مقدمين مختلف التبريرات التى أبسطها أنهم لا يريدون هدم هذا الإنجاز الحضارى الذى تسلموه من الآباء والأجداد ، فهناك مليونا مهاجر غير شرعى موجودون بالفعل داخل أمريكا ، وأغلبهم مكسيكيون وأسبان وعرب من شمال أفريقيا يعيشون فى أسوأ الظروف والأحوال ، بسبب تعاظم شبح البطالة نتيجة لارتفاع التضخم والهبوط المستمر للدولار منذ شهر فبراير عام ١٩٨٧ ، وتعاظم وظائف الكمبيوتر فى شتى مجالات الحياة ، وبذل المحاولات المستميتة لتحجيم غزو الصناعات الأجنبية للسوق الأمريكية ، وقد أدى ذلك كله بطبيعة الحال الى هبوط أجر العامل بمقدار ٢٥٪ تقريبا خلال ١٣ عاما ، فبعد أن كان جيب هذا العامل يدخله ٢٥٢٥٣ دولارا سنويا فى عام ١٩٧٣ أصبح لا يجنى من عمله غير ١٨٧٦٣ دولارا سنويا فى عام ١٩٨٦ ، رغم الفارق الكبير بين الأسعار فى متطلبات المعيشة وقتها واليوم !

وداخل المدينة نفسها ، تفاجأ بالإقليمية الواضحة فى بعض الأحياء ، وبنظرة الريبة والحذر التى تتعامل بها الجنسيات المتعددة مع بعضها البعض ، ولكن يبدو أن العرف قد جرى على تقسيمات محددة بالنسبة للمهن ، فالأيرلنديون - مثلا - يسيطرون على الشرطة ، بينما التجارة متروكة تقريبا لليهود ، ومسح النوافذ والقمامة وتنظيف الشوارع وجميع الأعمال الدونية الأخرى من نصيب الآسيويين وخاصة الهنود !

وهناك مناطق بأكملها محتكرة للجنسية الواحدة ، وهى تشبه نظام «الجيتو» القديم مثل شارع «ميلبرى» الذى ستجد أغلب سكانه ايطاليين لا يحبون النطق الا بلغتهم ، وبضائعهم معروضة أمام محلاتهم على الرصيف بنفس الطريقة التى يعرضون بها البضائع فى أسواق روما أو نابولى ، واذا ما اجتزت الجسر الشهير فى بروكلين فستصل الى حى العرب حيث تجد الأسماء العربية الى جوار الانجليزية فى لافتات المحلات التجارية وستشم رائحة الأطباق العربية بتوابلها التى تثير الأنوف !

ولعل أشهر أحياء الجنسية الواحدة فى نيويورك وأكثرها بريقا للـ ٤٠ مليون زائر الذين يصلون مطار كيندى فى كل عام ، هو الحى الصينى الذى لا يختلف عن أحياء كانتون وشنغهاى فى أى شىء ، فلغة الحديث ورجال الأعمال والعمال والبضائع والطعام والملاهى والإعلانات ولافتات المحلات وحتى أغلفة المجلات . . كلها صينية !

عالم الفنون الهادف

ومن الحى الصينى يمكنك أن تصل فى وقت قصير الى شارع برودواى الذى لا يعرف طعم النوم لأن ملاهيه ومحلاته تظل مستيقظة طوال ٢٤ ساعة ، وعلى امتداد هذا الشارع بطول جزيرة مانهاتن يمكنك أن تستمتع بقمم الأعمال الموسيقية والفنية التى ترضى مختلف الأذواق !

وقد استطاع هذا الشارع الشهير فى العامين الأخيرين أن يسرق زبائن الشارع (٤٢) ، الذى يتقاطع معه ويضم أكثر من مائة دار سينما ، مع عدد من الملاهى الليلية الصاخبة ، التى هرب زبائنها بعد رعب الأيدز لتصبح المسارح عامرة بالمتفرجين بحيث يصعب دخولها بدون حجز قبل أسبوعين على الأقل !

وبعد أن ساد مسرح اللا معقول والمسرح التجريبى ومسرح الاحتجاج لفترة طويلة ، يعود المسرح فى برودواى الى دفء قمة الأعمال الكلاسيكية ليعيدوا عرضها بتكاليف تصل الى عدة ملايين من الدولارات ، خاصة بعد أن اكتشفوا رغبة حقيقية لدى المتفرجين فى إعادة عرض روائع المسرح العالمى ، بعد أن

ملوا التقاليع ومحاولات تدمير الفكر الانسانى بتقاليده الراسخة ، حتى أن «بيتر شومان» صاحب مسرح الخبز والدمية خرج مع الممثلين والفنيين فى موكب ضخم يحملون الدمى فى شوارع نيويورك ، وهم يرتدون الأقنعة ويدقون الدفوف ويقرعون الطبول ، ليقودوا الناس من الشوارع الى مكان العرض حيث يقتسمون الخبز والفن وسط دعوة لهجران المسرح التقليدى . . ورغم هذا المهرجان الضخم فقد اختفت طبول «بيتر شومان» وأقنعته من الشوارع بعد أن ازداد اقبال المتفرجين على المسرح التقليدى !

وفى مسارح برودواى مازالت تقدم منذ سنوات مسرحية «القطط» المأخوذة من مجموعة قصائد لأبرز أدباء القرن العشرين ت . س . اليوت ، وهى التى تم نشرها فى عام ١٩٣٩ فى ديوان ، وأضافوا اليها بعض القصائد التى وجدت بين أوراقه عقب وفاته ، ويقدمونها وسط إبهار الكلمة والديكور والموسيقى والرقص والغناء والإضاءة ، وبحس اجتماعى وبصورة فكاهية ساخرة تبرز ذلك العالم المتكامل من القطط الذى هو فى مضمونه نموذج للكائنات البشرية التى نتعامل معها ونتحمل سلوكها وطبائعها بكل ما فيها من تناقض وصراع ، وخير وشر ، وأبيض وأسود !

واذا كان برودواى هو قمة العروض المسرحية فى نيويورك وأمريكا ، فان متحف المتروبوليتان (١٨٧٠) يمثل أهم وأضخم متاحف العالم ، بما يحوى من آثار وتحف ولوحات وتماثيل ومعادن ثمينة ، فهو يضم خمسة ملايين تحفة وألفى لوحة زيتية ، و ٦٠ ألف قطعة نسيج ، و ٥٤ ألف ثوب ، ومليون محفورة ، و ٤ آلاف رسم ، وقد زاره فى عام ١٩٨٦ أكثر من أربعة ملايين زائر .

ورغم خبرة علماء الآثار فى المتحف ، فانهم كثيرا ما شربوا مقالب الغش المدبرة بذكاء ، وخاصة من الايطاليين ، فقد سبق أن باعوا لهم ثلاثة تماثيل لثلاثة محاربين من آثار غرب ايطاليا ، وبعد شرائها ثبت أنها مزيفة وأن بعض الفنانين الايطاليين الصغار قد تخصصوا فى التزييف و«باعوا الترام» لمتحف المتروبوليتان !

وفى هذا المتحف العظيم تجد قسما مصريا قديما يضم ٤٣ الف قطعة ،

وجناحا لروائع الفن الصينى القديم والحديث ، وآثارا رومانية ويونانية . . وهو يضم لوحات لأهم الفنانين العالميين : رامبرنت ، روبنز ، جويا ، فرانز هانز ، مانيه ، سيزان ، بيسارو ، بيكاسو ، ماتيس ، وغيرهم من جهابذة المدارس الفنية المتعددة . . كما أن به قسما للنحت الأمريكى يضم أهم الشخصيات والزعماء السياسيين ، وقاعة للفن الأمريكى الحديث تعرض لأشهر الفنانين الأمريكيين أمثال هانز هوفمان وفرانك كريكا وموريس لويز وغيرهم .

إنه بحق قلعة رائعة لكل ما قدمه إنسان العالم من إبداع خالد على مر العصور .

هنا عاش جبران

ثم أجد نفسى منقادا بلهفة العاشق الى حى الفنانين . . الى «جرينويتش فيلج» أو الصورة المصغرة لحى مونمارتر فى باريس لأنه يجمع خليطا متنوعا من الناس بينهم السائح والشاعر والموسيقى والصعلوك والرسام والمغنى !

وفى طريقى الى الحى لم أستطع أن أهرب من صورة الشاعر العربى الفنان الذى جاء منذ سبعين عاما أو أكثر من مدينة بوسطن ، ليستقر لأول مرة فى نيويورك ، باحثا عن السعادة فى جزيرة «مانهاتن» التى باعها الهنود الحمر بأرخص الأسعار ، بثمن يوازى ٢٤ دولارا ، وقد عاش هذا الشاعر بالحى فى مطلع شبابه حتى قضى نحبه عام ١٩٣١ ، وعلى شفتيه حنين عارم الى مسقط رأسه فى بلدته بشرى بلبنان !

ومن هذا الحى راح الشاعر الفنان جبران خليل جبران يملأ بصره بصور الحياة ، منطلقا من شقة صغيرة متواضعة كان يطلق عليها «الصومعة» تقع فى احدى الأزقة الضيقة ، ضمن البناية القديمة التى تحمل الرقم (٥١) من الشارع العاشر !

ولم تكن انطلاقاته من أجل الاغتراف من المتع والمسرات التى جرى بذخها وفخامتها فى المدينة مجرى الأساطير ، ولكن من أجل اكتساب قوته اليومى

برسم لوحاته لرجال ونساء ذوى سلطان مقابل أثمان تتراوح بين ٢٠٠ و ٥٠٠ دولار للوحة الواحدة !

ولم يكن ذلك هو هدفه الأسمى فى الحياة ، ولذلك أسرع يحقق المعادلة الصعبة فى أعماقه بإرضاء روحه المشتاقة الى العدل والحرية بكتابات متمردة وصارخة فى وجه الانسان . . كانت بعضها شعرا :

الخيرُ فى الناسِ مصنوعٌ اذا جبروا ∴ والشرُ فى الناسِ لا يفنى وإن قُبروا

والبعض الآخر نثرا : «منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات فى زوايا الكهوف ، ومنذ سبع دقائق نظرت من وراء بللور نافذتى فوجدتكم تسيرون فى الأزقة القذرة ، وأبالسة الخمول تقودكم ، وقيود العبودية تتمسك بأقدامكم ، وأجنحة الموت تصفق فوق رءوسكم ، فأنتم كما كنتم بالأمس ، وستظلون غدا وبعده مثلما رأيتكم فى البدء» !

ومن نفس النظرة المتمردة ألهب بسياط قلمه ظهر نيويورك ، فرآها خطيرة المعابر ، يتربص اللصوص بين منعرجاتها ، ويختبىء الخوارج فى طياتها ، وهى ساحة قتال مستتب بين الرغائب ، تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف ، وتتناهش متصارعة ولكن بغير الأنياب ، فهى فى نظره غابة الأهوال تسكنها كائنات داجنة المظاهر ، معطرة الأذناب ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ، ولا تئول تقاليدها الى الأفضل بل الى الأخبث والأذكى !

إن هذا الحى فى صورته الراهنة يتعرض للإبادة وتتغير معظم معالمه بصورة مستمرة ، خاصة بعد زحف مبانى جامعة نيويورك ومساكنها من منتصفه لتقضى بالتدريج على أعظم معالمه الهامة !

وبعد أن كان هذا الحى يثير الضجة بمسارحه الصغيرة التى قدمت يوما مسرح الرافضين بعروضه الملتهبة التى استمرت سنوات وكان من أهمها مسرحيتا «الشعر» و«أوكلكتا» أصبح يلعق جراحه اليوم ، بعد أن ابتلعت مسارح برودواى أهم نشاطاته وخلاصة أفكاره المتحررة !

هى إذن مدينة المتناقضات : التجارة والفن مع متع الحياة وقمة التكنولوجيا الحديثة ، بالإضافة الى الرعب والإدمان وبعض الألعاب القاتلة !

بندقية بلا رصاص
بين الأسود والأفيال !



لم أذهب إلى الغابة المفتوحة فى كينيا صائدا ، ولكنى ذهبت مع الصيادين بلا أدنى شعور عدوانى ، مستغربا من أمر هؤلاء الذين جاءوا ببنادقهم للسيطرة على الغابة ، فى محاولة للعودة إلى ماضينا الخرافى ، حيث نستعيد غرائزنا الوحشية فى القتل التى من المفروض أن تكون قد اقتلعتها من نفوسنا الحضارة العصرية !

وعندما انتقلت بنا سيارات الصيد إلى قلب البرارى ، ورأينا قطيعا هائلا من الغزلان ، طلب منى قائد الرحلة أن أستعد للصيد ، إلا أننى ما إن نظرت فى تلسكوب البندقية ورأيت الغزلان تمرح فى رشاقة ، حتى توقفت يدى على الزناد ، وقررت أن أفرغ الرصاص من بندقيتى طوال الرحلة ، وأن أكتفى فقط بالتعرف على الغابة ، التى لم يستطع اسحاق الصغير فى « الدب » رائعة الروائى الأمريكى وليم فوكنر (١٨٩٧ - ١٩٦٢) أن يتعرف عليها إلا عندما نبذ الحرص على البندقية ، وسلم أمره للطبيعة !

إذن لم تكن رغبتى فى عدم الصيد فى الغابة لخوفى من التعرض للأخطار ، بقدر خوفى من زوال عالم البرارى الجميل النقى من حياتنا ، فطوال الطريق الشائك الذى قطعناه للوصول إلى السافانا ، كان قلبى مع الحيوانات التى سنقابلها وتصبح من ضحايانا ، فأنا لا أنسى كيف قام « سام » فى نفس رائعة « فوكنر » بتدريب الكلب الهجين « ليون » على صيد الدب ، ليصبح مجرد قوة خبيثة ، تغتصب كل من يعترض طريقها ، بعد أن تحولت إلى مخلوق بشع ذى جشع وبأس شديدين !

ثم أننى لم أكن أطمع فى هذه الرحلة سوى بالخروج بحصيلة معقولة من المعرفة ، وهل هناك أروع وأمتع من أن تبحث فى خفايا هذا العالم الساحر الغريب الذى جعلنى أشعر بأننى طفل صغير فى حالة قصوى من الدهشة ؟ !

لقد أخذتنى الغابة إلى عالمها المفرط فى الحسن ، وبهرتنى بإيقاع الحياة السريع اللاهث ، الذى يذكرك بدقات الطبول الأفريقية ، ذلك الإيقاع الذى تمتزج فيه أصوات العصافير الملونة والطيور النادرة بعواء الوحوش وحفيف الأشجار ، وتسمع فيه صوت قفزات الحيوانات الأليفة وهو يرتطم بنسمات

الهواء الصافية ، التى تعبق المكان برائحة الصندل والزهور البرية التى تمتد على مدى البصر !

قوانين صيد مشددة

وأسأل الكابتن « روفائيل » الذى رافقنى إلى الغابة وأنا أرى خليطا من الحيوانات ، وتلسكوبات بنادق الصيادين تستعد لبداية المطاردة ، عن مدى الخطر الذى يهدد الحيوانات بالانقراض ؟

ويرد على سؤالى بقوله : يكفينى أن أذكر أمامك رقما واحدا حتى تدرك مدى فداحة الكارثة ، ففى عام واحد بلغ ما صيد من الأفيال وحدها حوالى أربعة آلاف فيل ، وعندما شعرنا بأن فوضى الصيد فى الغابة سيصبح مثل الوباء الذى قضى على مدينة ، أسرعنا لإصدار قوانين مشددة فى الصيد حددت كل شىء : نوع الحيوان المسموح بصيده وأعداده والمواسم الممكن الصيد فيها ، وعقب هذا القانون أصبحت توجد غابات مفتوحة لآلاف الأميال لا يسمح للصيادين فيها بممارسة هواية الصيد بداخلها ، ولو خالف ذلك أحد منهم يطبق عليه القانون الصارم لصيد الحيوانات !

وقلت له : وهل هذا هو كل شىء فى قوانينكم المطبقة فى الغابة ؟

قال : هناك قوانين تطبق فى الغابات المسموح فيها بالصيد ، فلابد أن يرافق الصياد الزائر صياد محترف فى كل أوقاته داخل الغابة ، وهذا الصياد المحترف يكون المسئول الأول عن سلامة الرحلة ، يحمى الصياد والحيوان معا ، كما أن الصياد الهاوى لا يستطيع أن يخرج من البلاد بأى جلد لحيوان اصطاده إلا إذا كان يحمل شهادة مصدقا عليها من جهتين هما الصياد الوطنى الذى رافقه فى الرحلة والجهات المسئولة عن السياحة والصيد !

عندما يبكى الفيل

ولكن ، وقبل أن أسترسل مع تجربتى المثيرة فى الغابة المفتوحة ، أجد نفسى مطالبا بأن أروى لكم كيف وصلت إلى الغابة ، وهل كانت الرحلة شاقة ومضنية ؟

فى الواقع رحلتى بدأت فى طائرة خاصة لا تسع سوى أربعة ركاب ،

أقلعت من مطار مدينة « مومباسا » على ساحل المحيط الهندى ، وكان يرافقنى فى الرحلة وكيل وزارة الخارجية فى كينيا ، وبعد ساعتين فى الجو هبطت الطائرة إلى مطار صغير فى مدينة إسلامية اسمها « ماجادى » على بعد ٧٥ كيلومترا من العاصمة نيروبى !

وفى الحال وجدنا فى انتظارنا سيارة « لاندروفر » حملتنا مع حقائبنا إلى المدينة ، حيث صعدنا إلى سيارة أخرى معدة للصيد ، بعد أن تعرفنا على منظم الرحلة الذى كان فى انتظارنا وهو باكستانى الجنسية اسمه « على كار محمد » الذى لم يضيع الوقت فانطلق بنا فى السيارة التى كانت تحمل المؤن وزجاجات المياه ، لنصل بعد ١٢٠ كيلومترا إلى منطقة خرافية اسمها « جورمن » اشتهرت غاباتها بالأسود والأفيال والحمر الوحشية .

وما إن دخلنا إلى المنطقة حتى رأينا خيام الصيد منصوبة على حافة مجرى ضيق للمياه ، وتم التعارف بيننا وبين الكابتن « روفائيل » ومساعده « بن آلن » الذى قدم نفسه على أنه من قبائل « الماساى » الشهيرة التى يمتاز أفرادها بطولهم الفارع ، ولا يعترفون بشجاعة أى شاب فى قبيلتهم إلا إذا قتل أسدا ولف جسده فى جلده لمدة أسبوع حتى تخشاه كل حيوانات الغابة !

وفى الليل ، وتحت ضوء القمر ، جلس روفائيل يحدثنى عن الغابة ، وكان حديثه غاية فى المتعة ، لدرجة أن الوقت سرقنى فلم أذهب للنوم فى خيمتى إلا قبل الفجر بحوالى ساعتين !

قال لى ، لا تتعجب إذا ما عرفت أن الفيل يحب فى صمت ، ومن النظرة الأولى ، فعندما تقع عيناه على فتاة أحلامه فإن العرق الأسود يتصبب من جبهته ، وتفهم الأنثى ارتباك الفيل ، ومع زيادة ارتباكه يغطى العرق عينيه حتى يخيل لمن يراه فى هذه اللحظة أن الفيل الذى أمامه فى حالة بكاء مستمر ، ويكتشف الفيل فى النهاية أن هذا الغرام صعب لا فائدة منه ، ويوشك على الانصراف ، وقبل أن يولى للأنثى ظهره تكون قد لحقت به لتقوده إلى بيت الزوجية !

الحمام أكثر إخلاصا

لا تتعجب ، فالحقائق الباقية أكثر غرابة ، هناك عالم أمريكى اسمه

« يوجين بيرنز » قضى ثلاثين عاما بين الغابات وحدائق الطيور والحيوانات ، باحثا عن إجابة لسؤال هام : أى الطيور والحيوانات أكثر إخلاصا للأنثى ؟

وخرج بعد هذه السنوات الطويلة ليقول لنا إنه لا يستطيع أن يؤكد رأيا قاطعا بأن هناك إخلاصا بمعنى الكلمة بين الزوجين فى مملكة الطيور والحيوانات ، ولكنه يستطيع أن يقول إن درجة الإخلاص فى هذه المملكة تتفاوت ، وإن كانت لا تصل إلى الدرجة المثالية !

ويضرب لذلك المثل بالحمام ، نحن نعرف أنه من أكثر الطيور إخلاصا لأنثاه ، إنه فى العادة يؤمن بالزوجة الواحدة ، ونادرا ما يفارق الأنثى فى جولاته ، دائما معها أثناء الطيران ، وأثناء الأكل ، وكثيرا ما يعطى أحدهما للثانى الطعام بمنقاره ، كما أن الزوج يداعب الزوجة فى أوقات المرح والفراغ ، وهكذا يتضح لك مدى روعة السعادة الزوجية التى يعيشها الحمام ، ولكننا لو بحثنا وراء كل حمامة لاتضح لنا فى الغالب أن فى حياتها خيانة لا تأتى إلا فى سن الطيش والشباب ، ولا تحدث مطلقا فى الفترة التى يتقدم فيها العمر بالزوجين !

العنكبوت القاتل

وهناك حيوانات نتهمها دائما بأنها شرسة وقاسية وقاتلة ولكنها من أكثر المخلوقات حنانا على زوجاتها ، فهى تعاملها برفق وتخلص لها أطول فترة ممكنة ، ومن بين هذه الحيوانات الذئب ، فهو أب مخلص ، يؤمن بالعائلة ، والحياة الاجتماعية فى سلوكه لها تقدير كبير ، وهو لا يخرج للصيد إلا مع ذئبة يعرفها . وهناك نوع من أنواع الذئاب اسمه « كيوت » لا يخرج للصيد إلا مع زوجته ، وعندما يتعرف إليها لأول مرة فإنه يبتعد عن عائلته ليقضى الاثنان شهر العسل وهما يبحثان عن فريسة لها قيمة ، وعندما تظهر أعراض الحمل على الزوجة فإنه يخرج ليحضر لها الطعام ، وعندما تلد فإنه يصطاد بحماسة ، وعندما تتعرض للخطر فإنه لا يتخلى عنها مطلقا ، ويدافع عنها إلى آخر دقيقة فى حياته !

ومن الحقائق المعروفة فى الغابة أن الغزال الذكر هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة وسط عائلته ، وهناك نوع من الغزلان أبيض الذنب ، قوى ،

له حافر كبير . يطلق عليه اسم « الإلك » وهو لا يغازل الأنثى إلا فى الليالى القمرية . ويستخدم صوته فى اجتذابها من مسافات بعيدة ، وعندما تسمع صوته ترد عليه وكأنها تقول : أنا فى انتظارك !

ويذهب الغزال للأنثى ويعيش معها كالزوج الولهان ولكن لمدة لا تتجاوز عشرة أيام ، يهجرها بعدها إلى أنثى جديدة إذا وجدها ، وإذا لم يجد أنثى جديدة فإنه يلازم أنثاه لمدة لا تزيد على ثمانية أسابيع ، يهجرها بعدها إلى الأبد حتى لو لم يعثر على الأنثى الجديدة !

وقد عرف الصيادون قصة شغف هذا النوع من الغزلان بالإناث ، ولذلك فإنهم يقلدون صوت الأنثى ، فيأتى فى اتجاه الصوت ليقع فى الفخ المنصوب !

وضحكت كثيرا عندما قال لى الكابتن روفائيل : هل تعرف لماذا قالوا يا نمس ؟ !

إن مصدر هذه التسمية يعود إلى الحياة التى اعتادها حيوان النمس ذاته . . فالنمس حيوان حريص جدا . . يحاول أن يبدو أمام أنثاه فى منتهى الإخلاص ، وقد رتب حياته بحيث يستأذنها فى شهرين من السنة للذهاب إلى جولة استكشافية فى الغابة ، والزوجة فى هذين الشهرين تنام وفى بطنها بطيخة صيفى ، فهى لا تشك مطلقا فى زوجها الذى يسعى من أجلها ، وفى الواقع فإن الذكر فى هذين الشهرين يكون على موعد مع صديقاته ، ثم يعود إلى بيت الزوجية وكأن شيئا لم يكن ، ليصبح زوجا مخلصا لا ينظر إلى أى أنثى مهما كان جمالها ومهما بلغت وسائل إغرائها !

وفى الغابة كثيرا ما ترى إناثا زاهدات ، عاكفات داخل كهوف ، فهناك أنواع غريبة من السنجاب اسمها « جيوميديا » تعيش أناثها حياة العانس بإرادتها ، فالأنثى تعيش تحت الأرض ، وترفض الخروج إلى السطح لمقابلة الذكر ، وحتى لو خرجت فإنها لا تمكث إلا عدة ثوان تعود بعدها إلى داخل مخبئها ، وبهذا ينعدم اتصالها الدائم بالذكور التى لا تطيق الحياة فى هذه الخنادق !

والغزل بين حيوانات الغابة يكون أحيانا بالنظر وأحيانا بالسمع وأحيانا باللمس ، فالذئب مثلا يغازل الأنثى بصوته ، وهى تستطيع أن تسمع لغة غرامه من على بعد آلاف الياردات . . وفرس البحر من أهم الحيوانات التى تعتمد على النظر ، ففى عينيه جاذبية تغنى عن شرح الأحاسيس والمشاعر التى يكنها للأنثى فى صدره . . أما العنكبوت فإنه يغازل الأنثى عن طريق اهتزازات خفيفة من نسيجه ، تفهم منها على الفور أنه وقع فى غرامها ، ولو رفضت الأنثى غرامه فمعنى ذلك أنها قد وفرت عليه كذكر حياته ، أما لو استجابت له فإنها تتزوجه ثم تقتله !

ومن أغرب ما سمعت أن من بين الذكور صاحبة الكلمة على الإناث فى الغابة : الحمار الوحشى والنسانيس والقرود . . أما الأسد فإنه أرنب أمام رغبات زوجته . . وكذلك النمور تخضع الذكور منها دائما لأوامر الإناث !

الوحش الأسطورى

المهم ، عندما بدأنا فى صباح اليوم التالى ندخل إلى مناطق الصيد ، بعد أن قطعنا طريقا شائكا للوصول إليها ، وجدت نفسى فى قلب ذلك العالم المثير الغامض الذى انطلقت منه آلاف الأساطير ، وعن طريقه دخل الاستعمار وحاول الاستيطان فى القارة الهائلة ، ومنه ظهر البطل الأفريقى ، وخرجت إيقاعات الرقص التى غزت العالم وأثرت فى فنونه !

كانت الغابة بمساحتها الشاسعة ، والتى تصل فى كينيا إلى حوالى ٦٤٩٠٠ ميل مربع ، تبدو أمامى كحسناء شديدة الفتنة بألوانها القزحية المتشحة بأعواد السافانا الكثيفة !

واندفعت بنا السيارات فى قلب الغابة ، وحبات العرق تغطى وجوهنا من لسعة الشمس . وكنا كلما اقتربنا من بعض الحيوانات الضارية أو الأليفة تتحول أمامنا الحياة إلى حركة بالغة . . إلى هروب من الموت . . فالذعر وحب البقاء يدفع كل الحيوانات ـ بلا استثناء ـ إلى الجرى بأقصى مالديها من سرعة فى اتجاهات مختلفة ، فرارا من ذلك الإنسان الذى عرفت على يديه فى حياتها البرية معنى القتل بلا حدود !

وبدأت طلقات الرصاص تتوالى من حولى ، وأنا أشعر بالمرارة والحزن كلما سقط حيوان من حيوانات الغابة . . ولهذا فطوال ساعات الصيد كنت أشعر بالبرودة الشديدة تدب فى جسدى ، وكانت كلمات القصاص الأمريكى سكوت فيتزجرالد (١٨٩٦ - ١٩٤٠) تزلزل أعماقى وأنا أتذكرها طوال المطاردة : « إننى أقف الآن كصياد على قمة جبل ثلجى ، والشمس تغطس فى الأفق ، وهناك وحش أسطورى يقترب منى ، وبندقيتى فارغة من الرصاصة الأخيرة » !

ولماذا أعبىء بندقيتى بالرصاص ، وأنا الذى قلبه يخفق كلما رأى غزالا يقفز فى رشاقة وسط أحراش الغابة !

ولهذا تنفست الصعداء عندما كفت طلقات البنادق من حولى ، وبدأنا جولة بلا رصاص فى الغابة ، عرفت أثناءها أن جمعية شرق افريقيا التى تضم كينيا وأوغندا وتنزانيا أقامت نوادى خاصة بأصدقاء الحيوان فى كل مكان ، وأصبح لها جريدة علمية وبحوث خاصة !

عيون الصقر

وكل هذه البحوث تؤكد أن الغابة مكان للقناعة والرضا ، وأن الحيوانات فيها تنام ملء جفنيها ، فهى تعرف معنى السلام والطمأنينة ، فالأسد مثلا يمضى كل وقته تحت ظل شجرة ، وكثيرا ما تراه يسير بجوار غزال أو حمار وحشى دون أن يمسه ، فهو لا يهاجم إلا نادرا ، وفى حالة واحدة ، إذا جاع ، وإذا جاع فإن الحيوانات تختفى من أمامه بسرعة فائقة ، لأنها تدرك خطر تلك اللحظة بحواسها القوية !

ولا يخاف الأسد من مخلوق قدر خوفه من « الحرباية » فما إن يراها حتى يجرى كالصاروخ ، والفيل بضخامته لا يولى الأدبار إلا إذا صفقت البجعة بأجنحتها فوقه !

وأخطر حيوانات الصيد على الإطلاق هو الأسد ، وإذا أخطأته الطلقة فإنه يندفع بسرعة شديدة وفى غضب بالغ لينتقم من الصياد ، ولذلك فإن صيده

يحتاج إلى ترتيب خاص . . وكذلك وحيد القرن الذى يهاجم الصياد ولو تمكن منه فإنه يبقر بطنه بقرنه . . وإذا جرح الفيل فإن صرخاته العالية تنطلق لإثارة أعصاب مهاجمه وإدخال الفزع إلى قلبه قبل الهجوم عليه دفاعا عن النفس !

ومن أسرع طيور الغابة الصقر ، حيث تصل سرعته إلى ٨٠ ميلا فى الساعة وهو يستطيع أن يحلق من على علو ألف قدم ، ويحدد بواسطة عينيه القويتين أى فريسة على الأرض . . أما أسرع حيوانات الغابة فهو الفهد حيث تصل سرعته إلى ٧٠ ميلا فى الساعة !

والزرافة ، رغم نظراتها الحالمة ، فإنها تستطيع أن تقتل أسدا إذا ماركلته بحوافرها الحادة كالموسى ، إلا أنها لا تستطيع السباحة فى مياه الأدغال ، ولذلك فإذا ما أراد الصيادون محاصرتها ، فإنهم يدفعونها فى اتجاه مجرى المياه !

تلك القصص وغيرها تستطيع أن تسمع عنها الكثير ، إذا ما التقيت بأبناء قبائل « الماساى » الذين يفضلون الحياة وسط الغابات ويعشقون السيوف والحراب والتبغ ، ويعمل رجالهم على استطالة شحمة الأذن ، وغرس قطعة من الخشب فيها تعلق بها بعض الحلى والخواتم وقطع من ذيول الوحوش !

وبالطبع أثناء تجوالى التقيت بالعديد منهم ، وجلست الساعات أتحدث معهم سواء فى غابات « أمبوسيلى » التى تقع تحت أقدام أعلى جبل فى افريقيا « كليمنجارو » على الحدود التى تفصل تنزانيا عن كينيا (١٩٥٦٥ قدما) ، أو فى غابة « تسافو » الخرافية التى تشاهد فيها الأفيال معفرة بتراب أحمر اللون . . أو فى غابات فندق الممثل الأمريكى الراحل وليم هولدن ـ الذى مات بالأيدز ـ عند خط الاستواء فى جبل كينيا ، وهذا الفندق كان يخصصه لأصحاب الملايين المشتركين فى نادى الصيد الذى أقامه فى أمريكا ، حيث يأتون فى أجازاتهم بطائراتهم الخاصة ، وينزلون فى مطار الفندق ليجدوا فى انتظارهم سيارات الصيد جاهزة للقيام برحلات قصيرة فى عطلتهم الأسبوعية ، وقد نزلت فى هذا الفندق أروع أربع ليالٍ فى حياتى ، فى كوخ

كل محتوياته من جلود الحيوانات ، ورياش الطيور ، ويطل على حديقة غناء بها أحلى الطيور وأجملها .

الاسلام فى الغابة

والغريب أن أبناء قبائل الماساى الذين يبلغ تعدادهم حوالى ٢٥٠ ألف نسمة لا يحبون أى لحم تم صيده . . فهم لا يأكلون سوى لحم الأبقار والمعز والأغنام التى تتمثل فيها ثروتهم ، وهم لا يحبون الزراعة أو الاستقرار مثل قبائل « الجيكويو » التى تعيش على الفلاحة وامتلاك الأرض ، ويرددون دائما أن الله خلقهم أحرارا فى الغابة يتجولون فيها كيفما يريدون !

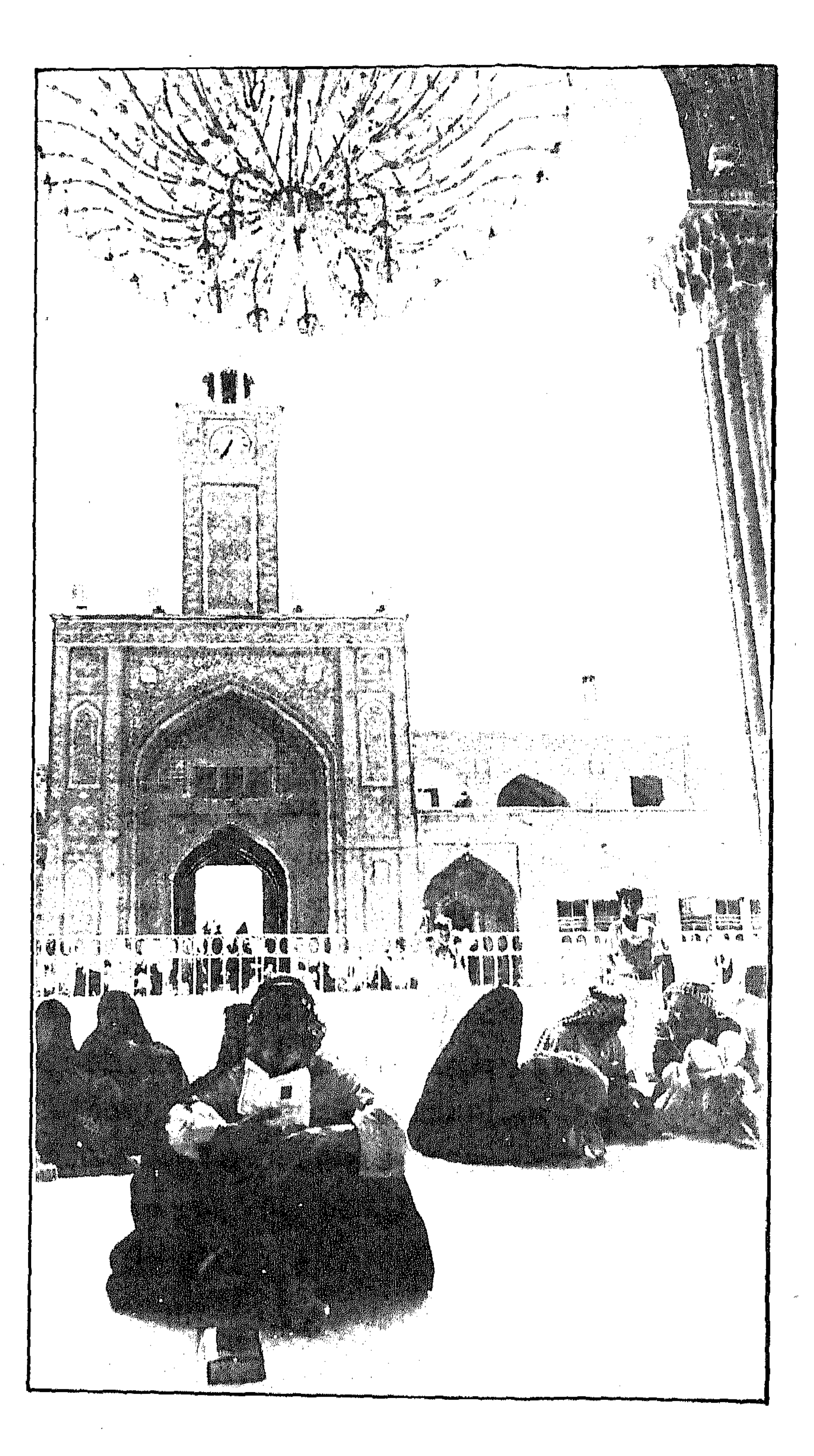
وعندما تدقق النظر فى أفراد قبائل الماساى ، فستلاحظ دائما أنهم أقوياء ، غاية فى الرشاقة ، وملامح وجوههم جميلة التقاطيع ، وهذا بالإضافة إلى اهتمامهم البالغ بنظافة المظهر ، وحرص كل واحد منهم على لف وسطه بحبل طويل يتدلى منه الرمح والدرع ، بينما يمسك بيده فى اعتزاز وقوة قبضة سيفه !

وقد كانوا فى الماضى يؤمنون بعادتين غاية فى القسوة : أولاهما غرس بوصة مجوفة فى وريد رقبة البقرة يسحبون بها الدم ويفرغونه فى وعاء من اللبن يشربونه ليملأ قلوبهم بالشجاعة . . والعادة الثانية كانوا فيها يأخذون الميت من بيته وهو عبارة عن كوخ من البوص ، ويحملونه خارج قريته ، ليلقوا بجسده تحت أشعة الشمس ، اعتقادا منهم بأن موتاهم لن يستريحوا إلا إذا فعلوا معهم مثل هذه الطقوس ، التى كانت تنتهى فى الحقيقة بأن يصبح جسد الميت وليمة للنسور والحيوانات المتوحشة !

ولكن مثل تلك العادات وغيرها اختفت من تقاليد قبائل الماساى منذ دخول أكثرهم فى الإسلام ، فقد نبذوا مثلا عادة إلقاء الميت فى العراء ، وأصبحوا يدفنون موتاهم طبقا للشريعة الإسلامية .

وهكذا ترى أن الحياة فى الغابة قطعة من الفن والجمال والغرابة والإثارة . . إلا أننى رغم كل ذلك . . ورغم إدراكى فى نهاية الرحلة بأن الصيد صناعة سياحية تدر ملايين الدولارات على كينيا سنويا ، فإن مخاوفى من زوال عالم البرارى الجميل النقى من عالمنا لم تتبدد !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



أبطال المواقف في مدن خضراء !

المكان بدون أبطال يصبح خاويا . . يعدو مجرد مبان صماء وطرقات وحدائق لا روح فيها ولا حياة . . ولهذا كثيرا ما وجدت نفسى مشدودا إلى المدن التى تعمق أبطالها فى أرواحنا وملكوا كل ذرة فى عقولنا ونفوسنا من خلال ما قدموا من مواقف وتضحيات غالية غير عابئين ببريق الحياة ورونقها أو ذهب المعز وسيفه ! .

من المدن التى عاشت دائما فى خيالى وعانقت روحى وقلبى : كربلاء والنجف والكوفة ، ولهذا زرتها فى حياتى أكثر من مرة ، وكنت كلما تركتها أعود إليها فى أول مناسبة وكلى اشتياق إلى أعظم الأبطال وأكرمهم ، الإمام على وأولاده وبقية آل البيت .

وفى الطريق إلى مسرح الأحداث كان لابد من أن يثور فى نفسى ذلك الحنين العارم إلى العدل والحرية والإخاء باعتبارها حلم الإنسان فى كل مكان وزمان . . ولم لا ، وأنا على موعد مع رجال ـ أو قل أبطال ـ العقائد والمثل العليا الذين ملكوا فى حياتهم أعظم الصفات وأعلاها بما فيها الصدق والزهد والشجاعة والتضحية وإنكار الذات !

أول الأبطال وأحبهم إلى نفسى سليل بنى هاشم ، الفقير إلى عرض الدنيا ورغد العيش ، أزهد الزاهدين بلباسه الخشن واعتياده على أكل الشعير الذى تطحنه زوجه فاطمة الزهراء بيديها ، وإصراره على أن يكون مقر خلافته فى الكوفة بيتا متواضعا من الطوب النيىء ـ مازالت بقاياه ماثلة حتى اليوم ـ بدلا من أن يكون قصرا منيفا !

إنه الإمام على بن أبى طالب ـ كرم الله وجهه ـ أفقه الفقهاء ، وأول من أسلم من الصبية ، وأول من افتدى الرسول الكريم بحياته ليلة الهجرة ، وأعز الفرسان سيفا فى معارك الحق من أجل إعلاء كلمة الإسلام حتى لقبوه بـ « أسد الإسلام » خاصة فى موقعة « بدر » التى كان فيها البطل المعلى وأول المبارزين والسباق على قتل المشركين .

وهو فوق كل هذا وذاك ، القائد الذى اجتمعت فى أخلاقه كل صفات النبل والطهارة والذكاء والمروءة والسماحة والنخوة والشرف والحق ، وكان على

جانب بالغ من القوة والثقة والفداء والاعتزاز بالنفس وطلب الرحمة حتى لأعدى أعدائه ، فقد كان يخرج إلى مبارزيه المقنعين بالحديد حاسر الرأس ، ناصحا جنوده بألا يقتلوا مدبرا ، أو يجهزوا على جريح ، أو ينهبوا مالا أو يكشفوا سترا . . وهذا ما جعل مفكرا كبيرا مثل عباس محمود العقاد يقول عنه : « مارفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام » . .

دعاه الرسول الكريم يوما مع زوجه فاطمة الزهراء وولديه الحسن والحسين ، وضمهم إلى صدره وهو يقول : « هؤلاء أهل بيتى » .

وكان حافظا وواعيا لكل دروس خاتم الأنبياء ، فظل مدافعا عن الحق فى تضحية وإخلاص وصبر وفداء ، من أجل ألا يطغى الملك على سلطان الدين وتراث الرسول ، وحتى لا تسقط عظمة النبوة ونورها المتألق تحت سنابك طغيان الأمويين وجبروتهم ومراوغتهم ودهائهم الذى قادهم إلى أسوأ الأفعال والنهايات !

ولم أستطع أن أنسى طوال طوافى بمسرح الأحداث نكبة استشهاده بعد اليوم التاسع عشر ـ فى يوم جمعة ـ من شهر رمضان عام ٤٠ هـ عن ٦٣ عاما ، عندما خرج فى الفجر يصلى بالناس فى المسجد الأعظم بالكوفة ، فطعنه بسيف مسموم أحد غلاة الخوارج « عبدالرحمن بن ملجم المرادى » بعد سلسلة من الوقائع بدايتها اقتراب انتصار على وجنوده فى معركة « صفين » ورفع المصاحف على أسنة الرماح فى مواجهتهم بحجة حقن الدماء والمطالبة بتحكيم كتاب الله ، ونهايتها مؤامرة الاختيار عندما خلع أبوموسى الأشعرى عليا وثبت عمرو بن العاص معاوية ، وما حدث عقب ذلك من تطورات أسفرت عن انشقاق الخوارج على الطرفين واتخاذهم لقرار غريب يتلخص فى التخلص بالقتل من زعماء الطرفين المتنازعين (على ومعاوية وعمرو بن العاص) !

المؤامرة والاستشهاد

وحتى يكتمل تصور الحدث الدامى فإن كل كتب التراث تجمع على أن الخوارج الثلاثة الذين اختيروا لتنفيذ عمليات الاغتيال هم ابن ملجم الذى

أخذ على عاتقه مهمة التخلص من على ، والبرك بن عبدالله الذى تعهد بقتل معاوية ، وعمرو بن بكر الذى قال : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص » ! .

وذهب ابن ملجم المرادى إلى الكوفة ، والتقى بأعوانه ، ووقع فى غرام امرأة فائقة الجمال اسمها « قطام بنت الأخضر » فوعدته بالزواج بعد اتمام قتل على انتقاما لأبيها وأخيها اللذين راحا ضحية القتال مع جيشه فى النهروان ، وأعطاه هذا الوعد إصرارا فوق إصرار للمضى فى تنفيذ مهمته الملعونة ، ولنقترب من المأساة التى وصفها بدقة بالغة محمد بن الحنفية (محمد بن على ابن أبى طالب) قائلا إنه كان يصلى فى تلك الليلة التى ضرب فيها على فى المسجد الأعظم ، وكان معه كثير من أهل الكوفة يصلون قريبا من السدة (المنبر) ، فلما خرج على ينادى « أيها الناس الصلاة . . الصلاة » . . خطف بصره بريق سيف انتزع من غمده وكلمات رجل يقول : « الحكم لله يا على ، لا لك ولا لأصحابك » ثم رأى صاحب السيف يشد على الإمام وسمع من يقول : « لا يفوتنكم الرجل » وحاصر الناس القاتل من كل جانب ، ودخل الناس للاطمئنان على الإمام فى رقدته ليسمعه وهو يقول : « النفس بالنفس ، إذا أنا مت فاقتلوه كما قتلنى ، وإذا بقيت رأيت فيه رأيى » ثم دخل الناس على الحسن بن على فزعين لما حدث ، وبينما هم عنده وابن ملجم مكتوف بين يديه قالت أم كلثوم بنت على وهى تبكى بحرقة بالغة « يا عدو الله ، إنه لا بأس على أبى ، وإن الله مخزيك » ، فقال ملجم فى تحد ظالم : « فعلى من تبكين إذن ؟ لقد اشتريت السيف بألف ، وسقيته السم بألف ، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل الكوفة ما بقى منهم أحد » ! .

وقضى الإمام شهيدا ، ومات قاتله بضربة واحدة أدرجوه بعدها فى الحصير وأحرقوه بالنار ، فى وقت كان فيه سيف البرك بن عبدالله قد أخطأ معاوية أثناء خروجه للصلاة فى الشام ، وكان كذلك سيف عمرو بن بكر قد ضرب فى مصر « خارجة بن حذاقة » بدلا من عمرو بن العاص الذى لم يخرج للصلاة بسبب ألم مفاجىء فى بطنه جعله ينيب رئيس شرطته ! .

وبفشل المحاولتين فى الشام ومصر تم قتل منفذى الاغتيال فى الحال ، وغرقت الكوفة وكل الأمصار الإسلامية فى بحر الدموع والآلام التى خلفها

استشهاد على ، إلا أن كل ذلك لم يصنع عائقا أمام سلطان ونفوذ معاوية عندما بايعوه للخلافة !

السم فى العسل

ثانى الأبطال هو ريحانة الرسول الكريم الحسن بن على « أبو محمد » الذى جاء مولده فى ليلة ١٥ رمضان عام ٣ هجرية قبل ولادة الحسين بأحد عشر شهرا . .

وقد وصفه أحمد بن عبدالله الطبرى فى كتابه « ذخائر العقبى » بأنه كان مشربا بحمرة ، شديد سواد العينين ، كث اللحية ، كأن عنقه بريق فضة ، ربعة ليس بالطويل أو القصير ، من أحسن الناس وجها ، جعد الشعر ، حسن البدن .

وكان الحسن أكثر الناس عبادة فى عصره ، حج ٢٥ مرة على قدميه ، واشتهر بالحلم والتواضع والكرم الذى كثيرا ما دفعه للإحسان بكل ماله ، وقد حاول بعد استشهاد أبيه أن يقف فى وجه خصومه ، إلا أن خطر الذين أظهروا متابعته واتصلوا بمعاوية من وراء ظهره وانضمام قائد جيشه عبيدالله بن عباس إلى معسكر معاوية ، جعله يوافق على الصلح ، ويتنازل عن الخلافة مفضلا العيش فى هدوء فى المدينة لثمانى سنوات إلى جوار قبر جده الرسول الكريم .

غير أن هذا الصلح والاقتناع الكامل بالسلم لم يشفعا له عند أعدائه الذين كانوا يحسبون بدقة حسابات المستقبل ، ولذا اتفقوا ـ كما تقول الروايات التاريخية ـ مع زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس على أن تدس له السم فى العسل ، مقابل وعد من معاوية بجائزتين : مائة ألف درهم ، والزواج من ابنه يزيد ، وسلمها الجائزة الأولى بعد التنفيذ ولم يأمنها على الجائزة الثانية بعد وفاة الحسن عن ٤٦ عاما فى سنة ٤٩ هجرية ، ودفنه إلى جوار أمه فاطمة الزهراء عقب رفض الأمويين دفنه إلى جوار أبيه فى الكوفة !

عدالة القضية

أما ثالث الأبطال فهو الحسين بن على ، الحاذق بالفقه واللغة ، الخطيب

الطلق اللسان ، الذكى ، الشجاع ، الكاره لكل أنواع النفاق ، المحارب ببسالة جميع ألوان الجشع والخنوع ، إضافة إلى تعلقه المستميت بكل ما يهذب النفس الإنسانية ويدعمها بالذوق الجميل فقد كان كريما ، وفيا ، لايملك سلاحا غير الحق ، ولا يعشق شيئا مثل الطيب والبخور والزهر والريحان !

إنه سيد شباب أهل الجنة ، وسبط الرسول وريحانته فهو القائل عنه : « إنه قرة عينى » . .

استولى على قلوبنا عن طريقين : طريق مفروش بالورد لابن بنت الرسول فاطمة والإمام على وحفيد السيدة خديجة أم المؤمنين . . أما الطريق الثانى فهو موقفه السياسى العظيم الذى لم يخضع لمساومة أو تهديد لإيمانه بعدالة القضية ، والذى أعطانا درسا عظيما فى صلابة نبل المقصد ، برفضه لكل الاغراءات والضغوط لمبايعة يزيد بن معاوية ، وإصراره على المضى فى هدفه لاسترداد هيبة الإسلام ، وإعادته إلى أخلاقيات النبوة مهما كانت المصاعب والأخطار .

خرج من مكة إلى الكوفة فى عام (٦١) هجرية ، بعد أن جاءته رسل أهل الكوفة تبايعه على الجهاد بالأموال والأنفس حتى يسترد الخلافة من الأمويين الذين أهملوا دينهم وتعلقوا بدنياهم ونقضوا اتفاق معاوية مع الحسن بن على بأن يترك أمر الحكم بعده شورى للمسلمين ، فبايع ابنه الماجن العربيد يزيد الذى لا يفيق ـ مع بطانته ـ من الشراب واللهو ، وأدت تلك المبايعة إلى خيانة العهد ونقل سلطان القوة والبطش ـ بعد وفاته ـ إلى يد من لا يملك ذرة من الصلاح هو وقواده ورجاله !

ولم يقرر الذهاب إلى الكوفة بناء على كلام الرسل ، بل أرسل أولا ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب ليستطلع حقيقة الأمر ، فأرسل هذا بدوره رسولا يبشره بأن من بايعوه وصلوا إلى حوالى ١٢ ألفا وأن بقية المبايعين سينضمون تباعا !

وفى اللحظة التى كان يتحرك فيها الحسين مع ٧١ من أهله وصحبه ، ومن خلفهم الصبية والنساء فى اتجاه الكوفة ، كان قد تم القبض على مسلم

وضربوا عنقه وألقوا جثته من فوق القصر كما صلبوا فى السوق صاحبه هانىء ابن عروة . فقد سمع يزيد بن معاوية بما حدث فى الكوفة فعزل على الفور أميرها النعمان بن بشير الأنصارى وضمها إلى مناطق نفوذ والى البصرة عبيدالله بن زياد الألكن اللسان المجهول النسب ابن مرجانة المجوسية ، وطلب منه القبض على مسلم بأى طريقة وقتله مع أعوانه !

وأثناء رحلة الحسين إلى الكوفة قابله الشاعر الفرزدق فحذره قائلا : « لاتذهب فقلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء » !

وقابل آخرين فأكدوا له هذا القول ، فقد أصبح أهل الكوفة مسلوبى الإرادة منهم من اشتروه بالمال ، ومنهم من هرب ، ومنهم من لاذ بالصمت بعد أن رأى بعينيه بطش الظالمين ، بينما ظلت قلة قليلة منهم على عهدها رغم ما يحيطها من أخطار !

لقد مضى الحسين وأهله وصحبه إلى قدرهم المرسوم ، ولم يغير مجرى الرحلة انهمار الدموع غزيرة من عينيه بعد أن سمع قصة استشهاد قيس بن مسهر الصيداوى الذى طلب منه أن يذهب إلى الكوفة ليبلغه بأخبار مسلم ، ولكن فور وصوله قبضوا عليه وساقوه إلى ابن زياد الذى قال له : « سأنظر فى أمرك إذا صعدت فوق القصر ولعنت الحسين أمام الناس » ، وصعد فعلا لا ليلعن رمز الحق ولكن ليلعن رموز الشر يزيد وقومه والملتفين من حوله ، وكانت النتيجة أن ألقوه من فوق القصر ، مكتوفا ليلقى حتفه راضيا بنصيبه وقدره المكتوب !

وكان باستطاعة الحسين أن يعود برجاله وبآل البيت ، ولكنه أصر على مواصلة المهمة بعد أن طلب من أهله وعشيرته أن يعودوا ويتركوه وحده يلاقى مصيره فى شجاعة الأبطال ، إلا أنهم أبوا أن يتركوه وأصروا على أن يرافقوه إلى نهاية المطاف ، فقد كانوا جميعا على موعد مع مأساة كربلاء !

تلك المأساة التى تنبأ بها الإمام على وهو فى طريقه لخوض معركة صفين بالقرب من شاطىء الفرات الأيمن ، عندما توقف فى كربلاء التى كانت وقتها مكانا خاويا قفرا ، فتساقطت الدموع من عينيه وهو يقول لصحبه : « هنا محط

رحالهم ومهراق دموعهم » ! .

وقد صدقت دموع الإمام على عندما وصل الحسين وأهله وصحبه إلى أرض العراق ، فخطط السفاح عبيدالله بن زياد لقيادة قافلة الحسين إلى أرض كربلاء الصحراوية الجرداء القاسية التى لا يوجد بها حصن ولا ماء ولا مأوى ، والتى تبعد عن الكوفة بحوالى ٢٥ ميلا إلى الشمال الغربى ، فنزل بها فى ٢ من المحرم عام ٦١ هـ ، ليطوقهم جيش من أربعة آلاف فارس ورام بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى وعده بولاية الرى فى الشام إذا أدى المهمة المخزية على خير ما يرام ! .

وقبل المعركة الفاصلة منعوا عن الحسين الماء ، وبدءوا يساومونه من موقع القوة على مبايعة يزيد فلم يتخاذل ، وبكى الأطفال من الظمأ فلم يضعف ، وفضل أن يستشهد واقفا كجذوع الأشجار ، مجاهدا بسيفه ورمحه على أن يخون قضيته أو يتنازل ويساوم على الحق !

وبعد ان استشهد فى العاشر من المحرم (٦١ هـ) من كثرة نزف جراحه ، اندفع نحوه الأعور الكريه الوجه والصورة « شمر بن ذى الجوشن » ليجز رقبته ويحمله فوق رمح هدية إلى سيدى عاره : ابن زياد ويزيد ، اللذين لم يهنآ كثيرا بالهدية ، فقد اختفى رأس الحسين وتحول إلى قضية مازالت مثارا للجدل حتى يومنا هذا : هل دفن مع الجسد فى كربلاء ، أم أن مثواه فى دمشق ؟ أم أنه ـ الرأس ـ دفن فى مسجده الذى يحمل اسمه ويقع فى قلب القاهرة الفاطمية ؟ أم أنه فى عسقلان أو الرقة فى الشام ؟ !

أسئلة عديدة مازالت مطروحة بدون جواب . . وإن كانت الإجابة الشافية أن الحسين رضوان الله عليه قد أصبح من أبرز شهداء المعارضة فى الإسلام ذوى المواقف السياسية الصلبة .

أبطال المكان

ويتوالى أبطال المكان واحدا وراء الآخر فى تراجيديا سطورها الإباء والشمم والشجاعة والعزة والكبرياء ، فقد التفوا جميعا حول قائدهم ليجعلوا من أجسادهم درعا تقيه من النبال والسهام ، وكانوا مقاتلين أشداء حتى آخر

رمق في حياتهم !

فهذا هو العباس بن على الفارس الذى لا يبارى والملقب بقمر بنى هاشم لنبالة ملامحه وإشراقة وجهه ، يتضامن مع آل البيت فى القتال إلى جوار أخيه الحسين ، ضاربا أصدق الأمثال فى ترابط الأسرة ، لقد رفض أن يترك أخاه وحيدا فى محنته بل أصر على أن يظل محاربا يذود عن الحق بكل ما يملك من قوة ، فقاتل كتيبة بأكملها من جيش ابن زياد حتى استشهد متأثرا بجراح النبال بعد سبعة أيام بدون ماء !

وهذا هو على بن الحسين ، الذى كان أول شهيد من أهل البيت ، إنه أكبر الأبناء ، حمل السيف ليذود عن أبيه وهو يرتجز الشعر فى مواجهة العدو :

أنا علـــيُّ بن الحسيـنِ بن علـــى
نحن وربُ البيتِ ، أولى بالنبى
أضـربكم بـالسيفِ حتى يلتـوى
ضـربَ غـلامٍ هـاشمىٍ علوى
ولا أزالُ اليومَ أحمى عن أبى
تاللهِ لا يحكمُ فينا ابن الدعى

وقد قتل هو الآخر وهو يدافع عن قضية أبيه التى هى قضية الإسلام ، وأصابه سهم فى حلقه ، فحمله الإمام إلى خيمة عمته « زينب » التى بكت بحرقة ولوعة فى آخر لحظات وداعه !

ولم يقتصر الجهاد على آل البيت وحدهم ، ولكن شارك فيه أيضا من آمنوا بموقف الحسين وأحقيته فى الخلافة وبغضهم الشديد للخليفة العابث يزيد بن معاوية .

ضمن هؤلاء الذين وقفوا مع آل البيت متخذين موقفا ملتزما بالحق ، رغم علمهم بقوة العدو وبطشه ، الحر بن يزيد الرياحى ، الذى رفض أن يقاتل مع المتآمرين وآثر أن ينضم إلى صفوف الحسين وأن يقاتل معه تحت راية الحق حتى استشهد !

بطلة الثأر النبيل !

وتأتى على قمة مأساة كربلاء مقاتلة ولكن من نوع آخر ، سلاحها ليس السيف ، وإنما الكلمة القوية الثائرة التى عمقت فى النفوس معنى المأساة وجعلتها واقعا حيا حتى اليوم .

إنها السيدة زينب بنت على من فاطمة الزهراء بنت الرسول الكريم ، التى انطلقت تستثير الهمم الخامدة وتضرب المثل الأعلى لقدرة المرأة عندما تتبنى قضية الحق وتدافع عنها فى بسالة وبلا خوف أو تردد .

لقد تحملت وقائع مأساة الدم والموت على أرض كربلاء ، وشهدت بعينيها مصارع الأشقاء والأبناء والأخوة ، وظلت تتلقى أجسادهم الطاهرة فى خيمتها واحدا إثر الآخر ، وكان آخرهم شقيقها سيد الشهداء الحسين بن على الذى احتضنت أشلاءه وهى تبكى فيه حسن المنبت ، والتى حمت السبايا الهاشميات اللاتى فقدن الرجال وسرن فى موكب الكوفة حافيات خاصة ابنة أخيها سكينة ذات الملامح النبيلة والوجه الصبوح التى منعت وقوعها سبية فى يد أحد رجال يزيد ، كما أنها أنقذت الفتى المريض على زين العابدين بن الحسين من الذبح ، فكان الوحيد الذى تبقى من آل البيت ، ولولاه لانتهت سلالة الإمام الحسين منذ تلك اللحظة .

وباختصار ، كانت السيدة زينب ثورة عارمة أفسدت شهادتها على الأمويين كل حياتهم ، وجعلت من كربلاء مأساة خالدة قدمتها الدكتورة بنت الشاطىء فى رائعتها « السيدة زينب بطلة كربلاء » بقولها : « لكن السيدة زينب وقفت على جثث الشهداء تصيح بأهل الكوفة الذين بكوا عندما رأوا موكب الأسرى والسبايا من بنات الرسول ، فقالت لهم : أتبكون ؟ . . فلا سكنت العبرة ! » . . واستجابت السماء فلم تسكن للقوم عبرة . . لقد ثأرت زينب لأخيها الشهيد ورجمت صرح الدولة الأموية فتغير التاريخ ! .

نعم . . تغير التاريخ . . وضاعت نشوة النصر بعد ثلاثة أعوام فقط من استشهاد الحسين ، وبدأ الثأر بعد عامين من وفاة زينب ، التى ظلت عاصفة فى وجه الظلم ، حتى عندما أقصوها مجبرة من المدينة فيما يشبه النفى ،

فاختارت مصر كنانة الله لتكون مقرا لمنفاها ، ومواصلة جهادها وسط شعب يعرف حق آل البيت على المسلمين ، ولهذا لم يكن عجبا أن فرشوا لها قلوبهم عندما خرجوا لاستقبالها فى جموع حاشدة ودموعهم تتساقط من قرية بلبيس بالشرقية حتى العاصمة ، حيث استضافها فى داره والى مصر « مسلمة ابن مخلد الأنصارى » . .

وفى مستقرها الجديد ظلت تتعبد وتروى وقائع المأساة مصرة على الثأر ، حتى توفيت ودفنت فى نفس الدار ليلة ١٤ من رجب عام (٦٢ هـ) ، ليتحول قبرها الطاهر إلى مزار ومسجد يتوافد عليه آلاف المسلمين من كل صوب ! .

فى العتبات المقدسة

هكذا كان كل الأبطال الذين استشهدوا ، أو شاركوا فى معركة كربلاء . .

كانوا جميعا مثالا للتضحية والفداء والشجاعة والإقدام والقدرة على الدفاع عن الحق .

ولعل هذا ـ وحده ـ الذى جعلنى دائما أشتاق إلى المكان لأستعيد ذكرياته الباقية على مر الزمان ، وأعيش حاضره مع طريق الآلام الذى بدأ بعد المأساة مباشرة ، عندما مكث القوم ـ كما يقول الطبرى ـ شهرين أو ثلاثة يلطخون الحوائط بالدماء من ساعة طلوع الشمس حتى ارتفاعها !

وبعد ذلك بفترة وجيزة ، هبت الكوفة بأجمعها لتثأر من قتلة الحسين وآل البيت ، بل ولم يكتف أهلها بذلك فأخذوا يعبرون عن ندمهم بالدموع وإراقة دمائهم بغزارة ، لأنهم لم يقفوا إلى جواره فى اللحظة الحاسمة وتخلوا عن مساندته ، مفسحين الطريق أمام الوحوش الظالمة الشرسة لتشفى غليل سلطانها المهان من سيد الشهداء بإصابة ابنه الرضيع العطشان بسهم غادر وهو يحمله بين يديه ، كما أنهم تركوا سبط الرسول وأهله وصحبه الأبطال ذوى العزائم الصلبة يتسابقون على الشهادة وأفواههم مشتاقة إلى بضع قطرات من مياه نهر الفرات ! .

ولعل صور الندم المتعددة وتعاظمها على مر التاريخ ، هى التى عمقت فى

النفوس معنى تضحية وشجاعة ومواقف هؤلاء الأبطال ، وجعلتنا نتلهف على معرفة مواقع الأحداث ومتابعة أحوالها الراهنة .

أصل إلى كربلاء بعد مائة كيلومتر من بغداد ، لأجد نفسى فى مدينة تاريخية بمعنى الكلمة . . فهى لم تعد تلك المنطقة الصحراوية التى رأت استشهاد الإمام الحسين وآل بيته وصحبه ، ولكنها أصبحت قبلة للزائرين من كل لون وصوب ، الذين يأتون لزيارة الروضة الحسينية ، حيث يرقد جثمان سيد الشهداء وابنه الأكبر على وجمع من أصحابه الذين شرعوا سيوفهم مدافعين عن قضيته غير عابئين بالظمأ والكثرة !

عندما أدخل إلى المدينة التى تقع على ضفاف نهر الحسينية الذى شقوه من نهر الفرات إلى كربلاء عام ٧٠٢ هـ ، يشد انتباهى شوارعها المتسعة ، وسوقها الكبيرة وقبابها ومآذنها المكسوة بالذهب التى تعلو شامخة وتخطف بصرك وأنت فى الطريق إلى الروضة الحسينية ، التى تضم ضريح الإمام الشهيد وشقيقه العباس .

واكتشف منذ الوهلة الأولى مدى الاهتمام البالغ الذى أولته العراق للمكان وخاصة الروضة الحسينية فأصبحت بتلك الصورة المشرقة الجذابة التى نراها عليها اليوم .

أول ما يلفت النظر ذلك الصحن العظيم الذى يصل طوله إلى ٩٥ مترا وعرضه ٧٥ مترا ، بأبوابه العشرة المزينة بالقيشانى الجذاب ، بينما يحيط بالروضة ١٦٥ ديوانا جدرانها مزينة من الداخل والخارج بالفسيفساء ، يتوسطها بناء للروضة الحسينية ، أشهر أبوابه باب القبلة الشاهق المطلى بالذهب والفضة ، وحول الحضرة رواق بديع تزينه نقوش من المرايا ، وتعلو الروضة الحسينية قبة شاهقة بارتفاع ٢٧ مترا مغطاة بالذهب الإبريز ، يحيطها ١٢ شباكا وعلى جانبها مئذنتان مكسوتان بالذهب الخالص .

فى الروضة الحسينية أجد ضريح الإمام الحسين عبارة عن مصطبة من الخشب المرصع بالعاج الفاخر ، وفى أعلاها مقصورتان طول كل منهما خمسة أمتار ونصف ، والعرض يصل إلى أربعة أمتار ونصف ، وإحدى

المقصورتين من الفولاذ والأخرى من الفضة . . بينما هناك ممر يؤدى إلى حجرة مستطيلة ، مغطاة برخام معرج الألوان كرمز للدم الذكى المراق ، وعلى أرضيتها قطعة من الرخام تمثل المكان الذى حوصر فيه سيد الشهداء ولفظ أنفاسه الأخيرة وهو ظامىء ومثخن بالجراح ! .

وفى كربلاء التى يصل سكانها إلى حوالى ٤٠٠ ألف نسمة ، أرى مرقد الحر بن يزيد الرياحى على مقربة من مرقد الحسين ، وكان قد أرسله والى الكوفة ابن زياد ليمنع وصول الحسين إليها ، وفعلا التقى الركبان وأجبر الحسين على النزول فى كربلاء ، إلا أنه عندما اكتشف فداحة الجريمة التى ارتكبها اندفع بحصانه نحو صفوف الحسين ليحارب إلى جواره ببسالة حتى استشهد !

ومن كربلاء أقطع ٧٥ كيلومترا لأصل إلى النجف حيث مرقد الإمام على ومقام زين العابدين بن الحسين ، لأجد نفسى فى مدينة تمثل مركزا هاما لتعليم العلوم الدينية واللغة العربية .

ولمعلوماتك فإن النجف هى الظهر المتصل بالكوفة والحيرة قبل زوالها ، وهى تنتمى إلى أرض منخفضة على طرفها يقع المرقد الشريف ، ويقولون إنها كانت مهبطا للأنبياء ، وبها كان منزل إبراهيم الخليل ، وفى ترابها دفنت عظام آدم ونوح بعد نقلها ، كما دفن بها أيضا هود وصالح ! .

ومن بين ما عرفته أيضا أن النجف كانت مأهولة بالعرب المزارعين أثناء الفتح الإسلامى ، ووقعت بها عدة معارك هامة ، وخاصة عند فتح الحيرة فى عام ١٢ هـ ونزول القائد خالد بن الوليد بها ومطالبته أهل الحيرة بإرسال رجل من العقلاء ، فاستجابوا لندائه وأرسلوا له أحد المعمرين للتفاوض معه وهم متحصنون فى قصورهم !

وقد دخلت النجف ورائحة البخور العتيق تملأ صدرى ، وكأنها همزة الوصل بين الماضى العريق والحاضر المجيد ، فقد كنت أذوب عشقا كلما رأيت مسجدا من مساجدها المتعددة ذات الطرز الخاصة ، أو زرت أحد حماماتها القديمة ، أو طالعتنى بيوتها الصغيرة ذات الطابقين والتى بدأت

تزحف عليها العمارات الحديثة ، وأخذت تزاحمها المقاهى والحانات والفنادق والمكتبات المتناثرة بشكل ملحوظ ! .

والمعروف أن المدينة لم تحظ بأهميتها الحالية إلا بعد وجود مرقد الإمام على ، وإذا كانت الإشارات التاريخية تؤكد اهتمام العباسيين بمرقده فى بداية حكمهم ، إلا أنهم بعد اختلافهم مع العلويين أصبحت هذه المدينة مأوى للمضطهدين منهم منذ أواخر القرن الثالث الهجرى ، وأثناء ذلك حاول العباسيون هدم المرقد أثناء فتنة مذهبية ! .

ومن الطرائف التى قالها لى علماء النجف أن السلطان المغولى « خدابنده » عندما أصبح شيعيا أظهر طموحه فى نقل رفات الإمام على وابنه الحسين إلى مدينة السلطانية الواقعة فى مملكته على بعد مائة ميل من غرب قزوين ، غير أنه لم ينجح فى ذلك !

وقالوا لى أيضا إن المدينة ظلت حريصة على تراثها أمام كل الهجمات ، بل إن دراسة تاريخ الحرم يتضح منها أن عدد العمارات التى شيدت على الضريح كانت خمسا ، أولاها عمارة الخليفة العباسى هارون الرشيد الذى ذهب ليصطاد فى منطقة النجف فوقعت عيناه على قبر الإمام فأمر ببنائه عام ١٧٠ هـ ليتطور البناء عقب ذلك ، ولتستمر عمليات التجديد حتى عصرنا الحديث ، الذى رأى فى السنوات الأخيرة عدة إصلاحات وإضافات مثل تذهيب القبة ، والاتجاه المستمر لإخلاء المناطق السكنية المحيطة بالروضة حتى تصبح صورتها بارزة فى المدينة ، لقد أنفقوا على العتبات المقدسة ملايين الدنانير ، وهذا بخلاف الأموال الطائلة التى أنفقت على تطوير المدينة نفسها ، فالعراق تصرف بسخاء على كل ما يحافظ على تراث المدينة التى حظيت بشرف أن يكون بين ترابها رجال عظماء ، كما أنها تهتم بتوفير كل الخدمات أمام السكان والزائرين ، فقد بلغ ما صرف عليها أخيرا خمسة ملايين دينار .

وقال لى العلماء إن زوار الروضة اليوم يمثلون جميع المذاهب ، وأن كل العادات التى كانت تسىء إلى قداسة المكان مثل العويل وتمزيق الملابس وتشريط الجسد حتى ينزف بالدماء ، وغير ذلك من الموروثات القديمة قد

اختفت تماما بعد أن أعلنوا الحرب على الخزعبلات والتشويهات التى لامكان لها فى ديننا الحنيف .

المهم أن الروضة التى يرقد فيها الجسد الطاهر للإمام على تقع وسط مدينة النجف القديمة بالضبط ، ولكى تصلها فما عليك إلا أن تجتاز الباب الرئيسى الذى تعلوه ساعة كبرى ذات جرس ناقوسى وأربعة أوجه تعلوها قبة مطلية بالذهب الخالص ، وستجد نفسك داخل فناء كبير يسمى بالصحن ، يصل ارتفاعه إلى ١٧ مترا ، وتتراوح أطوال أضلاعه الأربعة ما بين ٥٧ و ٨٤ مترا ، ومزين بالقيشانى المنقوش المكتوب عليه الآيات القرآنية ، وفيه ما يقرب من مائة غرفة وأربعة ايوانات وخمسة أبواب ، ثم تدخل إلى رواق يحيط بالروضة له أربعة أبواب ويبلغ ارتفاعه ١٧ مترا وطوله مثل عرضه ٣٠ مترا ، ومزدان بالمرايا الرائعة ومنقوش ببعض الآيات القرآنية .

ومن الرواق دخلت إلى الروضة عن طريق أحد الأبواب الأربعة ، التى منها اثنان ذهبيان مطعمان بالميناء واثنان فضيان ، ويقابل كل بابين شباك كبير يطل على الرواق ، والروضة مربعة الشكل طول ضلعها ١٣ مترا ، وأرضيتها مفروشة بالرخام الإيطالى المصقول ، وجدرانها ترتفع حوالى مترين ومغطاة بالرخام ! .

وفى وسط الروضة يوجد المرقد الشريف الذى وضع عليه صندوق من الخشب المطعم بالعاج المنقوش عليه بعض الآيات القرآنية والمحاط بشباكين أولهما من الحديد الفولاذى والزجاج ، والثانى من الفضة .

وحول المرقد لا يتغير المشهد . . أعداد كبيرة تلف حول الضريح ، ومن بينهم صبية صغار ورجال من مختلف الأعمار ونساء يرتدين العباءات السوداء ويقرأن القرآن ، ويتلون الأدعية المكتوب بعضها فى قلب الروضة نفسها .

وفوق الصندوق الخشبى الذى يعلو المرقد ، أرى أعدادا كبيرة من الصناديق الصغيرة ، وعددا آخر من التحف التى تمثل أهم الهدايا التى جاءت إلى الروضة عبر عصور وسنين طويلة .

وعندما أعود إلى وصف المكان ، أرى أن المرقد الشريف تعلوه قبة جميلة

مطلية بالذهب الخالص ترتفع ٢٥ مترا عن أرض الروضة ، ومزينة من داخلها بالفسيفساء الرائعة ، وبنقوش أسماء الأئمة المعصومين ، وبعض آيات من الذكر الحكيم ، ومقطوعات من الشعر العربى فى مدح أمير المؤمنين ، كما تعلو الروضة مئذنتان مطليتان بالذهب ، ارتفاع كل منهما ٣٥ مترا ! .

وهكذا نرى أن الروضة بهذه الصورة النادرة من البناء العظيم ، وبما لها من مكانة دينية فى القلوب ، تعتبر شريان المدينة المتدفق بأعداد هائلة من الناس لا تنقطع ليل نهار ! .

مع الكنوز والهدايا

وأتذكر أنه فى أول زيارة لى للنجف فى منتصف السبعينات طلبت أن أرى عن قرب هدايا وكنوز العتبات المقدسة القابعة خلف أبواب موصدة ، والتى لا يستطيع أحد الاقتراب منها لندرتها وقيمتها العظيمة التى لا تقدر بأى ثمن !

ووقتها كان الأمر يبدو أمامى أشبه بالمستحيل ، لأن فتح الكنوز يحتاج إلى حماية خاصة ، حتى لا تتعرض أى تحفة للسرقة ، كما حدث فى كربلاء منذ أكثر من ستين عاما !

إلا أن التوصية الخاصة التى حصلت عليها ، جعلت اللجان تتكون على وجه السرعة ، لأقف مذهولا أمام روعة الهدايا التى تراكمت على مر العصور وقدمها سلاطين وملوك وقادة وتجار ، جاءوا من كل صوب لزيارة مرقد الإمام على وآل البيت وصحبه ، وهم يحملون أغلى التحف الذهبية والفضية المرصعة بأندر الأحجار الكريمة وأحلاها ! .

وقبل أن يقودنى أمين الروضة إلى داخلها ومعنا لجنة من الأوقاف وعدد من موظفى المكان ، قال لى إن كمية الذهب الموجودة فى الروضة لا حدود لها ، فالعتبة وحدها بها تقريبا ٨ آلاف بلاطة عليها قشرة ذهبية تصل فى كل بلاطة إلى حوالى عشرة دراهم ، وأنه فى عام ١٩٦٣ تبرع أحد تجار النجف بحوالى ربع مليون دينار هى كل ما يملك من أجل إعادة طلائها بالذهب ، وكان هذا الرجل هو الحاج محمد رشاد مرزة الأسرى الذى شفاه الله بعد زيارته للمكان ! .

وبعد التأكد من إغلاق كل الأبواب ، فتحوا أمامى باب الحرم الحيدرى الشريف ، وخرجت أمامي التحف والآثار النادرة ذات القيمة الأثرية والمادية العظيمة ! .

إن بعض هدايا روضة الإمام على تعود إلى القرن الرابع الهجرى ، عندما أهدى عضد الدولة البويهى قطعة من النسيج المطرز ليغطى بها المرقد ، ومنذ ذلك التاريخ توافدت على الروضة أعداد لا حصر لها من المنسوجات المصنوعة من القطن والحرير والصوف والمزخرفة بأشكال لا حصر لها ، وخاصة الزخارف النباتية ، أو الزخارف التي تعتمد على التصوير ذاته ، والتي تكتشف بمجرد رؤيتها أنها متأثرة بالمناطق القادمة منها سواء كانت إيران أو تركيا أو الهند أو سوريا أو المغرب !

كما رأيت مبخرة من الذهب الخالص تم إهداؤها منذ ثلاثة قرون ، وعددا آخر لا حصر له من المباخر الذهبية والفضية ذات الأشكال المختلفة !

وكان من بين ما شاهدت أيضا من المصنوعات المعدنية قنديل من الذهب مرصع بالزمرد والياقوت والماس وحبات اللؤلؤ ، رأيت الكتابة على قاعدته تشير إلى أنه هدية من ناصر الدين شاه فى عام ١٢٧٢ هجرية ، وقد اشتهر صاحب الهدية بأنه أعطى للبريطانيين امتيازات كثيرة فى بلاده ، فاغتاله أحد رعاياه ! .

وهناك أيضا إطار من الذهب الخالص بداخله قطعة من القطيفة المطرزة بالخيوط الذهبية والمرصعة بالجواهر واللؤلؤ ! .

وقد رأيت بخلاف ذلك :

* تاجا مرصعا بالأحجار الكريمة النادرة مهدى إلى الحضرة الحيدرية المطهرة ، وكل التاج من الذهب ، والذى أهداه هو الأمير نادر شاه الأفغانى ، الذى أسقط الحكم الصفوى حوالى عام ١١٣٠ هـ ، وغزا الهند عام ١١٥٠ هـ واستولى على دلهى وحمل معه كنوزها ومن بينها الماسة الشهيرة المعروفة باسم « كوهنور »أوعرش الطاووس ، وقد جاء فى زيارة إلى العتبات المقدسة بعد انتصاره فى حربه مع الهند ، وكانت بصحبته ابنته « زينة النساء »

التى أهدت تاج والدها الذهبى المرصع بالألماظ ، والذى يحتوى على زمردتين كبريين إلى الروضة ! .

* مجموعة من الجواهر والحلى المعلقة داخل الضريح وسط ما يشبه المحراب .

* مجموعة من الجواهر والأحجار الكريمة ، والسجاد المصنوع من خيوط الذهب والحرير والمرصع باللؤلؤ والياقوت وغيره من الأحجار الكريمة !

* حبتين من الأرز مكتوبا على كل منهما سورة الإخلاص كاملة ، وتستطيع أن تقرأها بمكبر ، وهما محفوظتان فى صندوق خاص .

* قنديلا ضخما من الذهب الخالص ، مطعما بالميناء ومرصعا بالجواهر واللؤلؤ والألماظ والياقوت الأحمر . . وهو يزن خمسة كيلوجرامات بخلاف الجواهر . . وأهداه إلى الروضة الأمير على مراد الزند قبل مائة عام ! .

ثم هناك مجموعة من المصاحف الرائعة والنادرة التى لا يوجد مثيل لها فى كل أنحاء الدنيا ، فهناك مصحف مكتوب بالخط الكوفى على رق غزال منسوب للإمام على ، ويقال إنه كتبه قبل استشهاده بعام واحد ! .

كما أن بالروضة أكبر قطعة ماس فى العالم ، وأيضا أكبر لؤلؤة اكتشفت حتى اليوم !

وهذه الهدايا بوفرتها وقيمتها العظيمة لا تختلف فى كثير أو قليل عن الهدايا والتحف الموجودة فى روضتى الحسين وأخيه العباس فى كربلاء ، ففى مخازنهما التى استطعت أن أفتح أبوابها فى يوم آخر ، كانت هناك السجاجيد وقطع الأنسجة النادرة والسيوف والحلى الذهبية والمعادن الذهبية والفضية ذات الأشكال المختلفة ، والمصاحف القديمة التى من بينها مصحف على رق غزال كتبه على بن الحسين فى عام ٨٩ هجرية ، ومصحف منسوب إلى الحسن بن على بن أبى طالب .

ومن الحقائق التى عرفتها وقتئذ أن النجف وكربلاء تعرضتا لنهب اللصوص بزعامة محمد بن حنبة الأسد ، إلى أن قضى عليهم فى عام ٣٦٩ هجرية !

وقد سعدت هذه المرة عندما عرفت أن هناك مشروعا لبناء متحف الروضة الحيدرية بتكلفة ثلاثة ملايين دينار ليضم كل كنوز العتبات المقدسة .

مدينة العلماء والشعراء

وعندما أترك النجف وأذهب إلى الكوفة ، أجد نفسى فى مدينة ذات أرض سهلة عالية ، يزيدها رونق على رونق ذلك الشعاع الثقافى الذى كثيرا ما أطلت به على العالم الإسلامى ، فمن أرضها نبت العديد من العلماء والفقهاء والشعراء منهم اللغوى أبوالأسود الدؤلى ، والطبيب العربى جابر بن حيان الذى كان أول من اشتغل بالكيمياء القديمة ، والفقيه أبوحنيفة النعمان ، وفيلسوف العرب الفذ الكندى ، وشاعرنا العظيم أبوالطيب المتنبى ، كما كانت ملتقى لأشهر المفكرين والعلماء العرب الذى أثروا الفكر الإسلامى والحياة العملية بالعديد من الاكتشافات والاجتهادات والآراء الثاقبة التى كان لها الفضل فى صنع الحضارة الإسلامية .

إن مدينة الكوفة فى رقادها الجميل الهادىء على نهر الفرات ، تبعد عن مدينة النجف بحوالى ثمانية كيلومترات ، وقد اشتهرت على مر التاريخ بأنها أول عاصمة إسلامية للحكومة خارج المدينة المنورة ، وهى أرض المياه الوفيرة والقوافل التجارية واستراحة الحجاج إلى بيت الله الحرام ، كما أنها المدينة التى يبدأ منها الزائر للعتبات المقدسة وينتهى عندها ! .

وقد دخلت إلى كوفة الجند التى أنشأها الفاتح العربى سعد بن أبى وقاص فى عام ١٧ هجرية ، بعد أن أمره الخليفة عمر بن الخطاب ببنائها ، لتكون قاعدة عسكرية ومركزا لقواته على الجبهة الشرقية للمسلمين خلال معارك القادسية والمدائن وجلولاء ، ولتكون دار هجرة لأشهر الصحابة وأعرق القبائل العربية المقاتلة ، ولتصبح عقب ذلك منارا علميا وأدبيا ، ومركزا فكريا وسياسيا بعد أن اتخذها الإمام على عاصمة للخلافة .

وبيت الإمام على فى الكوفة عبارة عن منزل أبيض صغير متواضع ، مازال يحتفظ بهيئته الأصلية فيما عدا بعض الترميمات !

وعندما استقر الإمام على بالكوفة أحاط به أتباعه الذين كانوا من الفقراء

والحفاظ والصحابة ، ومن هؤلاء ظهرت مدرسة الكوفة فى الفقه ، وظهر الخط الكوفى ، وتم وضع أول قواعد لعلمى النحو والصرف وعلوم الصوفية وعلم الكلام .

وفى الكوفة ألتقى بعدة معالم هامة : مسجد الكوفة الذى اختطه القائد سعد بن أبى وقاص عام ١٧ هجرية ، وشهد مقتل الإمام على ومازال يحتفظ بسوره القديم ، رغم ما دخل عليه من تعديلات عديدة وخاصة فى محرابه ، ومسجد مسلم بن عقيل الذى صنعت قبته من الذهب الخالص ، ودار الإمارة التى لم يبق منها إلا قواعدها فى الأرض ، والتى كانوا يلقون منها أتباع ـ الحسين ـ بهدف بث الرعب فى نفوس الناس ! .

وفى هذه المدينة العريقة ظهر الإمام جعفر الصادق ، وكان يلتف حوله فى مسجدها العلماء ، وهو الذى حدد قبر الإمام على بعد أن كان من الأسرار المخفية خوفا من وصول أيدى الأذى إليه !

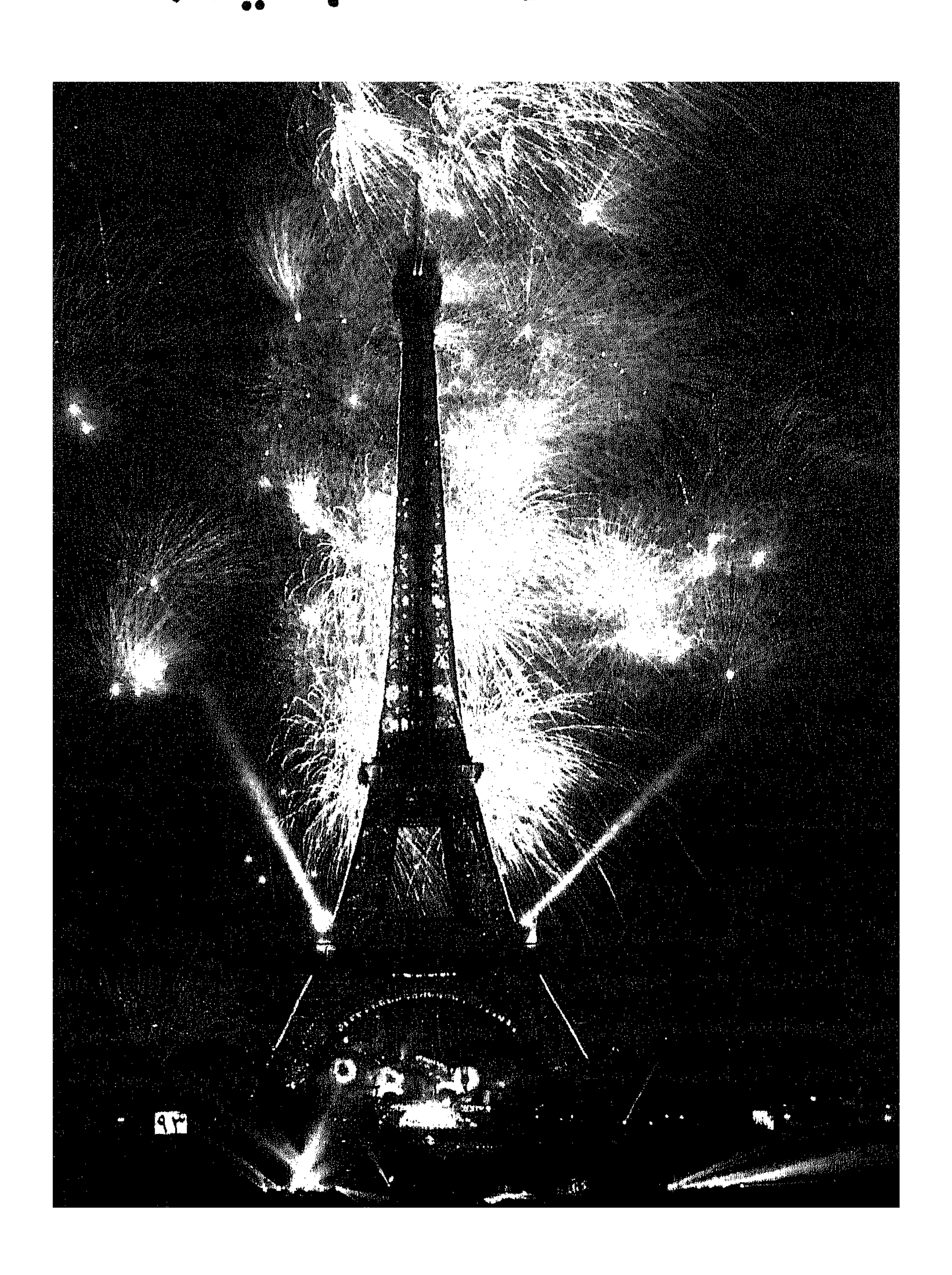
وقد عاش ودفن فى الكوفة الصحابى الجليل « خباب بن الأرت » ، كما عاش بها الصحابى عبدالله بن مسعود وهو أحسن من قرأ القرآن أمام الرسول الكريم .

وطوال طوافى بالمدينة العريقة أشعر بمدى التطور والعمران الذى زحف عليها من كل جانب ، إلا أننى لم أستطع الابتعاد كثيرا عن الأحداث الدامية التى دارت على أرضها أيام زمان ، بداية من رؤيتى للبئر التى تتوسط بيت الإمام على ويأتيها الزوار من كل مكان ليشربوا منها ويمسحوا وجوههم حبا وبركة ، إلى ذلك العصر المؤلم الذى شاهد فيه أهل الكوفة رأس الحسين محمولا فوق رمح ورأوا سيلا من الاضطهاد ظل لقرون عديدة !

ولا يبقى إلا أن أقول بعد تلك الرحلة الحافلة بعطر آل البيت وكراماتهم ، إن المدن الخضراء الثلاث كربلاء والنجف والكوفة ستظل ما بقيت تثير فى نفوسنا ذكريات غالية لأبطال المواقف الذين رفضوا الانحناء ، وضحوا بحياتهم دون أن يساوموا على الحق ، أو يخونوا القضية التى استشهدوا من أجلها .

باريس

وجه لا يعرف التجاعيد !



قد تشعر مثلى بالعشق وأنت تسير على جسور نهر السين المتعرج ذى المياه الصافية الهادئة ، فمتعة الدنيا ـ فى رأيى ـ أن تتأمل وجه مدينة لا تعرف مرارة زحف التجاعيد ، لأنها تجدد شبابها بصفة مستمرة ، وتزخر بشتى ألوان المباهج والمتع الذهنية التى تدفعك الى التفكير والاعتراف بسلطان الجمال وسيطرته على النفوس بلا حدود .

لم يكن لقائى بباريس فاترا مثل كثير من المدن الباهتة التى كثيرا ما عانقت بين دروبها الملل والضجر ، فالمدن العظيمة تبعث الدفء فى القلوب حتى فى عز البرد القارص .

وصلت إليها فى يوم غسلت فيه مياه الأمطار طرقاتها ، لأرى بيوتها القديمة وأبراجها ومتاحفها وفنونها المتعددة وغاباتها الخضراء التى جلس تحت ظلالها كل شعراء فرنسا الكبار أمثال لافونتين ولامرتين وبودلير وغيرهم من عشاق الجمال والفن ، ولأشم عطرها الفرنسى برائحته النفاذة المجنونة والذى لا يفوقه عطر فى العالم الا عبق التاريخ ، ولأقف مبهورا أمام مساحات اللون والزمن فى لوحات رينوار وديجا وسيزان وكلود مونيه وبيكاسو وغيرهم من الفنانين الذين ذابت فرشاتهم من حلاوة وطعم ألوان المناظر الباريسية الخلابة ، ولأشعر بين جنباتها بموسيقى شوبان وفرانتز ليست وهى تصدح بأرق الأنغام وأعذبها ، ولتتوالى على مخيلتى الأفكار الساخنة لفلاسفتها العظام بداية من مونتسيكو صاحب «روح القوانين» الذى نادى بالديموقراطية النيابية ودافع عن مبدأ الفصل بين السلطات حتى نقلل من الانحراف والاستبداد وكانت لآرائه أثرها الكبير على رجال الثورتين الفرنسية والأمريكية ، الى فولتير عاشق الحرية ، وجان جاك روسو فارس الدعوة لإصلاح الحياة الاجتماعية ، وأوجست كونت مؤسس الفلسفة الوضعية ، وهنرى برجسون وسارتر ورولان بارت وغيرهم ممن أعطوا للدنيا مواقف غالية لا تفصل الإنسان عن عالمه الحقيقى .

وقد جئت اليها وصور الأمس القريب عالقة بذهنى . . فهاهو أديبنا الكبير طه حسين ينهل فى دأب وصبر من ينابيعها المتدفقة بحرية الفكر والضمير ، ويستغرق باحثا وراء من يأتى بعد أبى العلاء من الشخصيات الفذة فى تاريخ

العرب الفكرى ، فيجد أن ابن خلدون هو ألمعهم وأقربهم الى نفسه فيعكف على دراسته ويستجلى نظرياته الفلسفية فى السياسة والاجتماع والاقتصاد ، ويكتب حولها رسالته الجامعية بالفرنسية لتحظى بأعظم التقدير .

وهذا هو الفتى النحيل ذو العينين الواسعتين والأحلام الزاهرة ، التى لا تتطلع الى سلطان أو جاه غير سلطان الحق ، إنه توفيق الحكيم فى نظرته المتأملة لتمثال الشاعر والكاتب المسرحى «الفريد دى موسيه» يستوحى عروس الشعر بينما نقش على قاعدته عبارة تقول : «لا شىء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم» وكيف كانت تلك العبارة تدفعه الى تأمل وجه الشاعر تتساقط من عينيه قطرات المطر كالعبرات ، فيدفع ذلك قلبه الى التحرك وفمه الى السكوت !

ومن صور الأمس ـ أيضا ـ التى تدافعت الى ذهنى صورة رفاعة رافع الطهطاوى الذى غاص فى فكر المدينة وواقعها أثناء رحلته الشهيرة فى القرن التاسع عشر ، والتى عاد بعدها لينقل أروع ما فى عقل فرنسا والغرب الى اللغة العربية .

وإذا كانت باريس تذكرنى بجمال الدين الأفغانى عندما أصدر منها صحيفته «العروة الوثقى» بمعاونة من زميل كفاحه الشيخ محمد عبده لتصبح صرخة توقظ يأس الراقدين ، فإنها بالطبع آلام شاعر الشعب بيرم التونسى فى منفاه ، وهو يبدى خوفه من أن يموت بعيدا عن وطنه فى ملاجىء البلاد التى أنجبت الشاعر العظيم «لامارتين» :

ياباريز يام بلاد بره
يامربية لامرتين
بعتت لك أم الدنيا
شاعر فى الشعر متين
يعمل أشعار لصعايدة
وتلامذة وفلاحين
إياك مايموتش عندك
فى بيوت المساكين

فى باريس أتخيل دائما ثلاثة وجوه لا تغيب عن الأذهان مهما طال الزمن :

جولييت آدم صاحبة المجلة الجديدة ، وأهم زعيمة نسائية فرنسية فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهى التى دفعها إيمانها بالحقوق الإنسانية العادلة للوقوف الى جوار الزعيم مصطفى كامل فى نضاله من أجل الاستقلال . . وسارة برنار التى هزت مسارح باريس والعالم على مدى ستين عاما ، وجاءت الى القاهرة وساقها مبتورة فى بداية العشرينات لتقدم على مسرح عباس بشارع عماد الدين أهم مسرحياتها : النسر الصغير ، الذئاب ، اللهب ، توسكا ، غادة الكاميليا ، وقد بلغ إعجاب الجماهير بفنها الرفيع الى أن وصلت أقل تذكرة لمشاهدتها فى المقاعد الخلفية عشرة جنيهات ، وهو رقم ضخم بمقياس النقود فى هذه الأيام ، كما أنهم أصروا فى ليلة الافتتاح على أن يجروا عربتها بدلا من الخيل !

أما الوجه الثالث فهو لرجل ذى عينين نفاذتين ولحية سوداء وملابس بيضاء نعود الى استقباله فى قلب باريس فى منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد أن ظل ١٧ عاما يحارب فرنسا فى بسالة وشجاعة منقطعتى النظير ، لقد اصطف الباريسيون لرؤيته كما لو كان منتصرا وليس مهزوما ، وأطل عليهم الأمير عبد القادر الجزائرى منتصب القامة متماسك النظرات ، تتابعه عيونهم بالإعجاب ، فكان أسيرا لبلادهم ، وكانوا هم أسرى شجاعته ونبله وحنكته السياسية والعسكرية !

وقفة الذكريات مع هؤلاء الشوامخ الذين ارتبطت اسماؤهم بعاصمة الثقافة والفن لا تنتهى ، فنهر عاصمة النور ملىء بالأسماء التى حفرت شهرتها بأظافرها الى أن وصلت الى القمة : الكاتب المسرحى الفذ موليير الذى وصف باريس بأنها أكبر مستودع للعجائب ، وبلزاك الروائى البائس الغارق فى الديون والذى عاش بين زهورها ولآلئها ، وأيضا مع وحوشها الكاسرة ليجد فى قلبها أشياء كثيرة نسيها الأدباء الغطاسون !

ومن بين مشاهيرها ـ كذلك ـ جى دى موباسان أعظم من كتب القصة القصيرة ، وجان راسين أو المثل الأعلى للشاعر الكلاسيكى الرائع ، وبول فاليرى وايلوار واميل زولا والبير كامى والكسندر ديماس وأندريه جيد وجول ڤيرن ، والشاعر والروائى والكاتب المسرحى العظيم فيكتور هوجو الذى سكن

بها لأكثر من ١٦ عاما فى بيت صغير فى ميدان الفوج ، وكان يكتب قصائده الى جوار نافذة فى ذلك البيت ، يطل منها على شجرة بلوط ليستلهم الوحى ، وقد احتفلوا فى عام ١٩٨٥ بمرور مائة عام على وفاته تحت شعار يتمناه كل إنسان على وجه الأرض ، وهو شعار «ضمير الشعب» الذى استحقه عن جدارة لتأصيله للعواطف البشرية ومقاومته للظلم والطغيان .

الإنسان والحضارة

فى مثل تلك المدينة الزاخرة بهذا الكم الهائل من الشوامخ ، ياترى ماهو نبض الحياة بين ربوعها التى أضيئت روائعها بالكشافات عام ١٩٢٩ ؟

عندما تتعامل هنا مع الإنسان ، تجد نفسك أمام نموذج حى يعشق لغة وطنه ويعتبرها ضرورة لأى مثقف فى العالم اذا ما أراد أن ينهل من ينبوع الفكر الإنسانى الذى لا ينضب ، فالفلاسفة والفنانون والأدباء والمهندسون والعلماء الفرنسيون فى رأيه هم الذين واصلوا مسيرة عطاء الذهن الانسانى وأضاءوا مرة أخرى شعلة الحضارة للبشر أجمعين .

والباريسى بحكم تكوينه التاريخى يؤمن بحريته الشخصية ، ويعشق المعارضة حتى النخاع ، والمبادىء فى نظره هى أفضل مقياس لاكتشاف طابور المزيفين !

وهو يشعر دائما بمتعة ما بعدها متعة ، عندما يبوح لك بأحلامه أو يقول لك ماذا سيفعل غدا ، وإن كان يفضل التعامل مع الناس بحذر ، ويقيس شتى المسائل بالعقل ويبحث عن الأسباب ، ولعل فى ذلك يكمن الجواب عن سر هذا الكم الهائل من الفلاسفة الفرنسيين .

واذا ما نظرت الى الباريسى فى تحركاته لوجدته قلقا ، مشدود الأعصاب ، يؤرقه كل ما يتعلق بتحقيق ذاته وطموحاته ، خاصة اذا ما كان ضمن هذا الطراز النادر من البشر الذين يحلمون بالاختراع واضعين أمامهم مختلف نماذج الفرنسيين الذين نبغوا فى العلم ، أمثال مدام كورى البولندية الأصل وزوجها بيير واكتشافهما للراديوم فى عام ١٨٩٥ الذى أصبح يستخدم منذ ذلك الوقت

فى أغراض كثيرة منها الطب ، ولويس باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) والثورة التى أحدثها فى علم البكترولوجى ، ولويس وأوجست لوميير واكتشافهما لصناعة الفيلم وتقديم أول فيلم عن عمال المصانع عام ١٨٩٥ ، والأخوين جوزيف وايتين مونتجولفى أول من شيدا عمليا البالون ذا الهواء الساخن (١٨٧٢) ، ولويس بلروا الذى عبر القنال الانجليزى من كاليه الى دوفر عام ١٩٠٩ فى أطول مسافة طيــران وفقد احدى عجلات طائرته عند الهبوط ، وكذلك أبو الكيمياء أنطوان لافوازييه (١٧٤٣ ـ ١٧٩٤) الذى اخترع كلمة أوكسجين وشرح لماذا هى هامة فى عمليات الاحتراق ، ثم ودع الحياة بمأساة دامية عندما قطعوا رأسه أثناء الثورة الفرنسية !

وعموما فالباريسى يميل باستمرار الى تأكيد قدرته فى أى عمل يوكل إليه ، إضافة الى الميل لاستعراض موهبته فى التذوق فى كل مجالات الحياة ، بداية من فن تذوق الطعام الى تذوق الشعر والمسرح والباليه !

والغريب فى الأمر أن الباريسى شغوف بإلقاء الأوامر فى نفس الوقت الذى لا يحب فيه الخضوع لأية سلطة ، كما أنه محب للنظام بشرط أن يكون لشخص غيره ، وهو حريص أثناء قيادة سيارته على التسلح ببعض مافى قاموس الشتائم من كلمات جارحة ، قد يحتاج إليها أثناء الدفاع عن نفسه ضد أى وقاحة يتوقعها من سائقى السيارات !

وتراه دائما يتباهى بنفوذ مدينته فى ثلاثة اتجاهات :

* عالم الأزياء حيث تخرج منه سنويا ومع كل فصل من فصول السنة أجمل الموضات وأرقها وأكثرها ذوقــا وابتكارا من أشهر بيوت الأزياء مثل كريستيان ديور وكاردان ولانفان ونيناريتسى وغيرها ، لتصبح حديث وتقليد العالم من أقصاه الى أدناه .

* عالم العطور ومستحضرات التجميل التى أصبحت تعويذة كل امرأة على وجه الأرض ، تبحث عن الجمال والسحر الغازى لقلب الرجل ، فكل العطور المشهورة والغالية فرنسية ، وكل مستحضرات التجميل المثيرة قادمة من باريس .

* المدارس الأدبية والفنية الحديثة ، فقد اشتهرت باريس منذ القرن السابع

عشر بزعامة الحركة الفكرية والثقافية ، وكانت خلال القرن الماضى مركزا للنشاط الفنى حيث خرجت منها غالبية مدارس الفن التشكيلى الحديثة ، وخرجت منها خلال القرنين الأخيرين مدارس فكرية متعددة مثل الرمزية والوجودية التى هزت العالم فيما مضى ، وإن كان تصدير تلك المدارس قد تراجع فى فرنسا مع نهاية هذا القرن ، بفعل الحضارة الانسانية التى أفقدت المبدع توازنه واستقراره وجعلته يدخل الى عصر هزيل من المشاعر المحاصرة بكل ما يقود الى الترنح والاحتضار !

العقل والقلب

وينظر الباريسى الى المقهى على أنه ملتقى للأصدقاء ، فكل واحد له مقهاه الخاص ، وأغلبية رواد تلك المقاهى يفضلون الجلوس عليها فى هدوء لمراقبة العالم الذى يسير أمامهم . . ومن أشهر مقاهى باريس مقهى «دى فلور» ومقهى «دوماجو» فى السان جيرمان الذى ذاعت شهرته عقب الحرب العالمية الثانية عندما اختاره سارتر وصديقته سيمون دى بوفوار كمكان للقاء والكتابة ، و«كافيه دى لابيه» المشهور بمقهى السلام الذى يلتقى حول مائدته أدباء من الشرق والغرب ، وهناك مقهى فى الشانزليزيه خلف قوس النصر بنى فى عصر نابليون ، كما أن هناك لوحة شهيرة للفنان ديجا (١٨٨٠) سجل فيها ملامح وجهين على مقهى باريسى .

ورغم أن الطعام باهظ التكاليف فى باريس ، فان الباريسى ينفق الجزء الأكبر من دخله على معدته ، ويختار الأطعمة المفيدة وذات المذاق ، وفى مقدمتها أنواع عديدة من الجبن ، ويفضل المياه المعدنية ، ويحرص على شراء الخبز من مخبز يباشر صاحبه بنفسه الإشراف على انتاجه . . أما إعداد الطعام ومهارته فهو فن اكتسبوه جيلا بعد جيل ، والحديث الدائم المشترك والمحبب للقلوب هو الحديث عن المائدة ، وهذا يجعل الكثير من الناس يتساءلون : هل يأكل الباريسى ليعيش أم يعيش ليأكل ؟!

والواقع أن باريس لعبت دورا مركزيا هاما فى وحدة فرنسا لأكثر من ألفى سنة ، أو كما يقول المؤرخ الفرنسى دانيال مونتيه : قامت فرنسا وانتشرت بداية من باريس !

وطوال فترة تطورها كانت العقل الإدارى والقلب السياسى لفرنسا ، يعيش بها سدس السكان ، وينطلق منها النشاط السياسى والاقتصادي والثقافى ، وتبدأ منها دائما الأحداث الجسام ، التى كان آخرها عندما حاول الرئيس شارل ديجول أن يجعل من فرنسا قوة كبيرة فى العالم وأن يبنى ثروتها الاقتصادية على أفكار نموذجية ، فقامت المظاهرات التى أجبرته على التقاعد فى عام ١٩٦٩ ، والتى مات بعدها بعام واحد ليودع العالم فيه مناضلا قاوم الاحتلال النازى لبلاده الى أن حقق نصرها النهائى فى عام ١٩٤٤ ، وزعيما أعطى كل ذرة من عقله وقلبه لهذا الوطن الجميل .

وقد أصبحت أفكار ديجول هى السائدة اليوم رغم مضى ١٩ عاما على رحيله ، نرى ذلك من خلال استقلال فرنسا السياسى داخل التحالف الغربى ، وامتلاكها لقوتها النووية الخاصة خارج الأطلنطى ، ودورها الهام جدا لحل مشكلات العالم الثالث وفى مقدمتها الديون خاصة أنها ترتبط بروابط اقتصادية وثقافية متميزة مع مجموعة الدول الأفريقية الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون) كما رأينا ذلك الدور المتعاظم عندما أصبح الرئيس فرانسوا ميتران الصديق القديم لإسرائيل يتخذ مواقف إيجابية للغاية بل ورائعة تجاه القضايا العربية وفى مقدمتها حل مشكلة الشرق الأوسط التى كان آخرها استقباله للزعيم الفلسطينى ياسر عرفات كرئيس لدولة فلسطين .

جاذبيـة باريـس

وكلمة الحق التى تقال إن أى انسان يسير فى شوارع ودروب باريس لابد أن يشعر منذ الوهلة الأولى أنه يمضى عبر تاريخ فرنسا الزاخر بالأحداث الجسام ، فكل أثر هنا يمثل سجلا للوقائع التاريخية الكبيرة ، وكل مكان يحكى قصة الناس وعصورهم بما فيها من أمجاد وانتصارات ، وهزائم وآلام وقودها ظلم الإنسان لأخيه الإنسان !

جاذبية باريس العاصمة تكمن فى قصورها الشبيهة بالقلاع ونافوراتها الجذابة ومتاحفها ونهرها الحالم . . ويزيد من هذا الجمال غابات بولونيا ،

والتمثال الذهبى لجان دارك (١٤١٢ - ١٤٣١) وهى تمتطى جوادها وتشهر سيفها فى وجه المستعمرين الانجليز ، الذين أحرقوها حية حتى يتمكنوا من إخماد مقاومة الفرنسيين ، وكنيسة نوتردام بفنها القوطى التى تمثل أروع وأقدم آثار باريس (١١٦٣ م) والتى تذكرنا برائعة فيكتور هوجو «أحدب نوتردام» «كيزمودو» بقبحه وانسانيته وهو يقرع الأجراس للمصلين وفى داخله جرح حب «أزميرالدا» الغجرية ، وساحة الكونكورد التى تنتصب فى وسطها المسلة الفرعونية والتى نصبوا من قبل مكانها آلة «الجيلوتين» الرهيبة التى أطاحت برأس الملكة انطوانيت وزوجها لويس السادس عشر وأطفالهما (١٧٥٤ - ١٧٩٣) ومقبرة العظماء البانثيون (١٧٦٤ - ١٧٨١) ،وقصر لكسمبورج (١٦١٥ - ١٦٢٠) على طراز عمارة عصر النهضة ، وتحفة «الأنفاليد» التى شيدت من عام (١٦٧١) حتى عام (١٦٧٦) وتمثل الطراز الكلاسيكى للعمارة الفرنسية وخلفها قبة استقر تحتها رفات نابليون فى تابوت من الجرانيت الأحمر وتحوى مدافن أشهر قواد فرنسا مثل فوبان وثورن وفوش ، وكنيسة «الساكركير» التى تحتل أعلى بقعة فى تلال مونمارتر وتشرف بقبابها الأسطورية على معالم باريس ، وقوس النصر الذى ينتصب فى ساحة الأتوال واستغرق بناؤه ٣٠ سنة وتم افتتاحه فى عام ١٨٣٦ .

ولا ننسى فى خضم كل ذلك الكوميدى فرانسيز ، ومبنى الأوبرا العتيق وقد تجمعت فى ساحته ألوان متعددة من الحمام تلتقط الحنطة ، والمسرح الوطنى ، وجامعة السوربون ، والمكتبة الوطنية ، والأكاديمية الفرنسية ، ومعهد باستير ، ومدرسة الفنون الجميلة ، ومتحف العالم العربى الذى يضم فى ردهاته ملامح الحضارتين العربية والإسلامية بشتى فنونهما ، ومركز بومبيدو الذى أصبح يضم أكبر معارض الفنون المعاصرة فى العالم ، وغير ذلك من المؤسسات الثقافية الهامة ، وكذلك مترو الأنفاق الشهير .

أما شوارع باريس فأوسعها هو الشانزليزيه الذى يضم أحدث بيوت الأزياء ويجذبك بمنظره الجميل وفتريناته ومقاهيه . . وفى شوارع السان جيرمان ترى ذلك الخليط من الناس الذى يضم كل شعوب الأرض !

واذا أردت أن تثير رغبتك فى التسلية والدهشة فلا طريق أمامك غير البيجال !

وستجد الفن والشعر والجنون فوق تلال «مونمارتر» التى كانت قرية على حدود باريس وأصبحت اليوم مركزا لحياة الباريسيين بما فيها من ملاه ومطاعم .

وفى الحى اللاتينى يمكنك أن ترى الفنانين وأدعياء الفن ، ومعظم اللوحات فى هذا الحى تدور حول بيوت باريس القديمة وتدخل فى متاهات المدارس والاتجاهات الفنية الحديثة !

المخربون والقائد الفذ !

واذا أردت أن ترى باريس من ارتفاع ١١٠٠ قدم ، فيمكنك أن تفعل ذلك من فوق برج إيفل الذى يصل عمره الى مائة سنة ، والذى يعتبر رمزا للمدينة ، فقد اختاره دون كل الآثار الزعيم النازى هتلر عندما دخلت القوات النازية الى باريس فى عام ١٩٤١ وطلب من المصورين أن يلتقطوا له صورة تذكارية الى جواره . . والمعروف انه عندما انتهى المهندس جوستاف ايفل من بنائه أشاع البعض أن هذا البرج قد يصبح بمثابة موصل أو جاذب للصواعق التى تؤدى الى قتل الأسماك فى نهر السين ، وصدق سكان المدينة القصة لولا أن سخر بانى البرج من سخافة هذه الشائعة بأن اختار لنفسه سكنا فى أعلاه !

وهناك معالم فى باريس اذا لم ترها فكأنك جئت الى المدينة وخرجت منها دون أن تفعل شيئا . .

أول هذه المعالم متحف اللوفر الذى يضم روائع العالم الفنية ، وكان فى البداية قلعة ملكية لحماية غرب باريس ، وكان سجنا لخصوم الملك ، ثم قصرا ، وهو الآن من أشهر متاحف العالم بما يحتويه من كنوز فنية تسجل تاريخ الحركة الفنية فى العالم .

وثانى هذه المعالم قصر فرساى الذى ارتبط بلويس السادس عشر ومارى انطوانيت بما فيه من حشود من اللوحات الفنية ، وقد أسسه لويس الرابع عشر ، وبناه جيش من ٣٦ ألف صانع ، وتعرض لعدوان إجرامى فى عام ١٩٧٨ تسبب فى تدمير ثلاث قاعات تحتوى على مقتنيات فنية وأثرية تعود الى

العهد النابليونى ، وحدوث أضرار فى العشرات من قاعات العرض الأخرى ، مما أحدث ضجة عالمية بسبب ما يحتويه من ذخيرة لما انتجه الفنانون العالميون فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر لتكون شاهدا على عظمة فرنسا .

لقد أصابت يد المخربين ذلك التراث العميق لقائد فذ ، كان لانجازاته العسكرية والثقافية والقانونية أبلغ الأثر فى نفوس الفرنسيين .

فنابليون بونابرت الذى كان ابنا لمحام فقير عاش فى جزيرة كورسيكا ، بدأت موهبته العقلية والعسكرية تتضح بعد تخرجه من المدرسة الحربية فى باريس وارتباطه بالثورة الفرنسية وهو فى سن العشرين وخوضه لعدة معارك أكدت عبقريته فى فن القيادة والتخطيط من بينها حصار ميناء «طولون» فى جنوب شرق فرنسا واسترداده من الانجليز ، وانتصاراته الرائعة فى الحملة الايطالية ، ثم قيادته للحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٩) التى كانت الضربة الأولى التى وجهتها فرنسا لمصالح بريطانيا فى الشرق ، وردت عليها بريطانيا بإرسال أمير بحارها نلسون الذى باغت الأسطول الفرنسى وهو راس ليلا فى ميناء «أبوقير» بالاسكندرية فأغرقه بينما كان نابليون يستثمر نتائج نصره الكبير فى القاهرة !

وبالطبع لم تؤثر معركة «أبوقير» البحرية على اندفاع نابليون كالسهم نحو أوربا لتبدأ الكارثة عند محاولته الهجوم على روسيا عام (١٨١٢) فقد بدأت البلاد الأوربية تتحد ضده لتحاربه كجسد واحد ، واستطاعت أن تهزمه فى عام (١٨١٣) ، تنازل بعدها عن عرشه فى عام (١٨١٤) ثم هرب من منفاه فى عام (١٨١٥) وعاود القتال مرة أخرى ، ليهزم فى معركة واترلو ، وليموت وحيدا فى منفاه فى جزيرة سانت هيلانة عام (١٨٢١) وليحاول بعض المخربين بعد مرور قرن ونصف على هذا التاريخ أن يدمروا معطياته الأثرية ، وأن يحطموا اللوحات التى روت تاريخ أهم قائد فرنسى !

احتفالات الثورة الفرنسية

ومع بداية أول يوليو عام ١٩٨٩ انطلقت البالونات فى ميدان الكونكورد أو

نفس المكان الذى وضعت فيه المقصلة التى آطاحت بمئات الرءوس ومن بينهم الملك لويس السادس عشر وزوجته مارى انطوانيت .

لم تكن تلك البالونات الا مجرد بداية للاحتفالات بمرور ٢٠٠ عام على الثورة الفرنسية التى ازدادت تألقا فى ١٤ يوليو ـ تاريخ انطلاق شرارتها ـ بخروج الشعب الفرنسى للرقص فى الشوارع والميادين مع بداية الاستعراضات العسكرية من الشانزلزيه حتى قوس النصر فى حضور ٣٢ رئيس دولة وحكومة من مختلف أنحاء العالم .

وذلك بخلاف المشاهد التى أعادت الى الأذهان أهم وقائع ثورة ١٧٨٩ ، مثل مشهد موكب الطبقات من قصر فرساى أثناء اللقاء بالملك لويس السادس عشر عندما طالبهم بالبحث عن حل للأزمة الاقتصادية الطاحنة التى تثير التذمر ، ومشاهد اعلان الجمعية الوطنية لحقوق الإنسان ، ثم المسيرة التاريخية التى قام بها أحفاد الذين اقتحموا سجن الباستيل مذكرين الدنيا كلها بالشعارات العظيمة التى أطلقها الثوار وهى الحرية والإخاء والمساواة وكانت منطلقا أساسيا للمقهورين فى كل شبر على وجه الأرض !

وقبل تلك الاحتفالات تحولت باريس الى خلية نحل ، واستعد الجميع للمشاركة فى المناسبة الهامة ، بداية من الاهتمام فى المتاجر بلعب الأطفال التى تجسد أحداث الثورة ، الى التجهيز لافتتاح أوبرا الباستيل وقوس النصر الجديد واستخدام ١٧٠ ألف صاروخ فى تقديم أكبر عرض عالمى للألعاب النارية على مقربة من برج ايفل ، والاستعانة بستة آلاف من الممثلين والراقصين من مختلف بقاع العالم وآلاف الطبول والآلات النحاسية والأفيال المدربة لإضفاء البهجة والمرح وإعطاء فخامة للحشد فى الاحتفالات التى تكلفت مليارى فرنك !

لم يطلق أهل باريس ـ أو غيرها من المدن الفرنسية ـ البخور فى تلك المناسبة الهامة ، ولكنهم وجهوا أنظار العالم الى ما ارتكبته الثورة من أخطاء كان فى مقدمتها ما فعله الطاغية روبسبير عندما ارتكب جرائمه بحجة بناء مجتمع الفضيلة ، وكانت النتيجة أن قادوه يقطر دما ليلقى نفس النهاية تحت المقصلة وبيد أقرب الرفقاء فى عام ١٧٩٣ !

لقد لفظ أهل باريس العواطف والانفعالات ، وراحوا يناقشون كل الأحداث الهامة فى الثورة من خلال رؤيتهم الخاصة !

بعضهم برأ الملك لويس من التهم التى قادته الى المقصلة ، والبعض الآخر قال : لماذا نكذب ؟! . . إن مارى انطوانيت لم تكن صاحبة عبارة «لماذا لا يأكل الشعب الجاتوه بدلا من الخبز» !

بينما وجدنا من يقول إن نزلاء الباستيل لم يكونوا من الثوار أو أصحاب الرأى !

ووجدنا ـ أيضا ـ من طالب الشعب الفرنسى باعتبار عام ١٧٩٣ هو العام الحقيقى للثورة الفرنسية ، فالأعوام الأربعة التى سبقت هذا التاريخ كانت ملوثة بدماء الإرهاب الذى صنعه زعماء أمثال روبسبير ومارا ودانتون ، وراح ضحيته ـ على المقصلة وحدها ـ ١٧ ألف مواطن فرنسى !

ورغم هذا الجدل الساخن الذى قام حول ثورة الفقراء التى احتفلوا بإلغائها لنظام الطبقات ، فقد ظلت عيون أكثر من نصف سكان الكرة الأرضية ـ العالم الثالث ـ تنتظر فى صبر قرارات مؤتمر القمة الصناعية التى عقدها زعماء أغنى سبع دول فى العالم عندما جاءوا الى باريس فى تلك المناسبة التاريخية الهامة لبحث مصالحهم أولا ثم مشاكل ديون العالم الثالث التى بلغت ١٣٠٠ مليار دولار .

ومع الأسف فقد خرجت قرارات المجتمعين دون أن تمس بصورة عملية مشكلة الديون ، رغم ان هذه القمة كان يجب أن تواجه تلك الحقيقة التى تقول إن أمن العالم واستقراره مرهونان بإيجاد نظام عالمى جديد يعطى العدل والأمان لكل سكان العالم على حد سواء ، ويحل مشاكل الجوع والجفاف والتصحر التى تعانى منها شعوب الطبقة الثالثة فى العالم !

وعل كل ، فلينس الفقراء ـ من أمثالى وأمثالك ـ تجاهل الأغنياء لطموحاتنا ورغباتنا الصادقة فى التخلص من قيد العوز والفاقة ، ولنجدد الذهن فى باريس بمتعة الرؤية والدهشة ، فلا يعقل أن تطاردنا الهموم فى مدينة البهجة والنور التى لم تعد تعرف المذاق المر لزحف التجاعيد !



نوبيون والأصل مجرى !





خلال زيارتى لبودابست عاصمة المجر ، فوجئت بمستشرق مجرى يتحدث فى التليفزيون عن قبيلة أصلها مجرى تعيش فى بلاد النوبة منذ أكثر من ٤٥٠ عاما ، بعد أن أطلقت على نفسها اسم قبيلة « المجراب » ، وقال إن كل أفراد هذه القبيلة يدينون بالإسلام ، ويمارسون نفس عادات وتقاليد أهل البلاد الأصليين !

وبالطبع حرصت على اللقاء بالمستشرق المجرى حتى أتعرف على تفاصيل أكثر عن حقيقة النوبيين الذين يمتون بصلة قرابة إلى المجريين ، كما أننى بمجرد عودتى إلى القاهرة من هذه الرحلة ، بادرت بالذهاب إلى أبناء القبيلة لألتقى معهم على الطبيعة ، وبلغ استغرابى أشده عندما رأيت معظمهم يتميزون بالملامح الدقيقة ، ولون البشرة الفاتح ، والشعر الأصفر ، والعيون الملونة ، رغم أنهم نوبيون !

وعندما قابلت هذا المستشرق المجرى واسمه ـ استفان فورود ـ عقب رؤيتى له فى التليفزيون ، اتضح لى أنه قام برحلة خاصة إلى قرى النوبيين بعد التهجير ، ليقوم بعمل دراسة علمية عن حقيقة النوبيين المجريين ، وأنه ظل يبحث عن أبناء قبيلة « المجراب » ، حتى عثر عليهم فى قرى ناصر والديوان وأبوسمبل وقته وغيرها ، فأقام معهم ما يقرب من شهرين ونصف ، ثم عاد ليؤكد فى بحثه ، أنه لابد من دراسة أوسع ، تسعى للكشف عن حضارة قبيلة المجراب التى تركوها تغرق خلفهم فى بلاد النوبة القديمة !

وقال هذا المستشرق إنه عندما بدأ يفكر فى تلك الدراسة المثيرة ، لم يكن تحت يديه من المعلومات إلا عدة مقالات فى الصحف ، وبعض البيانات التى رواها له بعض القادمين من مصر والسودان ، وفقرة هامة من كتاب « أيام السودان ومسالكه » لمؤلفه « هـ . س . جاكسون » حاكم وادى حلفا أيام الاستعمار الانجليزى .

وقد روى حاكم وادى حلفا فى الفقرة الهامة ، كيف أنه عندما غادر السودان ، كان الكونت المجرى « دى ألماشى » فى طريقه إلى مصر ، عندما سمع فى وادى حلفا بعض الناس وهم يتحدثون بلهجة قريبة من اللغة

المجرية ، وتسمر فى مكانه ، وعندما أفاق من دهشته ، طلب من مرافقيه أن يأذنوا له فى الحديث مع هؤلاء الناس ، وسألهم عن طريق مترجم : من أى مكان أنتم ؟ ، وكانت دهشته أكثر عندما قالوا له إنهم يسكنون أرضا وسط النيل يسمونها « مجر ـ آرتى » ومعناها جزيرة المجريين !

ويستطرد الحاكم الانجليزى فى روايته قائلا بالحرف الواحد : « وكان التاريخ حتى ذلك الوقت لا يعرف من أمر هؤلاء المجريين شيئا إلا فى حدود أنهم جاءوا ضمن قوات السلطان سليم الأول عندما فتح مصر فى عام ١٥١٧ ، وأنه تركهم فى جزيرة بالقرب من وادى حلفا ، وأمرهم بإقامة نقطة حراسة تحت قيادة حسن كوشى ، ومنذ ذلك الوقت ظل المجريون بعيدين عن موطنهم لمدة أربعة قرون ونصف ، احتفظوا أثناءها بالطريقة المميزة لنطق الألفاظ ، التى تدفع أى مجرى الى التوقف بمجرد سماعها فى مثل تلك المنطقة غير المتوقعة » ! .

ثم يضيف المؤلف الانجليزى قائلا : « ولم تكن طريقة نطق الكلمات هى كل ما فى الأمر ، فأغلب المجريين الذين يصادفهم الإنسان أحيانا فى وادى حلفا ، احتفظوا بعيونهم الزرقاء ، وشعرهم الأصفر ، وهذا دليل قوى على أن هؤلاء القوم يختلفون عن العرب والنوبيين الذين يعيشون بينهم » !

زواج بالجملة

كان هذا هو كل ما تحت يد المستشرق المجرى من بيانات أثناء تفكيره فى عمل دراسة حول تلك الحقيقة المثيرة ، وخاصة ـ وكما يقول بالضبط ـ أن المواطن الانجليزى أو الفرنسى أو الألمانى أو التركى عندما يصادف جماعات من مواطنيه فى أى مكان فى العالم ، فإنه لن يندهش لأن مثل تلك البلاد استعمرت مناطق متفرقة فى العالم لفترات طويلة ، أما عندما يسمع المجرى بقوم ينتمون إليه فإن الأمر يختلف ، إن مجرد سماعه أن هناك قبيلة فى النوبة تعيش على بعد أكثر من ألفى ميل من بودابست ، ويعتز أبناؤها بأصلهم المجرى ، مثل تلك المسألة قطعا فى البداية لن يصدقها بسهولة ، بل وربما اعتبرها نوعا من التهريج !

إذن نلابد من أن يرتب لبعثة إلى القاهرة ، واستطاع فعلا أن يحصل على منحة من أكاديمية العلوم المجرية ، جاء بعدها ليبحث فى دار الكتب عن أى كتاب أو مستند يشير من قريب أو بعيد إلى قبائل المجراب فى النوبة ، ولكنه لم يتوصل لأى شيء ، ولهذا لم يبق أمامه سوى أن يذهب إليهم فى عقر دارهم ، فى قرى كوم أمبو وأسوان ووادى حلفا والخرطوم ، وهناك وكما يقول : « قطعت مايزيد على ثلاثة آلاف ميل ، زرت فيها أهم جماعات المجراب ، وشعرت نحوهم بشعور ودى عميق ، إنهم مازالوا فى حالة ظمأ لتتبع أخبار وطنهم القديم ، والكثيرون منهم يحفظون لمحات من تاريخ هذا الوطن وذكريات لا يرويها إلا الذين عاشوا فى الغربة » ! .

ومن دراسته المثيرة يتضح لنا أن قبائل المجراب لا يزيد تعدادها على ألفى نسمة ، منهم حوالى ٧٠٠ يعيشون فى مصر ، والباقى فى السودان ، وأن أغلب الذين يعيشون فى كوم أمبو ووادى حلفا يقومون بفلاحة الأرض ، بينما الذين يعيشون فى أسوان يشتغلون بالتجارة . . وأن هؤلاء المجريين ينتشرون فى خمس قرى فى كوم أمبو هى عنيبة ، وأبوسمبل ، وأبريم ، وتوشكا ، وقرية « قته » التى قابل فيها أحد رجال القبيلة واسمه محمد حسن عبدالعزيز ، وروى له فى تسجيل صوتى كيف أن جدهم الكبير كان اسمه ابراهام المجرى ، ثم أطلق عليه الأهالى بعد أن استوطن بينهم اسم إبراهيم ، وأنه كان ضابطا فى قوات السلطان سليم الأول أثناء وجودها فى مصر ، وعندما عاد السلطان إلى عاصمة الخلافة العثمانية ، تمرد الجنود الذين تركهم خلفه فى الاسكندرية ، فأرسل قوة لتأديبهم ، وهرب بعضهم إلى مناطق متفرقة من أنحاء مصر ، وكان من بين الهاربين الضابط المجرى إبراهام ، الذى لم يجد مكانا أمينا يختبيء فيه غير وادى حلفا ، فاستقر به المقام هناك . . وتزوج ثلاث زوجات نوبيات ، أنجبن له ذرية لا حصر لها ، ومن نسل تلك الذرية تكونت قبيلة المجراب ، التى يعيش منها اليوم الجيل الحادى عشر !

وفى أسوان إلتقى بمجموعات أخرى من قبائل المجراب ، الذين قالوا له إن قصة قدوم أجدادهم إلى مصر تختلف عن قصة أجداد المجراب فى وادى حلفا وكوم أمبو . . وروى له شيخهم واسمه محمد عبدالله عوض ، وهو

تاجر يزيد عمره على الثمانين ، كيف أن مجراب أسوان جاءوا إلى مصر عندما كانت النمسا والمجر دولة واحدة ، وكانت تجلس فى تلك الفترة على العرش ملكة ظالمة ، تكره من كل قلبها المسلمين ، وأن أجداد المجراب كانوا من المجريين الذين اعتنقوا الإسلام بحكم وجودهم فى المناطق التى وقعت تحت الاحتلال التركى ، وعندما تم جلاء الأتراك من المجر ، ظلوا على دينهم ، فطردتهم الملكة من البلاد ، ولم يجدوا مكانا يلجئون إليه غير أسوان ، التى عاشوا فيها منذ تلك الفترة .

ويستطرد المستشرق المجرى قائلا : « وقد عثرت على شجرة عائلة محفورة على الخشب على حائط أحد البيوت بحى المجراب فى أسوان ، وهذا بالاضافة إلى أننا لو نظرنا إلى القصتين السابقتين اللتين ترويان قدوم المجريين إلى مصر والسودان ، لاتضح لنا أنه توجد مسافة زمنية بينهما ، تبلغ حوالى ٩٠ سنة ، أى أن مجراب بلاد النوبة أتوا إليها منذ حوالى ٣٠٠ سنة بينما مجراب أسوان جاءوا منذ حوالى ٢١٠ سنوات ، وعندما نتوقف عند القصة الأولى اعتمادا على المستندات التاريخية سيتضح لنا أنه منذ ٣٠٠ سنة كان الأتراك مازالوا يسيطرون على منطقة بودا وعلى مساحات شاسعة من مملكة المجر القديمة ، ولو وضعنا فى اعتبارنا تعدد الجنسيات التى كانت تحارب فى الجيش التركى ، فإنه ليس من المستبعد عليك أن تتخيل أن جنود الأورطة الذين جاءوا إلى منطقة أبريم فى بلاد النوبة كانوا من المجريين ، وأنهم إما عملوا فى الجيش التركى كمرتزقة ، أو أنهم أسروا ووجدوا أنه من الخير لهم أن يقوموا بالخدمة العسكرية فى بلاد النوبة النائية على الحياة كعبيد فى بلاد الأناضول » !

ثم يتطرق إلى القصة الثانية فيقول : « أما القصة التى تقول إنهم جاءوا إلى أسوان منذ ٢١٠ سنوات ، فهى تجعلنا نعود إلى عام ١٧٥٥ ، عندما كانت الملكة ماريا تريزا تجلس على عرش النمسا والمجر ، إذن فالتطابق التاريخى موجود ، وهذا يدفعنا إلى السؤال : كيف يمكن لقبائل المجراب فى أسوان التى تعيش على بعد ألفى ميل من بودابست أن تدرك تلك الحقائق التاريخية عن الفترة التى حكمت فيها الملكة تريزا المجر ؟ .. ألا يدل هذا على أنهم كانوا يتناقلون أخبار الأجداد من الآباء إلى الأبناء ؟ » .

إلا أنه مثل أى باحث لابد من أن يعتريه الشك ، ولابد من أن يضع أسئلة فى الاعتبار ، ولهذا نجده يتساءل : « هل يمكن أن يكونوا قد اختلقوا عليه تلك القصص ؟ . . أو أنهم قرءوها فى بعض الكتب ، أو صنعوها من خيالهم ليمدوا الباحثين بقصص مثيرة عن حياتهم ؟ » . .

ولكنه يعود فيقول : إذن لماذا يفعلون ذلك ؟ . . لا أظن . . إن احتمال هذا ضئيل جدا ، فأسباب الاختلاق هنا لا يوجد دليل واحد على ضرورتها ، كما أنها ضد التفكير والعقل ، وأيضا تتعارض تماما مع ما عرفته من حب للصدق عند النوبيين .

ويبدأ المستشرق المجرى فى ذكر عدة أدلة على انتساب قبائل المجراب :

* فكلمة مجراب نفسها مكونة من مقطعين ، المقطع الأول « مجر » والمقطع الثانى « آب » وهى كلمة نوبية معناها (آل) أى عائلة المجر ، ولايعقل أن تكون كلمة مجر فى النوبة موجودة بالمصادفة ، كما أن الأهالى ينطقون المقطع الأول من الكلمة بنفس الطريقة التى تنطق بها فى اللغة المجرية ، وهذا النطق لا يتلاءم مع النوبية أو العربية !

* قبائل المجراب فى النوبة يتذكر أفرادها جيدا كل مجرى زارهم فى خلال الأعوام المائة الماضية ، وأنهم كانوا دائما يخبرون الزوار بانحدارهم من الجنس المجرى ، فكيف عرفوا أنهم ينتمون إلى المجر بالذات ، إلا إذا كانوا قد جاءوا منها ؟

* فى أماكن عديدة تجد من يقول لك إن مجموعة من قبيلة المجراب كانت تتفاخر أيام الحرب العالمية الأولى بأصلها المجرى ، ولهذا تعرضت للعزل من قبل الانجليز ، ووضع بعضهم فى معسكرات الاعتقال ، ومع هذا لم يتنكروا لأصلهم !

* كما أن هناك مثلا سائرا فى النوبة يقول « المجراب لا يصلون فى المساجد » ، ويفسر المجراب هذا المثل بقولهم إنهم عندما جاءوا كجنود

كانوا مازالوا محتفظين بعقيدتهم الأولى فأطلق عليهم هذا المثل ، ثم دخلوا فى الدين الإسلامى ، ورغم ذلك فمازالت لديهم عادات معينة تجعل الإنسان يفكر فيها طويلا ، مثل رسمهم لما يشبه الصليب قبل كسر رغيف الخبز وهى عادة قروية متبقية عند أهالى المجر ، كما أنهم عند مولد الطفل يرسمون على جبهته صليبا رغم أنهم جميعا الآن مسلمون !

* وينتهى المستشرق المجرى إلى قوله : رغم هذا فمازال الموضوع فى حاجة إلى دراسة ، لأن له أهمية خاصة عند المجريين ، فهو يحمل رائحة من تاريخنا القومى ، رائحة مازال الكثير منها غائبا ، ونحن مع الأسف لن نستطيع أن نكشف عن حضارة المجراب وتقاليدهم المدفونة تحت الأرض من ٣٠٠ سنة ، لأن العظام راقدة فى القبور ، ولأن البعثات التى نقبت فى وادى حلفا بما فيها البعثة الاسكندنافية ما إن فتحت بعض مقابر المجراب الغريبة التشييد حتى ردمتها مرة أخرى ، لتغوص فى القاع على عمق نحو ٥٣ قدما من سطح بحيرة ناصر التى أصبحت تمنح الحياة والرفاهية للشعب المصرى .

هذا ماجاء فى دراسة المستشرق المجرى عن المجريين الذين يعيشون فى النوبة ، وقد ذهبت إليهم فى القرى الجديدة فى كوم أمبو ، وقالوا لى إنهم كانوا يعيشون قبل التهجير فى جزيرة مساحتها ٥٠ فدانا وسط النهر ، كان أهالى النوبة يطلقون عليها اسم جزيرة المجريين ، وأن أقاربهم فى وادى حلفا رفضوا أن ينزحوا إلى المناطق الجديدة فى خشم القربة ، وأصروا على أن يعيشوا فى المناطق التى دفن فيها أجدادهم ، وكل مافعلوه أن صعدوا إلى مناطق مرتفعة لم تصل إليها المياه ، ولهذا فهم الآن النوبيون الوحيدون الذين مازالوا يعيشون فى الأراضى القديمة !

وقالوا لى إن بعض الزوار الأجانب كثيرا ما يخلطون بينهم وبين أفراد قبيلة « الكوشاف » التى تنتمى إلى أصل تركى ، والتى يتميز أفرادها بالقامة الفارعة ، وأيضا بالعيون الملونة والشعر الأصفر ، إلا أنهم سرعان ما يصابون بالدهشة عندما يعرفون أننا مجريون !

وبعد أن ذكر لى شيخهم محمد حسن عبدالعزيز الأسماء التى تضم شجرة

العائلة التى ينتسب إليها ابتداء من إبراهام المجرى حتى حسين شلبى ، قال لى إنه فى عام ١٩٤١ حاول الاتصال بالسفارة المجرية هو وبقية أفراد القبيلة ، فأرسلوا خطابا يطلبون فيه حضور مندوب من السفارة لتدريبهم على اللغة المجرية ، فردت عليهم فى تلك الفترة سفارة السويد قائلة بأن سفارة المجر أغلقت أبوابها نتيجة لظروف الحرب ، وأنهم يقومون بأعمالها الآن ، ولهذا لن يستطيعوا تلبية رغبتهم فى مثل تلك الظروف !

وقال لى أيضا إنهم مازالوا يحافظون على أصلهم أثناء الزواج ، فالفتيات لا يتزوجن إلا من أبناء قبيلة المجراب ، أما الرجال فمن حقهم الزواج من بنات أى قبيلة ، وذلك حتى لا تنتهى تماما معالم انتسابهم الى المجر !

وقلت له : ولكن أليست لديك الآن رغبة فى الذهاب إلى بلاد جدك إبراهام ؟

وابتسم وهو يقول : أمنيتى أن أرى قبل أن أموت جزيرة مارجريتا وتلال بودابست المليئة بالغابات !

* يعنى ألا تريد الإقامة الدائمة هناك ؟

- بالطبع لا . . فأنا الآن نوبى . . ثم أننى تعودت على الحر . . والدنيا هناك زى ما بنسمع من الجرائد برد ومطر ودرجة حرارة تحت الصفر !

* طيب ما آخر خبر قرأته عن المجر ؟ .

- بالطبع بعد زيارة رئيس الجمهورية المجرية لمصر ، سمعت أن فرقة الرقص المجرية زارت القاهرة !

● ولماذا لم تذهب لرؤيتها ؟

- انت عارف المسافة طويلة . . وما كانش معايا حق القطر والإقامة . . والقاهرة يا ولدى عايزة تكاليف !

* ألا تحلم بالزواج من فتاة مجرية ؟ . .

واستغرق فى الضحك . . ثم قال لى مداعبا :

- يكون عندها عشرين سنة .. وتقبل شيخ فوق السبعين !

الطاغية هورتى

والأغرب من هذا أننى فوجئت بأحد أبناء قبائل المجراب وهو يحضر لى صحيفة ويقول لى : أنظر إلى رئيس جمهورية المجر .. تجد رأسه صغير الحجم مثل رأسنا تماما !

وقال لى كثير من الذين قابلتهم إنهم قابلوا المستشرق المجرى ، واستضافوه طوال فترة إقامته فى بيوتهم ، وأنهم طلبوا منه صورا وكتبا عن المجر ، فوعدهم بذلك وفوجئوا بعد سفره بمجموعة كتب باللغة العربية تصلهم بالبريد المستعجل !

وقال لى المدرس أحمد داود كنه ، وأمين حفنى عيساوى سكرتير المدرسة الابتدائية بالديوان وغيرهما ، كيف أن معظم أفراد قبيلة المجراب يحفظون تاريخ المجر تماما كما لو كانوا مجريين ، فهم يعرفون جيدا اسم الطاغية « هورتى » الذى كان ياورا سابقا للامبراطور « فرانسيس » وكيف كان هذا الطاغية يمارس أساليب التعذيب المختلفة ضد الوطنيين ، كما أنهم يعرفون الكثير عن السنوات التى عاشها الشعب المجرى وهو خاضع للإرهاب الفاشى ، واحتلال الألمان للبلاد ، ونشرهم للخراب فى كل مكان ، ثم تحرير البلاد بعد الحرب ، إنهم لا ينسون هذا التاريخ الطويل الملىء بالعذاب والمقاومة !

وبعد ... فما رأيك الآن ؟

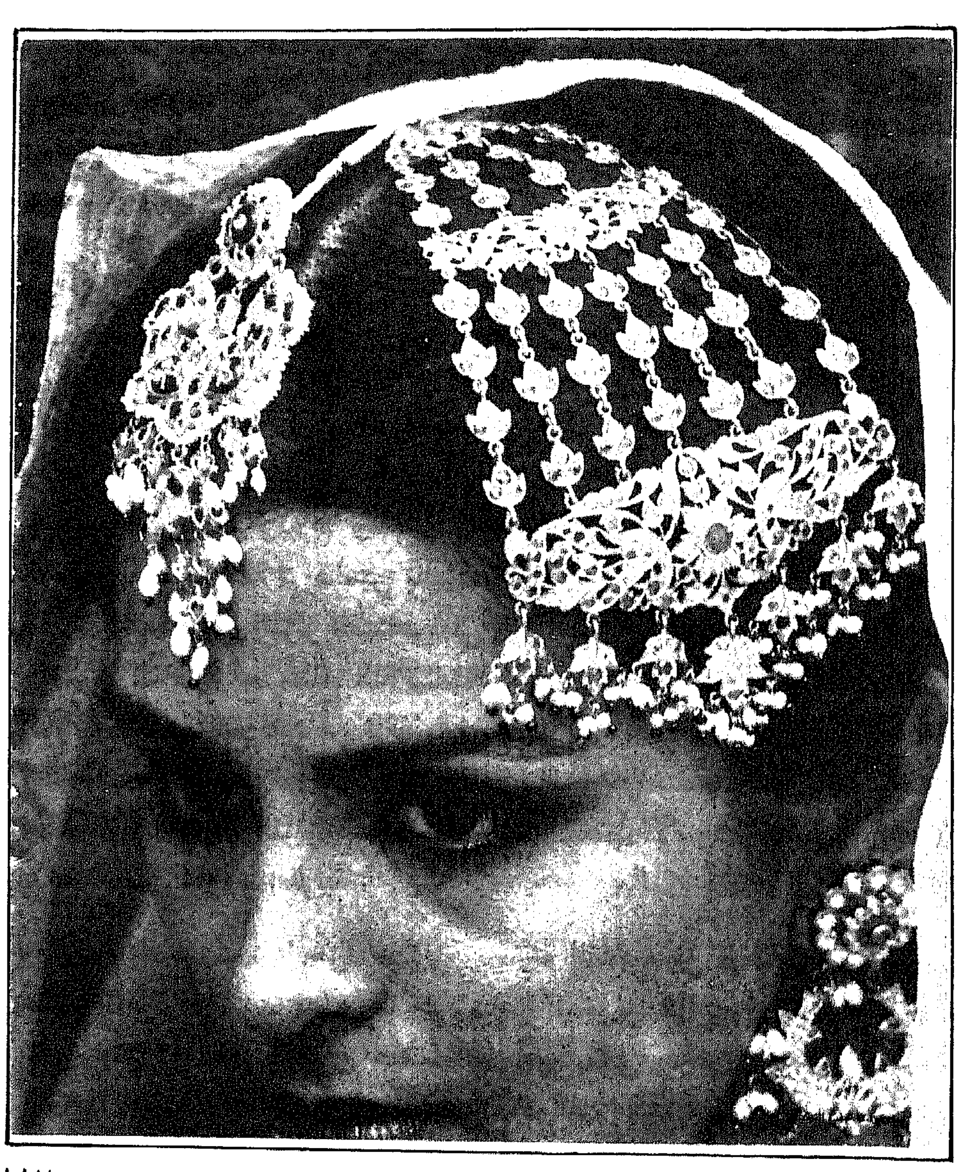
أليست فعلا مسألة مثيرة ، أن تعثر على قبيلة نوبية ينتمى أهلها إلى المجر ، وهم على بعد ألفى ميل من بودابست ؟ !





بومبـــــاى

ما بعد هزيمة اللؤلؤ الطبيعى !



كنت دائما فى بومباى أتعجب من حال الدنيا ، وأقول لمرافقى الهندى وأنا أبحث عن بقايا تجار اللؤلؤ العرب فى المدينة فلا أجدهم : سبحان الله . . لقد ظلت مدينتكم على صلة تجارية وثيقة جدا بمنطقة الخليج ، وكانت أهم مراكز تجارة اللؤلؤ فى العالم ، وعاش بها مشاهير التجار العرب الذين حققوا ثروات خيالية بمفهوم الثروة فى ذلك الوقت ، ومن أجل هذا ظل حلم الثراء فى ذهن أهل الخليج مرتبطا ـ حتى بداية القرن العشرين ـ بالوصول إلى أرضكم من خلال مينائها الكبير ، عندما كنتم تتسابقون على شراء ذلك الحجر الكريم من غواصى الخليج الذين يعرضون حياتهم للأخطار ويغوصون إلى أعماق البحر (الهير) من أجل الحصول على « دانة » أو « حصباة » راقدة فى دلال داخل المحارة الصدفة ، فى انتظار ابن الحلال الذى تكون من نصيبه فيفوز بها ويبيعها برقم فلكى قد يصل إلى آلاف الروبيات الهندية ! .

ولأن مرافقى يعلم تماما تلك الحقيقة الناصعة ، فقد هز رأسه يمينا ويسارا بالطريقة الهندية المألوفة فى الحديث وهو يقول : الدنيا يا صديقى مستديرة ، وأثناء دورانها لا تستقر على حال ، ولهذا سرعان ما تلاحقت الأحداث التى جعلت أهل بومباى وكيرالا ومختلف المدن الهندية يتدفقون ـ بدورهم ـ على الخليج بأعداد هائلة ، حالمين بالبيت المؤثث والسيارة الفارهة بعد سنوات من كارثة اكتشاف اللؤلؤ الصناعى فى عام ١٩١٢ ، وهزيمة اللؤلؤ الطبيعى بالضربة القاضية مع مطلع الثلاثينات بدخول اليابان السوق العالمية باللؤلؤ المزروع ، وما تبع ذلك من توقف مغاصات اللؤلؤ فى مياه الكويت والاحساء والقطيف والبحرين وقطر وسلطنة عمان ، واختفاء أشهر الغواصين والطواشين (تجار اللؤلؤ) مع تفجر ينابيع الذهب الأسود (النفط) وإعلان بداية عصر الثروة العربية !

وطال الحديث بيننا حول اللؤلؤ وتجارته القديمة فى بومباى ، وتذكرت عقب الحوار ما كنت قد عرفته عن شاعر البحرين الكبير إبراهيم العريض الذى ولد فى مدينة بومباى عندما كان أبوه يعمل بتجارة اللؤلؤ هناك عام ١٩٠٨ ، وكيف ظل يتعلم بها حتى أتم دراسته الثانوية بمدارسها فعاد إلى

وطنه عام ١٩٢٦ ، لينكب على دراسته العربية ويجيدها تماما كما أجاد الأوردية والفارسية والانجليزية !

وتذكرت ـ أيضا ـ ما كنت قد قرأته عن تجارة اللؤلؤ فى مدينة بومباى ، فى ذلك الكتاب الموثق الذى ألفه الباحث الكويتى سيف مرزوق الشملان ، وكان عنوانه « تاريخ الغوص على اللؤلؤ فى الكويت والخليج العربى » .

فى هذا الكتاب تحدث الباحث عن تجار اللؤلؤ فى المدينة العريقة ، فقال : إن عددهم كان كبيرا وان المشهورين منهم انتقلوا إلى رحمة الله ، ومن بينهم الشيخ قاسم بن محمد آل إبراهيم الذى تبرع بثلاثين ألف روبية لبناء المدرسة المباركية فى الكويت ، وترك خلفه ثروة طائلة بعد وفاته عام ١٩٥٦ فى بومباى عن تسعين عاما !

ولم ينس فى مجال حديثه تجار اللؤلؤ الكبار فى المدينة ـ من غير العرب ـ حيث يتضح أن معظمهم بالطبع كانوا هنودا ، وكان ألمعهم تاجرا اسمه « ڤيلمن » لا يأتى فى أى زيارة إلى البحرين إلا ويخرج منها محملا بلآلىء لايقل ثمنها عن ثلاثة ملايين روبية !

غير أن أقوى كل هؤلاء التجار على الإطلاق كانوا من بين اليهود الذين حققوا أرباحا خرافية ، ومن بينهم اليهودى الفرنسى « ڤيكتور روزنتال » الذى كان يتحدث العربية بطلاقة ويعمل ما بين بومباى والبحرين وباريس ولندن من خلال رأسمال سائل يصل إلى أربعة ملايين روبية ، ويهودى آخر يجيد العربية اسمه « ألبرت حبيب الفرنساوى » استغل فرصة تدهور تلك التجارة واشترى فى « شروة » واحدة كل اللؤلؤ الموجود عند « هلال بن فجحان المطيرى » أكبر تجار الكويت وهو يقول : « لا تحزن . . فقد هجرت النساء اقتناء اللؤلؤ وأصبحن اليوم يحرصن على اقتناء السيارة » ! .

كان تجار اللؤلؤ فى الخليج يسافرون دائما إلى بومباى فى منتصف فصل الخريف ، أى بعد انتهاء موسم الغوص بنحو شهر أو أكثر ليبيعوا ما جمعوه ، أو ليتصلوا بالدلالين العرب أو الهنود وأشهرهم « بلوباى » لتسهيل مهمتهم فى أقصر وقت ممكن ، وكان التجار الأجانب يشترون الحصيلة من تجار بومباى

العرب ليقوموا ـ وحدهم ـ باحتكار بيعها فى أسواق أوربا !

إلا أن التجار العرب تعلموا الاعتماد على أنفسهم فى إتمام صفقات تسويق اللؤلؤ فى باريس ولندن ، ولكن بعد فوات الأوان ، وبعد أن أصيبت أسواق تلك التجارة بالكساد وانحدر سعر « الجو » أى « الوزن » من اللؤلؤ من ألف روبية إلى ٥٠٠ روبية وأقل !

وإذا ما أضفنا إلى كساد السوق مدى المعاناة والتكاليف الباهظة للرحلة التى تستغرق ١٢ يوما ، لأدركنا مدى الضائقة المالية الشديدة التى كانت جاثمة على صدورهم ، كان التاجر منهم يركب الباخرة من بومباى ومعه مترجم ـ لزوم الرحلة ـ ينفق عليه طوال السفر ويعطيه أجرا معلوما ، وتمر الباخرة بميناء بورسعيد فى مصر ، ثم ميناء جنوا بإيطاليا ليأخذوا القطار إلى باريس التى كانوا يعودون منها فى أغلب الأحوال بخفى حنين ، ليتحدثوا دائما عن غرائبها ، ومن بينها سفور النساء والريل (القطار) العجيب ، ودور السينما والعمارات الشاهقة والأسواق والشوارع الفسيحة ، ويروون ـ أيضا ـ قصص الذين تبخرت ثرواتهم فى لمحة عين .

لم يكن تجار اللؤلؤ العرب إلا امتدادا لتلك الصورة القادمة من عصر النشاط العربى البحرى فى قمة تألقه ، عندما كانت السفن العربية ترسو فى ميناء بومباى الكبير قادمة من الحجاز أو اليمن أو حضرموت وعمان والبحرين .

كانت تلك السفن فى العادة كبيرة الحجم ، سطحها مكون من طابقين ، ومحملة بعروق الذهب والفضة والرصاص والزجاج والخيول العربية وأجود أصناف التمور ، إضافة إلى الأحجار الكريمة كالمرجان والطوباز وحجر الأتميد (الكحل) الذى كانت تنتظره فى لهفة نساء الهند ذوات البشرة الخمرية والعيون الواسعة السوداء .

كانت سفن الخير تحمل على متنها الركاب جنبا إلى جنب مع البضائع ومجموعة من الرماة وقاذفى النفط الملتهب المضىء فى الليل وقوارب النجاة وطيور الرؤية المدربة على الوصول إلى البر إذا ما ضلت السفينة طريقها

وسط أمواج البحر الهادرة والأفق الذى لا نهاية له !

وكانت تلك السفن ما إن تفرغ ركابها وبضائعها حتى تستعد لرحلة العودة محملة بالعاج والماس والتوابل والبخور وعطور الشرق ذات الرائحة الجذابة وأقمشة الموسلين الشهيرة وأثواب الحرير الرقيقة البديعة الألوان .

كان تجار بومباى على اتصال بحرى وطيد مع جنوب الجزيرة العربية ، ويقال إن هدايا بلقيس ملكة سبأ إلى سليمان الحكيم كانت فى معظمها من منتجاتهم ، وعندما تعرضت سفن التجار العرب للعدوان المتكرر من القراصنة الهنود طلب الحجاج بن يوسف الثقفى من محمد بن القاسم أحد قواده ، أن يتوجه على رأس جيش من ستة آلاف محارب للاستيلاء على جزء من بلاد السند والقضاء على القراصنة فى بحر العرب ، وكانت هذه الحملة المؤقتة ـ فعلا ـ بداية لدخول الإسلام إلى الهند فى القرن الثامن الميلادى ، حتى جاءت كالعاصفة موجات المغول الظالمة فى القرن السادس عشر الميلادى بقيادة تيمورلنك لتهتك وتنهب وتجمع الغنائم وترسلها إلى « سمرقند » وسط بحر ضجت أمواجه من كثرة دماء الضحايا الذين كان من بينهم ما يزيد على مائة ألف مسلم تم أسرهم وإعدامهم بطرق همجية !

الجفون المتعبة

لا أريد أن أستطرد فى سرد بقية التفاصيل المثيرة عن العلاقات والأحداث العربية على مر العصور فى بومباى ، فالمدينة تنتظرنى ، والمدن دائما كالنساء لا يطقن الهجر أو طول البعاد !

فى بومباى ـ ثانى المدن المزدحمة بالسكان بعد كلكتا ـ أتسلل وسط زحمة البشر فى شوارع مدينة تحمل فى أحشائها أكثر من تسعة ملايين نسمة ، وتضم خليطا متناقضا من شتى العرقيات والأديان فى الهند ، منهم من حقق طموحاته فى الثراء وأصبح يلعب بالمال فى عالم التجارة والبنوك والصناعة والسياحة والفن ، ومنهم من لا يملك إلا خيمة بالية تقف صامدة فى احدى الطرقات الجانبية وكأنهاتندب حظ سكانها العاثر ، بينما هناك من لم يسعفه الحظ حتى بتلك الخيمة فراح يبحث عن مأوى ـ أى مأوى ـ فى الشارع يسمح

له بمجرد الاستغراق فى النوم ونسيان عذاب يوم حافل بالإرهاق ! .

الحياة هنا لا تعرف الوسط ، فإما أن تصل إلى القمة أو تنحدر إلى الحضيض ، وهذا ما تترجمه بصورة صارخة مناطق تضم ناطحات السحاب وأجمل المبانى العصرية ، وأخرى تطل بيوتها القديمة وأكواخها المتراصة فى حيز ضيق بانكسار وكأنها ترثى حـــال سكانها الذين تدفقوا من كل ولايات الهند حالمين بالمشاركة فى ثروات المدينة الباهرة ، التى تضم مراكز الصناعات الهامة ، وتقبع فى إحدى ضواحيها قلعة للصناعة الذرية محاطة بجنات شاسعة من البساتين والغابات الخضراء ، ويعيش فى قلبها أشهر نجوم السينما الهندية الذين صدروا فى أفلامهم « برشامة » الصبر والمعجزات والعواطف الخيالية إلى سكان العالم الثالث ليظل الحلم متنفسا للفقراء طوال حياتهم المضنية !

ووسط كل ما تراه أمامك فى تلك المدينة أو شبه الجزيرة ذات المساحة المحدودة فإن روح الهند فيها تبقى ، لا لشىء إلا لأنها مثل كل بقاع الهند الشاسعة ـ كما قال نهرو ـ وإن كانت جفونها متعبة بعض الشىء ، فإن فيها جمالا ينبع من أعماقها ، ويتجلى فى كل خلية من خلايا أفكارها الغريبة وهواجسها الخيالية وآلامها الحادة ، ولهذا مازال فى استطاعة المرء أن يلمح جلال الروح داخل وخلف جسدها المهشم !

وجه المدينة

كرنفال الأزياء فى المدينة بألوانه الصارخة يشدك منذ اللحظة الأولى !

حسناء تعقص شعرها إما وراء الأكتاف أو على الكتف اليمنى ، وتتزين بالأساور والأقراط الذهبية أو الفضية أو « الفالصو » ، وتضع فى شعرها الورد والأزهار ، وترتدى قميصا قصيرا زاهى الألوان يغطى النصف الأعلى ، بينما يزيد من رشاقتها وجمالها ذلك السارى ذو النقوش البديعة الذى تلفه حول نصفها الأسفل تاركة الخصر عاريا للهواء الطلق !

وهذه حسناء أخرى هجرت ذلك الثوب التقليدى الجميل وجرت تلهث وراء بيوت الأزياء الغربية ، لترتدى ثوبا تنطبق عليه كل مواصفات شانيل

وايف سان لوران ، ولم تترك فى مظهرها أى أثر للقديم إلا تلك النقطة المستديرة الحمراء على جبينها ، والتى تؤكد بها أنها على ذمة رجل ، أى متزوجة !

وإذا كان بعض الرجال قد فضلوا ارتداء البدلة الأفرنجية التى تتدرج من قمة الموضة وأغلاها ، إلى أقدمها وأرخصها حتى لو كانت من عصر « رودلف فالنتينو » فإن الغالبية مازالت تتمسك بالزى الوطنى الذى يتدلى فيه القميص الأبيض خارج سروال يلتف حول الساق بينما على الرأس طاقية بيضاء وأحيانا سوداء .

وهذا بالطبع بخلاف طائفة السيخ الذين يضعون على الرأس عمامة كبيرة ذات ألوان زاهية براقة يغطون بها ضفائرهم الطويلة ، مع الاحتفاظ فى مظهرهم بخمسة أشياء ممنوع الاقتراب منها مدى الحياة : الشعر الطويل ، المشط ، السيف الصغير ، السوار المعدنى فى المعصم ، السروال التحتى القصير ، ويسميهم الهندوس « حقائب الكراهية » لأن طائفتهم المتماسكة القوية أصبحت بمثابة قنبلة موقوتة فى جسد الهند ، فقد استباحوا دم أنديرا غاندى فى قمة تألقها السياسى ، وقتلها رجل منهم بحجة أنها لوثت معبدهم الذهبى ! .

إلى جوار خليط الأزياء فى عاصمة ولاية « مهارشترا » ، سترى أفخم السيارات وأحدثها تسير جنبا إلى جنب فى بعض الأحياء مع الدراجات و« التريسكل » أو عربات « الريكشا » ذات الثلاث عجلات وعربات « التونجا » التى تجرها الثيران !

وعندما انتقل الى بوابة الهند اجدها تقف شامخة لتطل على الميناء الرائع الذى يعتبر واحدا من اكبر الموانىء، وكأنها ترحب بقدومك للمدينة ، وهى بطرازيها الإسلامى والهندى رمز من الرموز الباقية فى شبه جزيرة بومباى من أيام الاستعمار البريطانى ، فهى شاهد على ذلك الحدث الهام الذى بنيت من أجله فى عام ١٩١١ ، عندما كانت من أهم مظاهر الحفاوة التى أعدتها قوات الاحتلال لاستقبال الملك جورج الخامس فى أول زيارة للمدينة مع زوجته الملكة مارى والحاشية ، وكانت تلك الزيارة بعد توليه الحكم بعام واحد

ورغبته العارمة فى رؤية حدود الامبراطورية الشاسعة الأرجاء وتفقد أحوالها .

وهى تذكرك بأعجب أفعال الاستعمار فى الهند ، عندما وصل استخفافه بالشعوب إلى حد التنازل عن مدينة بسكانها من طرف لطرف آخر وكأنها ضمن ممتلكاته الشخصية ، فشبه جزيرة بومباى أو بوابة الهند الغربية كانت فى القرن السابع عشر فى قبضة ملك البرتغال « جون الرابع » وكانت ابنته العروس « كاترين » تستعد للزواج من ملك انجلترا شارل الثانى ، وفى مثل هذا النوع من الزواج الرفيع المستوى لابد من أن يكون المهر لائقا بالمقام ، ولهذا تنازل الأب لعريسها عن بومباى مع جزيرة طنجة المغربية ، واعتبر الهدية جزءا من مهر الحسناء الغالية التى لم تهنأ بنعمة الحياة الزوجية المستقرة ، فزوجها محترف خيانات زوجية ومغرم بإقامة العلاقات مع صنوف مختلفة من النساء ، وكادت تنتهى حياتها بالذهاب إلى المقصلة بتهمة دس السم لزوجها ، لولا أن عفا عنها الملك شخصيا وقام بحمايتها !

ولم تكن تلك أعجب القصص ، فقد اتخذتها شركة الهند الشرقية البريطانية (١٦٠٠ ـ ١٨٥٨) مقرا رئيسيا لشبه القارة الهندية بأكملها ، مقابل ايجار سنوى زهيد هو عشرة جنيهات ذهبية ، واستطاعت هذه الشركة بفضل المساندة القوية للحكومة البريطانية أن تنهب ثروات الهند ، وتستولى على خيراتها بأسعار متهاودة جدا ، محققة أرباحا فاحشة عند بيعها فى الأسواق الأوربية ، ولم يتقلص دور تلك الشركة التى كانت تسيطر تماما على الهند ، إلا بعد ثورة طائفة السيخ فى عام ١٨٥٧ والتى تمخضت عن ظهور المستفيد على المسرح بوجهه السافر ، فقد تم وضع الهند تحت التاج البريطانى ، لتصبح منذ ذلك التاريخ ألمع جوهرة فى هذا التاج ، فقد حدد ـ بالضبط ـ أهميتها ونستون تشرشل عام ١٩٣٩ بمقولته الشهيرة : « إن اثنين من كل عشرة من الانجليز يعتمدان فى حياتهما على خيرات الهند » .

ولكن هل بوابة الهند فى بومباى هى وحدها التى تذكرك بالمجد الغابر للامبراطورية التى كانت لا يغيب عنها الشمس ؟

بالطبع لا . . فعلى مقربة منها يربض متحف أمير ويلز بطرازيه الإسلامى والهندى الرائع ، وقد اجتمعت بداخله ذخيرة الفنين الهندى والمغولى

ومجموعة نادرة من الأحجار الكريمة ونماذج من التاريخ الطبيعى .

وعلاوة على انتشار اللغة الانجليزية وثقافتها بشكل ملحوظ ، فإن بومباى - بحق - هى قلب المسرح الهندى الناطق بالانجليزية ، وهى المدينة التى تتناثر فى كل مكان بها بنايات تطل عليك بفنها القوطى وأبراجها وقبابها المرتبطة بالعصر الفيكتورى ، والتى ترى نماذجها بصورة واضحة فى طريق « عقد الملكة » على طول « مارين درايف » .

بوتقة الأفكار

فى بومباى تكتشف أنك مطالب بالتعامل مع هذا الخليط الفريد الذى جاء من كل بقاع شبه الجزيرة الهندية التى يتحدث سكانها ١٤ لغة وأكثر من ألف لهجة ، أهمها على الاطلاق : الهندوستانية ، الأوردية ، التاميلية ، البنغالية ، تلوجو ، ماراتى ، كشمير ، جوجاراتى .

ولكن لحسن الحظ فإن غالبية السكان يتحدثون الهندوستانية التى أصبحت لغة البلاد الرسمية بعد الاستقلال ، كما أنهم يتكلمون الانجليزية مع اللغة أو اللهجة الهندية للأم التى يتأثر بها الطفل منذ صغره .

ورغم تعدد اللغات واللهجات ، ووجود غالبية ديانات العالم فى المدينة بما فى ذلك المسلمون والمسيحيون واليهود ، واختلاف ملامح الناس بين بيض وصفر وسود نتيجة تلاقى الأجناس المختلفة التى تصادمت على مر العصور ، فإن الثقافة الهندية لم تضع نفسها بمعزل عن كل الأفكار القادمة ، بل أخذت منها بقدر وحساب ، ولعل هذا الاتجاه إلى فتح نوافذ الفكر بدون حساسيات هو الذى جعل العقيدة الهندوكية بكل ما اقتبسته من أفكار تقيم هذا الرباط القوى الذى يلتف حوله غالبية السكان !

العقيدة الهندوكية - باختصار - مجرد شعائر وتقاليد نمت على مر العصور ، فهى لم تعرف الرسل ، ولم تتعامل مع أى كتاب سماوى ، ودعائمها تقوم فى الأساس على فكرة تناسخ الروح واختيار الانسان الحر لمنهجه فى الحياة وطريقته فى العبادة ، وأعلى طبقات تلك العقيدة هم البراهمة الذين لا يستطيع غيرهم إقامة أو حفظ الشعائر الدينية التى بلورها

لهم الجد الأكبر « براهما » ومعه بقية الثالوث المقدس (فيشنو - شيفا) ، والتى هى مزيج غامض ومعقد يجمع بين روح التسامح الجماعى ، وتطهير الروح بتحرير النفس من قيود المادة ، والاهتمام بقوى الطبيعة ، مع تضخيم الأبطال وربطهم بالخرافات وقصص المعجزات الخارقة التى تقدمهم للبسطاء والحالمين بحياة أفضل فى مكانة مقدسة عالية !

كانت الفكرة السائدة عند الهندوس هى قبولهم لنظام الطبقات ، الذى تجىء فى أدنى تقسيماته طبقة المنبوذين ، وكل طبقة لا يجوز لها الزواج من الطبقة الأخرى ، والطبقات الدنيا لا يجوز لها أن تتولى المناصب الحساسة ، غير أن هذا النظام ألغى بقانون بعد قيام جمهورية الهند فى ٢٦ يناير ١٩٥٠ .

ويتخذ البراهمة من مدينة « بنارس » الواقعة على نهر « الجانج الأم » مركزا رئيسيا للتعاليم الهندوكية .

والنهر بطوله الذى يصل إلى ٢٥٠٠ كيلومتر ، يفيض بمحاذاة المدن والقرى الواقعة فى شرق جبال الهيملايا (أعلى جبال العالم) ليصل إلى خليج البنغال ، وهو نهر مقدس ، ولهذا تعيش فى منطقته كثافة سكانية هائلة لفلاحة الأرض الخصبة الواقعة على شاطئيه ، والاغتسال فى مياهه ، والحلم بتلك النهاية التراجيدية عندما تحرق أجسادهم ويلقى رمادها إلى مياهه فتتطهر من الآثام والذنوب ! .

والحقيقة أن معابد الهندوس لا يدخلها الناس للصلاة ، ولكنها مجرد مكان للدعاء والابتهال ، وهى - فى حد ذاتها - بنايات جميلة زاخرة بالنقوش والأعمدة والتماثيل والنحت البارز لقصص أبطال الأساطير والمناظر المتعددة .

وكل الهندوس - بلا استثناء - يقدسون البقرة ، فلا يذبحونها أو يأكلونها حتى فى أقسى سنوات الفيضانات والجفاف ، ولا ينتفعون منها إلا باللبن والروث ، ويقال إن بعض البسطاء منهم مازالوا يعتقدون فى قدرة بول البقرة على شفاء الأمراض !

وليست البقرة وحدها هى المقدسة ، فالقرد فى بعض المناطق ، وكذلك

الثعبان الذى يقتل مئات الألوف من الفقراء الهنود سنويا !

ورغم شهرة الطعام الهندى وامتلائه بالكارى وخلطة الفلفل والشطة الساخنة التى تلهب الفم ، فإنك لا تستطيع أن تجمع كل الهندوس على مائدة واحدة ، فقواعدهم فى التغذية معقدة جدا وتختلف من طائفة إلى أخرى ، منهم من يلتهم بمتعة بالغة لحوم الضأن والدواجن ، ومنهم من يرفض تلك الأطباق الشهية ويكتفى من اللحوم بالأسماك ، ومنهم من يضع طبق السمك - هو الآخر - فى القائمة الغذائية السوداء ويكتفى بأكل البيض فقط ، ولكن حتى البيض تجد من بينهم من يخاصمه بحجة أن به جنين الكتكوت !

ولأنهم فى حياتهم يربطون بين النفس الآدمية والروح الأبدية ، فقد اتجه بعض البسطاء منهم إلى السحرة لمساعدتهم فى حل بعض العوائق التى تقف فى طريقهم ، وتعلقوا بالتنجيم والطالع لدرجة أن المنجمين لو قالوا للعريس لا تتزوج من فلانة لأن برجها لا ينسجم مع برجك فإنه ينفذ أوامرهم ويتراجع فورا عن الزيجة ، وهذا إضافة إلى أنهم لا يسمحون للغرباء بالدخول إلى عقيدتهم لأن الهندوكى - فى رأيهم - بمولده وليس بمعتقداته !

وحتى بداية هذا القرن كانت المرأة الهندوكية تجبر على إلقاء نفسها فى النار وهى فى كامل زينتها بعد حرق جثة زوجها المتوفى ، لأنها لو عاشت من بعده ستصبح منبوذة ، غير أن تلك العادة البالغة القسوة والمسماة « بالسوتى » تم تحريمها بقانون .

اصطدام العقائد

وقد اصطدمت الهندوكية فى رحلتها الطويلة أول ما اصطدمت بحركتين منذ ٢٦ قرنا ، كانت كل منهما موجهة فى المقام الأول ضد سيطرة البراهمة ، وهما الجينية والبوذية .

والعقيدة « الجينية » قادها فى القرن السادس قبل الميلاد أمير هندى اسمه « مهافيرا » لم تبهره سطوة وبريق الحكم ، فهرب مع أتباعه إلى حياة الزهد وممارسة التأملات الروحية ، وأدار مع جماعته ظهورهم لمتع الحياة إلى حد المغالاة التى دفعت بعضهم إلى السير فى قرى الهند كما ولدتهم أمهاتهم إلا فيما يستر عوراتهم !

وكان هؤلاء الزهاد المغرقون فى احتراف الخير بين الناس والمنادون بالبساطة والطهارة يعترفون بداية بأنهم هندوك ، ثم يهاجمون بشدة فكرة تعدد الآلهة فى الديانة الهندوكية ، ويرجمون كتبها القديمة بالحجارة ، ويعلنون محاربتهم بكل قوة لنظام الطبقات الذى يستغله البراهمة لاستمرار سلطانهم بلا حدود ، وراحوا يطالبون بحماية كل الكائنات بما فى ذلك الحشرات والميكروبات ، فهم يطالبون بالحفاظ على كل شىء فيه روح ، وبعضهم يرتدى قناعا حول فمه ليمنع قتل الميكروبات عند التنفس ، كما أنهم لا يشعلون النيران ليلا حتى لا تجذب الفراشات والحشرات فتحرقها ، ولا يخوضون فى المياه حتى لا يقتلوا كائناتها الدقيقة ، وهجروا الزراعة حتى لا يرتكبوا إثم قتل ديدان وحشرات الأرض ، ولأنهم لم يصطدموا مع تعاليم الهندوكية ككل ، فقد تجنبوا بذلك خطر المواجهة ، وظلوا حتى اليوم متماسكين مترابطين فى مأمن ، واتجهوا للعمل بالتجارة ليصير منهم رغم قلة عددهم أكبر أثرياء الهند !

أما الحركة الثانية فهى العقيدة البوذية التى نشأت بعد سنوات قليلة من ظهور الجينية وفى نفس القرن على يد أمير زاهد اسمه « تشاكيا مونى » ، الذى غادر قصر أبيه على حصان أبيض وهو فى سن التاسعة والعشرين ، تاركا خلفه زوجته الجميلة وابنه الرضيع ، وبدأ رحلة قاسية وسط الغابات والطبيعة الخلابة من أجل الوصول إلى حقيقة الحياة ، وبعد سنوات من الزهد والتقشف وجد الإجابة ، فأخذ يبشر بتعاليمه وأصبح له أتباع يطلقون عليه لقب « بوذا » أى المستنير أو المتيقظ أو الملهم !

كانت تعليمات بوذا لأتباعه تتلخص فى خمسة ممنوعات : القتل والسرقة والكذب والزنا والخمر .

وأضاف على تلك الممنوعات خمس وصايا أخرى لرهبانه الذين يحلقون شعورهم ويلتحفون بازار أصفر : الطعام لمرة واحدة فى اليوم ، البعد عن الانغماس فى الملذات الدنيوية ، عدم استخدام الزينة ، الامتناع عن النوم على فراش وثير أو قبول الهدايا النقدية ، مقاطعة تجارة الأسلحة والقوافل والرقيق ومهنة الجزارة وفلاحة الأرض !

وهاجم بشدة نظام الطبقات والطقوس والشعائر الهندوكية ، مطالبا بضرورة التخلص من الخرافات والأوهام والضلالات ، وأن يلجأ الإنسان إلى بذل الجهد العقلى والأخلاقى ونبذ التخمينات والتصورات ، فالحياة رحلة قصيرة مؤلمة ، علينا أن نتجنب شرورها بالتدريج عن طريق هجران الرغبات والشهوات الجامحة التى تخلق فى أعماقنا الذاتية أو الأنا ، وقال لأتباعه أنهم يستطيعون الوصول إلى « النرفانا » أو السعادة الحقيقية باجتياز العقبات القاتلة للروح ، وترك مسرات الحياة والغرائز الجسدية .

وخاض بوذا حربا بلا هوادة ضد الطبقات مطالبا بالمساواة بين كل الناس ، وكان يدعم دعوته هذه بمشاركة المنبوذين فى طعامهم ، إلا أن الأسطورة التى تروى قصة حياته تنهى تلك المشاركة بخاتمة مأساوية ، فقد مات بينهم على إثر تناوله معهم لطعام ملوث !

وقد انتشرت البوذية من بعده فى معظم ربوع الهند ، وكادت تزلزل الهندوكية وتقضى عليها ، لولا أن تنبه البراهمة ، فأخذوا منها العديد من الأفكار وخاصة ما يتعلق بتطهير النفس والاهتمام بالتأمل والتركيز الباطنى لتنمية الملكات الروحية وحب الخير وتحريم قتل الحيوان وعدم العنف ، ثم راحوا يطاردونها فى كل مكان بقسوة بالغة ، فحطموا معابدها فى كل أنحاء الهند ، وطاردوا أتباعها ، حتى خرجت تماما فى القرن الحادى عشر لتنتشر فى مناطق أخرى فى آسيا كالصين - قبل نظامها الشيوعى - واليابان وكوريا وكمبوديا وسيام (تايلاند) وسيلان (سرى لانكا) وأصبح تعداد البوذيين فى الهند اليوم لا يتجاوز بضعة ملايين .

وإذا كانت الهندوكية فى رحلتها الطويلة قد اصطدمت بالبوذية وقضت عليها ، فإنها لم تستطع أن تقضى على عقيدة « السيخ » التى هى خليط من تعاليم الإسلام والتعاليم الهندوكية ، لأنهم متماسكون وأقوياء ويعود إليهم الفضل - كمحاربين - فى مقاومة فتح المغول لشمال الهند .

وقد جاء بتلك العقيدة مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر هندوكى اسمه « جورى ناناك » ثار على الهندوكية والبراهمة ، ودعا إلى التوحيد والمساواة وتحريم الخمر والتدخين ونبذ نظام الطبقات وعبادة

الأوثان ، وطالب أتباعه بعدم قص شعورهم مدى الحياة والشرب جماعة من إناء واحد ، وأن يحتفظوا بطهارتهم وسط دنس العالم !

ووضع لأتباعه كتابا مقدسا ، مازالوا يحفظونه فى معبدهم الذهبى المرصع بالجواهر النفيسة فى « أمرتسار » الواقعة بالقسم الشرقى من البنجاب الهندية !

ويصل تعدادهم اليوم فى الهند إلى حوالى عشرين مليون نسمة ، وتقول الأساطير إن معبدهم الذهبى مقام وسط بركة من المياه تتحول فيها الغربان الى بجعات بيضاء ، وأن مياه تلك البرك ذات الرائحة العطرة تشفى الأمراض !

ولا يبقى بعد ذلك من العقائد البارزة فى الهند ، والتى ترى خليطا من أتباعها فى بومباى ، غير طائفة البهرة التى تعتنق المذهب الإسماعيلى الشيعى ، وجماعة « البارسى » التى ترى أول أثر لهم وأنت تقطع ٣٠ كيلومترا من المطار الدولى إلى وسط المدينة ، حيث ترى فى الطريق حديقة كبيرة عالية الأسوار يشير إليها السائق وهو يقول : إنها أبراج الموت !

وتتصور فى البداية أن فى الأمر خطأ ما أو أنك أسأت الفهم ، فلا يعقل أن تكون تلك الحديقة الغناء مرتبطة بالفناء والموت فتسأل فى دهشة : هل قلت أبراج الموت . . لماذا ؟ ! .

وعندئذ ستعرف أن أصحاب تلك الحديقة من أتباع مذهب « زرادشت » ويطلقون عليهم اسم المجوس ، وكانوا قد هاجروا من فارس (إيران) فى القرنين السابع والثامن الميلادى إلى الساحل الغربى من الهند ، وسمح لهم أمير بومباى بالإقامة والعمل فى التجارة والصناعة ليصبح من بينهم اليوم أشهر ملاك المصانع وخبراء الاقتصاد والسياحة !

وقد تأثر البارسيون بالعقيدة الهندوكية ولم يقطعوا « الحبل السرى » معها ، ولكنهم احتفظوا بطقوسهم الغريبة ، فأقاموا معابد للأحياء بداخلها فجوات عديدة يضعون بها قناديل من نار عالية اللهب ، ولكنهم لم يتخذوا من النار معبودا ـ كما يتصور البعض ـ بل جعلوها رمزا وشعارا لعقيدتهم التى تنادى بمعارضة الخير للشر والنور للظلام ، ووجوب القتال إلى صف الخير

ضد الشر حتى لا ينجح الأشرار فى تلويث الأرض والنار والماء ، وتعاليمهم تلعن الشياطين وتمجد الملائكة وتنادى بالعدل والعناية بالحيوانات النافعة ، وهم لا يتقيدون بطعام معين ، ولا يميزون بين الطبقات ، ويعملون فى التجارة ، ورغم أن تعدادهم لم يتجاوز ٢٠٠ ألف نسمة ، فهم يعتبرون من أقوى الطوائف المؤثرة فى المجتمع الهندى !

أما حكايتهم مع تلك الحديقة الغناء ، فهى تضم أبراج موت عالية مستديرة ، أقاموها لموتاهم وأطلقوا عليها اسم « أبراج الصمت » ، ووضعوا فوقها الأجساد الميتة التى لا يجوز دفنها فى الأرض أو حرقها مثل الهندوك ، لتتولى أمرها النسور المدربة التى تنهش تلك الأجساد ولا تترك منها غير العظام ، وعندئذ يصبح الموتى مطهرين ، فيلقون عظامهم فى بئر كبيرة وسط الحديقة !

اللؤلؤ الحقيقى

وكلما تعمقت فى قلب المدينة ، التى تعتبر أهم مركز اقتصادى على البحر العربى ، وجدت نفسك وسط منابع لاتجف من الثقافة والفن والتسلية ، فهى عاصمة الفن والموضة والمسرح والغناء والرقص ، وهى هوليود الهند السينمائية التى تنتج ٩٠٪ من الأفلام الهندية ، وهى مركز لأهم البنوك والمطابع ، بها أكثر من ٥ آلاف مصنع ، وستاد رياضى يسع ٣٥ ألف نسمة ، والفرجة على أسواقها عجب وخاصة سوق « جور » الرائع .

ومن ينابيع « فلورا » وتل « مالبار » بسكانه الأثرياء وشارع « فورش » الغارق فى الخطايا ، إلى أحدث الفنادق العالمية وأقدمها كفندق تاج محل التحفة المعمارية التى ارتفعت فى عام ١٩٠٣ من ٢٥ طابقا لتقف شامخة على مقربة من بوابة الهند وأمامها مرسى بديع لتأجير القوارب لرحلة عبر الخليج إلى جزيرة الأفيال التى تضم أربعة معابد هندوكية شهيرة .

وهناك معابد « اليفانتا » التى تصعد إليها عبر درجات ترتفع ٧٠ مترا فتجد كهوفا محفورة داخل صخور الجبل كانت بالأمس مكرسة للعقيدة الهندوكية ، وعندما دنسها البرتغاليون وحطموا تماثيلها الذهبية واستولوا عليها أصبحت

مجرد مزار سياحى لا علاقة له بطقوس البراهمة !

وبالمدينة أحلى شواطىء الدنيا وأجملها التى لا يعكرها سوى سقوط الأمطار الغزيرة فى أغلب السنوات من يونيه إلى سبتمبر !

والاختلاف مازال حول حقيقة أصل اسمها ، فبينما يؤكد لك البعض أنه مقتبس من اسم آلهة الصيد « ممبا » فى العقيدة الهندوكية ، ومعبدها قابع فى جنوب شرقى بومباى ، تجد من ينفى ذلك بشدة ويؤكد أن مصدر اسمها يرجع إلى كلمة « بومباهيا » البرتغالية ومعناها المرسى الواسع .

أما قصة المدينة مع الزمن ، فيقال إنها كانت مأهولة منذ العصر الحجرى بقبيلة من صيادى الأسماك يطلق عليهم اسم « كوليز » وأن المسلمين وصلوا إليها فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم جاء البرتغاليون بعد قرن واحد من رحلة الملاح البرتغالى الشهير « فاسكودى جاما » حول أفريقيا والتى استطاع خلالها أن يصبح أول أوربى يصل الهند بالبحر ويلفت الأنظار إلى ثروات الشرق الهائلة ، ثم أصبحت جزءا من ممتلكات الامبراطورية البريطانية فى القرن السابع عشر ، وأخذت تنمو فى القرن الثامن عشر إلى أن ازدهرت بشكل ملحوظ بعد فتح قناة السويس عام ١٨٦٩ واختصار طريق أوربا إلى الهند .

ولم تكن بومباى حتى عام ١٩٦٠ مجرد مدينة ولكنها كانت احدى الولايات الهامة فى الهند ، ثم قسمت إلى ولايتين ، ولاية ماهاراشترا التى أصبحت عاصمتها ، وولاية جوجارات .

وهى فى النهاية ـ مثل غيرها من مدن الهند ـ يمكنك أن تعيش فى أزقتها الخلفية مع « الرامايانا » و« المهابهاراتا » و« البورانا » وغيرها من اللآلىء الطبيعية الحقيقية ، أو ملاحم الأساطير التى تغلغلت فى أعماق إنسان هذا المكان ، وأصبح أبطالها نماذج حية للخير والشر ، للفضائل والرذائل ، للجشع والقناعة ، للظلم والعدل ، وأصبح عشاقها الذين يذرفون الدموع عند سماعها ، هم هؤلاء الذين أضناهم التعلق بالمثل العليا فى زحمة الحياة !

مغامرة

لصيد النعام والغزلان

في جبال علبة !



ليست هناك جنة على الأرض أروع من الجنة التى رأيتها فى وديان جبال علبة ، فالغزلان والنعام التى ترعى فى الوديان وتشرب من قطرات الندى المتساقطة فوق أشجار « السنط » ، و« اليرابيع » التى تقفز قفزات ضاحكة « كالكانجارو » وهى تحاول الهروب منا إلى جحورها الرطبة فى باطن الأرض ، وطيور الشتاء المهاجرة من أوربا إلى مصر بحثا عن الشمس والدفء ، وضبع البحر الأحمر الذى سموه بهذا الاسم ظلما وعدوانا رغم أنه من آكلى الحشرات . . والثعالب . . والاستاكوزا . . كل هذا . . جعلنى أعيش فى جنة حقيقية ، لا ينقصها سوى « بنات الحور » !

من أين أبدأ ؟ . .

هل أبدأ بفيلسوف الرحلة الذى كان يقول لنا دائما كلما حل بنا التعب : « الدنيا فَرنْدَجَسْ ، والزمن دُفْيسْ ، اللى عَنْدُه ، واللى ما عَنْدُه بِيحْلِبُوا فى تِيسْ » ؟ ! . . أو بمنشد الصحراء ، الذى وصف حبيبته بصفات لم أسمع مثيلا لها فى كل أغانينا الشعبية ، فهى : « سيقانها مدرجة . . ويداها من فضة . . وأردافها من ذهب . . وبين نهديها وصرتها حرير » ؟ ! . . أو أبدأ برهبان الصحراء الحقيقيين ، أصحاب الوجوه الكادحة ، التى ينزف عرقها فى باطن الجبل لتفتيت الصخور والمعادن ، التى لولاها لما كانت هناك مدنية ، كتلك المدنية التى ننعم فيها بالكهرباء والتليفزيون والسيارات والثلاجات وغيرها ؟ ! . . . أو . . آخذك إلى القبائل التى تسكن وديان جبال علبة لتقضى مثلنا ، أياما رائعة ، فترحل مع قوافلهم بحثا عن الماء ، وترقص رقصتهم الساخنة « هوسيب » ، وتشرب أكواب « الجبنة » الشبيهة بالقهوة الفرنساوى ، لولا لسعة القرنفل المخلوط بكثرة مع البن ؟ ! . . أو أروى لك حقيقة قصة الشيخ « كوكا » الذى تنتظر قبائل البشارية ظهوره من أحد الكهوف الموجودة فوق هذا الجبل المقدس ؟ ! . . أم أثير أمامك قضية تاريخية هامة يؤكد أصحابها أن الحياة نبتت عند سفح تلك الجبال ، وأن البذرة التى عمرت كل افريقيا ، نزحت من وديان جبال علبة التى يحيطها الضباب طوال أيام الفصول الأربعة ؟ !

بصراحة . . أنا محتار . . من أين أبدأ ؟ . . ولهذا سأتبع الطريقة التقليدية

وآخذك إلى تلك الرحلة المثيرة ، لتجتاز معى السهول الصحراوية الصعبة ، التى صورت لى ضربة الشمس أثناء اجتيازها أننى واحد من المكتشفين العظام أمثال : ماجيلان ، وماركوبولو ، وابن بطوطة ، وكريستوفر كولمبس ، واندسن ، وسكوت ، ولم ينقذنى من ورطة هذا التخيل الغريب سوى صرخات السائقين التى بدأت بعدها عجلات سياراتهم تندفع فى قوة خلف قافلة من الغزلان ، نسيت أثناءها نفسى ، ومزقت الحقيقة كل ما علىَّ من ملابس راقية ، فعشت بكل حواسى مع التجربة الجديدة ، وتخضبت يداى بالدماء التى جعلتنى أحس بقسوة الإنسان وجبروته على الحيوان والطبيعة !

دموع الغزال !

لقد جرت بنا سيارات الجيب فى أعنف وأقسى مطاردة . .

كان عليها أن تلحق بالغزلان الأربعة التى تجرى بسرعة ٦٠ كيلومترا فى الساعة ، وكانت الغزلان بلونها الأشقر الدخانى تقضى أثناء جريانها معظم وقتها فى الهواء ، فهى تجرى كالمذعورة بسرعة قوية تكسبها طولا على طول !

وكلما زادت حدة المطاردة ، زاد إصرار السائقين على اصطيادها ، لأنهم لو تركوها تهرب فإنها لن تعيش ، وستموت بعد وقت قصير بسبب انفجار مرارتها من كثرة الجريان !

واقتربت السيارات إلى أن أصبحت المسافة بينها وبين الغزلان الأربعة لاتتجاوز عشرة أمتار ، وعندئذ برز الشيخ على حسن ببندقيته ـ وهو أحد مشايخ قبائل العبابدة الذين رافقونى فى الرحلة ـ وطلب من سائق سيارته أن يهدىء سرعتها حتى يستطيع إصابة الهدف . . ورفع الزناد . . وأطلق الرصاصة الأولى . . ولكنها أخطأت الهدف . . وابتعدت الغزلان فى سرعة فائقة عن سيارته . . وعندئذ أصابه الضيق ، فطلب فى عصبية شديدة من السائق أن يلحق الغزلان . . التى ما إن لحقها حتى فوجئنا بالغزال الذكر وهو يترك الإناث الثلاث لتنجو بجلدها ويأخذ طريقا آخر ، يتبعه فيه الصياد !

أخذت السيارة تطارد الذكر الى أن دخل بهم إلى منطقة مليئة « بالدبية » ،

والدبية كلمة يطلقونها فى الصحراء الشرقية على كثبان الرمال العالية التى تنبت عليها الأعشاب وتجعلها شبيهة بالدب فى حجمه وشكله ، وبدخول الغزال الى تلك المنطقة أصبح من الصعب اصطياده ، ولذا سمعت الشيخ على وهو يطلب من السائق عدم إكمال المطاردة حتى لاتتعرض السيارة للانقلاب ، وأمره بالعودة إلى المكان الذى ترك فيه الذكر زوجاته ، فمن عادة الزوجات أن تنتظر الذكر ولا تعود إلى كهفها إلا إذا عاد معها . . وفعلا . . ما إن عادت السيارة ، حتى وجدنا إحدى الزوجات فى انتظار الذكر ، فأطلق عليها رصاصة من بندقيته أصابتها فى مؤخرتها ، فسقطت على الأرض . . وتحاملت على نفسها . . وظلت تعدو بكل ما لديها من قوة . . إلى أن خارت قواها مرة ثانية ، فسقطت على الأرض وهى تصيح . . واقتربنا منها . . ولكم تمزق قلبى عندما رأيت دموعا حقيقية حول عينيها !

ولم تكن هذه هى مطاردة الشيخ على الوحيدة للغزلان .

فطوال الطريق كنت أشاهد غزلانا لا أول لها ولا آخر ، وكان السائق بمجرد رؤيته لأى مجموعة منها ينسى كل شىء حوله ويندفع بجنون وراءها ، فلا يتركها إلا إذا سقطت أمام عجلات سيارته ، فالغزلان فى هذا المكان موجودة بأعداد هائلة لا مثيل لها فى الصحراء الغربية أو صحراء سيناء ، فقد ذهبت من قبل إلى هاتين المنطقتين ورأيتهم وهم يصيدون الغزلان بالحبال أو عن طريق الصقور المدربة على الانقضاض ، وكنا نقضى أياما كاملة حتى نعثر على غزالة واحدة ، أما هنا ، فقد رأيتهم وهم يصطادون ثمانى غزالات فى ثلاث ساعات فقط !

الغزال المصرى

كان الليل قد زحف على المكان . .

وبدأت بطوننا تعوى من الجوع ، فتوقفت القافلة ، وبدءوا فى إشعال الحطب اللازم لإعداد لحم الغزال ، بالطريقة المعروفة عندهم باسم « سالات » لأنهم يسلتون الغزالة من جلدها ويقطعونها على صورة شرائح ، ثم يلقون فى وسط الحطب مجموعة من الصخور يتركونها الى أن تلتهب ، ثم

ينتشلونها من بين النيران ، ويضعون وسطها لحم الغزال ، ويتركونه لينضج في حدود نصف ساعة !

وفي أثناء الوقت الذي ضاع في عملية إعداد لحم الغزال ، كان لابد من أن يجرنا الكلام الى الحديث عن حياة الغزلان ، وكيف تعيش في تلك الصحاري الواسعة . . واتضح لي أثناء حديثنا ، أن الغزال ـ كأي حيوان صحراوي ـ يحب التنقل من مكان إلى آخر بحثا عن العشب حتى لو كان في ذلك هلاكه !

فعادة التجوال وقلة الاستقرار في حياة الغزال ، جعلت الغزلان الصغيرة تجري وراء الأب والأم بعد ولادتها بساعات ، وتلحق بهما أثناء التنقل حتى لايهاجمها أي انسان أو أي وحش كاسر !

كما أن الغزال المصري ـ بالذات ـ يعتبر من أشهر أنواع الغزلان منذ أقدم العصور بالنسبة لجماله ورشاقته ، فقد كان قدماء المصريين مفتونين بصورته ، إلى درجة أنه لا توجد مقبرة ذات نقوش لم يرسم فيها صاحبها صورة له وهو يطلق سهامه التي لا تخطيء على الغزلان المصرية ، كما أن الأمراء والنبلاء كانوا عندما يذهبون الى كبير كهنة آمون فإنهم يحرصون دائما على تقديم هدايا من بينها غزلان مصرية حية ، وذلك لاعتقادهم بأن الآلهة تفرح كثيرا عندما تشاهد تلك الغزلان الرشيقة !

ويتميز الغزال المصري بحاسة حادة كبقية الحيوانات الصحراوية ، فهو يستطيع الرؤية بالليل ، كما أن حاسة الشم عنده قوية . . وكذلك حاسة السمع . . . وهو من أجبن الحيوانات على الإطلاق لدرجة أنه لو رأى على الأرض آثار أقدام حيوانية أو إنسانية فإنه يبتعد عنها متوغلا في باطن الصحراء بسرعة رهيبة !

المهم أعدت الوليمة أمامنا ، وبدأنا نلتهم شرائح لحم الغزال ، التي أكلتها غصبا نتيجة للجوع الشديد ، وتعجبت أثناء أكلها من الذين قالوا إن لحم الغزال ألذ لحم في الدنيا ، ففي حياتي كلها لم أتذوق لحما بمثل هذا السوء !

الدب الأكبر !

تنتهى وليمة الغزلان عند الساعة الحادية عشرة ليلا ، وتبدأ القافلة فى السير ، ويرشدها فى طريقها عبادى اسمه « حسنون » له خبرة واسعة بكل شبر فى صحرائنا الشرقية ، وأحس ببرودة الجو الشديدة فألف نفسى داخل بطانية أخذتها خصيصا لتلك الرحلة .

واكتشف لأول مرة فى الصحراء مدى جمال قبة السماء الصافية بنجومها العديدة الألوان والأشكال . .

وكان يرافقنى فى السيارة زميلان الرسام البارع حلمى التونى والمصور الفنان محمد صبرى ، ويوسف حنين مدير العلاقات العامة بشركة النصر للتعدين الذى ما إن لاحظ اهتماماتى بمتابعة الكواكب والنجوم التى تتلألأ فى السماء ، حتى بدأ يحدثنى عن العالم الذى أراه أمامى ، فهوايته الوحيدة فى الصحراء هى الاهتمام بكل ما يسمع من معلومات عن عالم الفضاء المليء بالأجسام المعتمة والمضيئة !

قال : انظر إلى هذا الكوكب المصبوغ بلون أحمر خفيف ، إنه كوكب المريخ الذى يطل فوق جزيرة العرب من ناحية الشرق ، أما هذا الذى يتأرجح فوق صحراء ليبيا فى الغرب فإنه كوكب المشترى . . وهذا هو النجم ذو الكرسى ، وهو يبدو على شكل كرسى ، ونستطيع بواسطته أن نحدد مكان النجم القطبى . . أما هذا فهو الدب الأكبر ، الذى يُكون أربعة نجوم على شكل شبه منحرف ، وله ثلاثة نجوم أخرى فى طرفه على شكل يد كازرولة ، ولو مددت خطا مستقيما من قاعدة النجوم الأربعة فستصل إلى نجم لامع هو « القطبى » ، وهذا النجم يقع فى الشمال ، أى فى الجهة البحرية ، ولذا فبواسطته تستطيع أن تحدد مكانك فى الصحراء اذا ما ضللت الطريق بالليل !

وسألته : لماذا لا تصطدم تلك النجوم ببعضها أثناء حركتها غير المرئية لنا ، وخاصة أن منها ما يبلغ فى حجمه أضعاف حجم الأرض ومنها ما يصل فى حجمه الى حجم الفراغ الذى تنتشر فيه المجموعة الشمسية بأسرها ؟ !

وقال : لأن معدل المسافة بين النجم والآخر لا يقل عن ١٠ ملايين مليون ميل !

واستغربت ، وقلت له : إننى كلما نظرت الى السماء أتصور الرواد الذين فكروا فى هذا العالم الفسيح فى لحظة مبكرة جدا ، وابتسم قائلا : هذا هو نفس الشعور الذى يلازمنى كلما نظرت إلى السماء بدون تليسكوب ، فقد نظر فلاسفة الإغريق مثلنا قبل الميلاد بحوالى خمسة قرون ، وظنوا وقتها أن الحياة لا توجد على القمر فحسب ولكنها موجودة كذلك على الشمس وعلى غيرها من النجوم الثابتة ، كما أننى أتذكر دائما العالم « جورد افوبرونو » الذى أحرقوه فى روما منذ ٣٦٦ سنة ، لأنه كان يؤمن بأن هناك مخلوقات حية فى عوالم أخرى غير الأرض ، وطلب منه رجال الدين أن يرمى بأفكاره جانبا ، ولكنه فضل الموت على أن يترك إيمانه ومعتقداته عن تلك الحياة الموجودة فى هذا العالم اللانهائى ...... و ....

واصطدمت سيارتى بدبة من الدبة المشاكسة فى الطريق ، وتوقف السائق ، ونزل « حسنون » لينظر يمينا وشمالا وشرقا وغربا ، ثم قال : لقد تهنا ، ولن أستطيع أن أتحرك بكم إلا بعد طلوع الشمس !

بحر المتاعب

وعسكرنا فى مكاننا ، وأمسكت ببطانيتى بشدة ولففتها حول نفسى ، وتمددت فوق أحد الكراسى المكشوفة .

وحاولت النوم فى البداية ، ولكننى لم أستطع ، فقد مرت الرحلة بخاطرى منذ بدايتها ، منذ أن ودعت أضواء القاهرة ، وأخذت قطار الصعيد لأصل به بعد ٨٠٠ كيلو متر إلى مدينة ادفو ، ومن ادفو جلست ما يقرب من ست ساعات خلف مقعد قائد الأوتوبيس « عمر عاصى » الذى قطع بى ٢٨٠ كيلومترا الى مرسى علم ، وسط طريق مسفلت ، على جانبيه مجموعة من الجبال الجرانيتية .

وما إن وصلت إلى مرسى علم ، حتى أطلت وجوهنا على بحرنا العجيب الذى أغلقه الاستعمار فى وجه مصر لفترة طويلة حتى يستطيع أن يتوغل داخل القارة الأفريقية ويستغلها سياسيا واقتصاديا وبشريا ، واستطاع فعلا عن طريق هذا العمل أن يحصل على قواعد لقواته فى عدن وخورمكسر وغيرهما ، إلا أن تلك القواعد اهتزت تحت أقدام الغازى نتيجة لكفاح الوطنيين ، وعاد متحررا لأهله !

وبدأت أسير إلى جوار البحر الأحمر ، الذى انتشرت على ساحله مجموعة من قبائل الكريشاب التى تعيش مع جمالها على صيد أسماك البحر العديدة كالوقار والشعار والبهار والبربونى والسردين وخلافه .

وقد سمعت من أحد أعضاء نادى الصيد فى مرسى علم أن ألذ الحيوانات البحرية فى المنطقة هى « الاستاكوزا » ، ومع ذلك فهى غير مستغلة استغلالا اقتصاديا سليما رغم أنها معمرة ، والسبب فى ذلك أنه ليست هناك أى عمليات تنظيم لصيدها ، كما أننا نقوم باصطياد كميات كبيرة منها فى موسم الإخصاب الجنسى !

وعرفت أن المنطقة الجنوبية من البحر الأحمر بها ما يقرب من ٣٠ نوعا من القرش ، وأن عمر القرش الواحد يصل فى المتوسط الى عشرين سنة ، كما أن نفس المنطقة تضم مجموعة ضخمة من الأسماك السامة كالقراض وأبوحمارة والدرقة وأبوصندوق ، وأن تلك الأسماك يكمن سمها فى الكبد والكلى والبطارخ ، وإذا ما أكلها الإنسان فانه يصاب بالإسهال والقىء والإغماء ، واذا لم يسعف بعد أكلها سريعا فسينتقل فى خلال يومين إلى رحمة الله !

النعام الطائر

وصلت بنا السيارة إلى أبوالغصون بعد ٨٠ كيلومترا من ميناء مرسى علم ، لتستقبلنى على مقربة من الميناء الذى أعد لنقل المعادن قافلة من السيارات بها بعض الموظفين الذاهبين الى منطقة جبال علبة .

وتحركنا معهم بعد راحة قصيرة ، لأصل الى مدينة « برانيس » التى بناها الرومان ونزع الأجانب كل حوائطها الأثرية ، ولم يتركوا فيها غير معبد الشمس !

وعند برانيس انتهى الطريق المسفلت ، وبدأت أدخل إلى الصحراء الشاسعة ، التى قادتنا الى هذا المكان بعد ١٦ ساعة . . . . و . . . . . . ولم أستطع مقاومة حلاوة النوم ، فقد داعب أجفانى ، فاستسلمت له حوالى ساعة ، صحوت بعدها على هزات أيد تنبهنى إلى ظهور تباشير الفجر ومواصلة السير إلى وادى النعام !

فى وادى النعام فوجئنا بقافلة من خمس نعامات ، وهى ترعى إلى جوار الجمال . . واستغربت ، فقد سمعت مرة أن النعام انقرض من الأراضى المصرية نتيجة للمطاردات المستمرة ، وأنه لا توجد فى صحارينا سوى بقايا قشر البيض الذى يدل على وجودها ، وأننا منذ سنوات بعيدة كنا نربى النعام فى صحراء المطرية فى أرض النعام ثم انقرض وأصبح غير موجود فى الصحارى المصرية !

ولذا فإننى أستطيع أن أؤكد اليوم بأننى رأيت النعام فى صحارينا ، وأنه ما إن رآنا حتى بدأ يجرى بشدة وبرشاقة عجيبة ، فقد بدأ فى جريانه أمامنا بحركة ساقيه وكأنه مجموعة من راقصات الباليه !

وطلبت من السائق أن يطارده . . ولكنه رفض ، لأن مطاردته تحتاج إلى مجهود خاص ، فهو يجرى بسرعة ٨٠ كيلومترا فى الساعة ، وأثناء جريانه يقذف بأرجله الحصى والزلط خلفه فيصيب سيارة المطاردة ويحطمها ! .

ولذا اكتفيت بتصوير هذا الطائر ، الذى لا يطير ، والذى عوضته الطبيعة عن ذلك بسرعة كبيرة فى العدو ، وعنق طويل منتصب يستطيع بواسطته أن يكتشف العدو من على مسافات بعيدة ، وساق قوية ضخمة العضلات يستخدمها فى الدفاع عن نفسه ، حتى أن ضربة قوية من تلك الساق تلقى برجل قوى على الأرض وتقتله فى التو واللحظة !

وهكذا مضيت فى رحلتى . . تلك الرحلة التى قابلت فيها الى جوار الغزال والنعام مجموعات أخرى من الحيوانات والقوارض ، كالثعالب والقنفذ والوبر ، وذكرتنى تلك المخلوقات بالرحلة التى قام بها عالم مصرى متخصص فى علم الحيوان هو الدكتور كمال واصف إلى تلك المنطقة ، وكانت ترافقه فيها بعثة بحوث طبية أمريكية لدراسة الحيوانات والطفيليات فى تلك البيئة ، فقد اتضح لهم أن أشهر حيوانات منطقة علبة هى :

* التيتل أو البدن . . . . وهو ماعز جبلى له قرون كبيرة ويعيش على قمم الجبال وعندما يعطش ينزل إلى الوادى ليشرب فيصيده الأهالى !

* ضبع البحر الأحمر ، الذى لا يرتبط اسمه بأى صلة لأنه يتغذى على الحشرات !

* الفأر أبوشوك . . وهو من الآفات الموجودة فى تلك المنطقة بكثرة ، والتى تمثل خطرا على الأعشاب لأنها تتغذى عليها .

* اليربوع الذى يشبه الكانجارو فى قفزاته ، والذى يعتبر من أكثر الحيوانات اقتصادا فى الماء ، لأنه يحفر دائما حفرات رطبة تحت الأرض ويرقد فيها ، حتى يحتفظ لأطول وقت ممكن بكميات المياه الموجودة داخل جسمه !

* وهناك كذلك الأرانب البرية ، والوبر ، والظربان ، والدمسى ، وأنواع مختلفة من السحالى .

و . . . . وهنا أطلت علينا جبال علبة بقممها الثلاث ، فزاد جريان السيارة بنا . . . .

ووصلت إلى « أبورماد » وهى البلدة الراقدة عند سفح الجبال المقدسة التى يحيطها الضباب من كل جانب ، ووجدت فى انتظارنا مجموعة من المهندسين الجيولوجيين ، وعلى مقربة منهم عدد ضخم من شبان وشيوخ قبائل العبابدة والبشارية وهم يصفقون بأيديهم فى إيقاع مستمر ومنظم ، بينما أفواههم تصدر همهمات شبيهة بأصوات الموج فى أوقات هياج البحر !

ورغم دغدغة جسدى وأعصابى ، وحاجتى الشديدة إلى الراحة بعد أن قطعنا ما يقرب من ١٥٠٠ كيلومتر ، فقد طار النوم من عينى بمجرد رؤيتى لهذا المنظر ، بل وغاص قلبى بين ضلوعى من رهبة تلك الأصوات القوية التى كانت فى انتظارنا . . ولكن . . . . ما إن قفزت من السيارة ووضعت قدمىَّ على الأرض الرملية حتى فوجئت بكل شىء فى المكان وهو يرقص . . الناس . . والأمواج . . . والطيور . . . بل وصدقنى إذا قلت لك ، إننى لو نزلت فى تلك اللحظة إلى أعماق البحر الأحمر الذى تجمعوا فوق شاطئه ، لرأيت أسماك الشعور ، والمرجان ، والقرش ، وكاريوكا ، وهى ترقص على نفس النغمات !

كانت رقصة « الهوسيب » ساخنة جدا . . فالرجال . . كل الرجال . . أصيبوا فجأة بهيستيرية الرقص بعد أن تجمعوا فى صف واحد ، وأخذوا يصدرون من أفواههم أصواتا أشبه بصيحات الهنود الحمر فى لحظات

الحرب ، وسلبت آلة « الطنبور » بدرجات أصواتها المتعددة كل وقارهم ، وجعلتهم يصفقون بأيديهم فى قوة لتنظيم حركات الراقص الذى اندفع إلى وسط الحلبة وهو يمسك سيفا فى يده اليمنى ، ودرعا فى اليد اليسرى ، وبدأ يقفز بهما فى الهواء فاردا ذراعيه فى حركات يستعرض بها مهارته ، وشجاعته ، وسيطرته على القوى الخارقة التى تعترض طريقه ، ويدور الراقص حول نفسه وهو يؤدى تلك الحركات ، إلى أن يتصبب العرق من جبينه ويحل بجسده التعب ، فيصيح فى قوة قائلا : أبشر . . أبشر . . فيردون عليه جميعا فى صوت واحد قائلين : حبابك عشرة . . وعندئذ يضع الدرع والسيف على الأرض ، ويعود إلى الصفوف ، لينبرى راقص آخر يكرر أمامنا رقصة « الهوسيب » من جديد !

وفجأة يزداد حماس الحاضرين ، فيفقدون السيطرة على أجسامهم الرشيقة ، ويسحبون خناجرهم من وسط أحزمتهم ويندفعون بها جميعا الى وسط الحلبة ، ليرقصوا بها فى نشوة بالغة . . ووقتها ، لا يبقى فى الصف . . سوى شيخ عجوز . . طاعن فى السن . . يقبل بأصابعه النحيلة أوتار الطنبور !

وأتذكر بمجرد رؤيتى تلك الرقصة . . على رضا . . فهو لا يعثر على أى رقصة جديدة إلا بطلوع الروح . . ولهذا تمنيت لو كان معنا . . ليرى تلك الرقصة الشعبية الأصيلة ، التى أعتقد أنها أهم من رقصة « الحجالة » المشهورة التى أخذها عن قبائل الصحراء الغربية ، فرقصة « الحجالة » ليس لها أصل تاريخى معروف . . أما رقصة « الهوسيب » فقد أداها الجنود من سكان تلك المنطقة فى أيام مصر الفرعونية ، فقد استخدم الفراعنة قبائل « الماجوى » ـ وهم أسلاف « البجا » السكان الحاليين ـ فى الحراسة والحملات الحربية ، نظرا لشهرتهم ومهارتهم فى فن القتال ، وكلنا يعرف أن الرقص الحربى كان إحدى وسائل تسلية القوات الحربية فى أوقات راحتها ، ولهذا كانت رقصة « الهوسيب » فعلا هى الرقصة القومية لجنود جبال علبة ، وكانت دائما تصحبها صيحات التحدى ، وتوجهها نغمات الطنبور فى بداية ظهوره !

« الزول » الظريف !

لقد أشعلت حركات الراقصين الحماس فى قلبى ، فشعرت برغبة عارمة تدفعنى إلى مشاركة رجال القبائل فى رقصتهم الساخنة . . وفعلا . . ما كدت أنزل إلى الحلبة لأقفز مثلهم فى الهواء وأصيح : أبشر . . أبشر . . حتى وجدت نفسى أذوب وسط جموعهم !

وبعد أن همد الرجال من كثرة الرقص ، جلسوا فى حلقات دائرية ليمضغ بعضهم الدخان ، وليدخنه الآخرون فى غلايين طويلة . . وهناك على مقربة منهم ، صبى صغير ، أوقد نارا ، وجلس الى جوارها ، يحمص البن ويسحقه فى طاحونة خشبية صغيرة يسمونها « الصلايا » وما إن انتهى الصبى من تلك المهمة ، حتى أضاف على البن كمية من الحبهان والقرنفل والجنزبيل ، ووضع هذا المخلوط داخل « الجبنة » المصنوعة من الفخار والمحلاة بالخرز ، وسكب فوقه كمية من الماء المغلى ، وقلب فيها البن عدة مرات ، ثم وضع فى بوز « الجبنة » قطعة من الليف بدأ بعدها فى صب القهوة فى فناجين صغيرة ليوزعها على الحاضرين .

وأتناول معهم فنجانا على سبيل التجربة ، وأحس بتأثير اللسعات الشديدة للقرنفل والجنزبيل والحبهان على لسانى وزورى ، فأكتم هذا الإحساس ، إلى أن يأتى الدور الثانى فى القهوة ، فأعتذر فى لباقة فائقة محاولا الاكتفاء بالفنجان الأول « الرائع » الذى شربته ، ولكنهم يعتبرون الفنجان الثانى حق عرب ، فأشربه وأمرى لله ، وبشرب الفنجان الثانى وجدت نفسى داخل منطقة نفوذ التقاليد القبلية ، فمن عادة قبائل تلك المنطقة أن يشربوا أكواب القهوة بأعداد فردية ، وهم يتشاءمون من الذين يشربونها بأعداد زوجية ، ولهذا أجبرونى على شرب الفنجان الثالث . . وشربته على مضض !

وطالت « قعدة » الرجال مع فناجين القهوة اللاسعة . . .

وكاد الملل يتسلل إلى صفوفهم لولا أن لجئوا إلى الغناء ليعبروا به عن العواطف الدفينة فى قلوبهم ، فبينما أحدهم يئن من غرام البنات الذى دفع فيه الجلد والسقط بقوله :

شربتك يا غرام من كاس مكرر بسيرة
احنا مراضى يارب العباد اشفينا
اليوم البنات عكروا صافينا
صرفنا أموالنا ، من داخل الرقاب لافينا

نجد آخر ، يبكى على فراق حبيبته الزول الظريف ، أو الفتاة الجميلة ، بقوله :

الزول الظريف يا ريتنى ما ريته
ألهانى بالجمال ، حتى الفرض خليته
تسع سنين عليل ، من يوم ما جافيته
بابكى بكاء شنيع ، جار الجوار ، صحيته

وينفعل ثالث ، بأغنية من تلك الأغانى التى تعشق الإبل سماعها والسير على نغماتها أثناء الترحال ، فيخاطب شجرة البن أو « مذيعة البناية » كما يسمونها قائلا :

عايز أشكرك يا « مذيعة البناية »
يا أم شعر غزير ، نازل تنايا ، تنايا
آه لو تبعت النفس يا بنت ، أروح فى جناية
كتير ، راحوا قدامى فى بر الغرام ، وتنايا

ويستمر احتفال رجال البشارية والعبابدة بقدومنا حتى ساعة متأخرة من الليل ، وأحس بتعب شديد يحل بجسمى فجأة ، فأنسحب فى هدوء إلى داخل الاستراحة ، وما إن أضع جسدى فوق أول سرير أقابله حتى أروح فى سابع نومة ! .

مطلوب ثلاث زوجات

وأستيقظ فى اليوم الثانى قبل شروق الشمس لتندفع بنا السيارة إلى المنطقة التى تحتضن جبال علبة نفسها ، والتى تبعد عن مدينة « أبورماد » بحوالى ٢٥ كيلومترا .

وأحب هنا أن أتوقف قليلا لأقول لك إن رجال البشارية والعبابدة الذين عشنا مع أفراحهم فى الليلة السابقة يعملون كعمال فى شركة النصر لصناعة الفوسفات ، التى جعلت الحياة تدب فى تلك المنطقة ، فقبل وصول معدات رجالها الذين يعملون فى المناجم لم يعرف رجل واحد من أبناء تلك المنطقة معنى كلمة العمل ، فقد تعودوا جميعا على حياة الترحال بحثا عن الكلأ والعشب فى وديان الصحراء الشرقية ما بين أسوان والبحر الأحمر !

ونقابل أثناء ذهابنا إلى وديان جبال علبة رجلا فارع الطول قوى البنية ، فتتوقف السيارة لينزل منها الجيولوجيون ، ويقدموه لنا باسم الشيخ حامد كرارة رئيس قبائل البشارية فى خط عتبى ، وأتحدث مع الشيخ حامد لأكتشف أنه فى الخامسة والسبعين من عمره ، ومع ذلك فهو يتمتع بحيوية شديدة ونشاط قد لا تراه فى ابن الأربعين الذى يعيش فى المدينة ، وأسأله عن سر تلك الحيوية ، فيقول : الهواء النقى ومقاطعة المكيفات بكل أنواعها ، وقلة المشكلات . . والبعد عن الضوضاء . . فأنا لا أستطيع مثلا أن أبقى فى القاهرة أكثر من ثلاثة أيام ، أجرى بعدها لأعود إلى الصحراء . . . لأن مجرد إغلاق أو فتح باب يقلق ويحطم أعصابى . . فما بالك بالقاهرة وبها ملايين الأبواب وآلاف السيارات وكل هذا الطابور الهائل من الباعة الجائلين . . . . . و . . . . وسكت الرجل قليلا ، ثم قال : صحيح أن كل ما أراه فى القاهرة يعكس صورة رائعة للتقدم والمدنية . . . ولكن يبدو أن ضريبة المدنية فى كل مكان فادحة . . فهى دائما تكون على حساب أعصاب وراحة الإنسان !

رحلة الحياة !

استأنفنا رحلتنا إلى الوديان التى عشنا فيها أياما مع قصة الجبل ، وقصة الذين يبحثون عن المعادن فى باطنه ، وقصة كل التقاليد والعادات التى تعيش فيها قبائل جبال علبة .

إن قبائل البشارية والعبابدة ، تعيش دائما متنقلة بين وديان وسهول هذا الجبل المقدس ، وهى فى ترحالها إنما تبحث عن الماء ، فإذا ما نضبت البئر التى تعسكر إلى جوارها أى قبيلة ، فإنهم يجمعون على الفور متاعهم

ويضعونه فوق الجمال ، ليبدءوا السير فى قافلة طويلة تضم الرجال والنساء والأطفال والأغنام والكلاب !

ويقود تلك القافلة شيخها ، فهو المسئول عن سلامة كل فرد فيها ، بينما ينبرى شبان القبيلة ليسحبوا قطعان الجمال التى يملكونها ، وفى العادة لايستطيع أى واحد فيهم أن يسحب أكثر من ٢٠ جملا ، عن طريق حبل متصل بخزام فى أنوفها !

وتبدأ القافلة رحلتها فى البحث عن الماء فى الصحراء الشرقية الواسعة ، وهى فى بحثها تسير بمعدل خمسة كيلومترات فى كل ساعة ، وعندما تتعب جمالهم فإنهم يغنون لها فيدب النشاط فى جسدها فجأة وتسير بخطوات أسرع من الخطوات التى كانت تسير بها فى بداية الرحلة . . وفى أثناء سيرهم . . يلتقطون وبر الجمال الخشن الذى يتساقط منها باستمرار ويصنعون منه خيوطا يستخدمونها فى صنع الجوارب وبعض الملابس ، ويحرصون على الاقتصاد فى الماء المخزون فى صفائح فوق الجمال فهم لا يشربون منه فى اليوم سوى مرة واحدة ، كما أنهم لا يغسلون أطباقهم بعد الأكل بالماء ولكنهم ينظفونها بالرمال ، وعندما تشتد الشمس فإنهم يستريحون فى الأماكن الظليلة حتى لاتسرق منهم أشعة الشمس كمية المياه التى شربوها !

ويظلون على تلك الحال إلى أن يعثروا على الماء ، فتتوقف القافلة ، وينزلوا ما عليها من متاع فى دقائق ، ويفحصوا أخفاف وظهور جمالهم ، فإذا ما وجدوا عليها قروحا عالجوها فى الحال بطريقتهم البدائية ، ثم تبدأ نساؤهم فى نصب الخيام ، ويبدءون حياة جديدة بعد أن عثروا على البئر ، وهى الشريان الحقيقى الذى يستطيعون فى ظله أن يضمنوا الحياة !

فحياتهم فى تلك الصحراء بسيطة ، وواسعة ومنبسطة كوديانها ، فهم لايعرفون حدودا ، وتجرى فى دمائهم غريزة حب التنقل من مكان إلى مكان آخر ، وان كان كثير منهم قد بدءوا أخيرا يذوقون طعم الاستقرار بمجرد اشتغالهم فى المناجم ، ووصول المياه إليهم من البواخر بصفة منتظمة ، وتوزيع الألبان المجففة والدقيق والأطعمة المعلبة عليهم بكميات كبيرة .

كما أنهم يفتخرون جميعا بانتسابهم إلى الزبير بن العوام الذى أسلم أجدادهم على يديه ، عندما ساهم فى رحلة عمرو بن العاص لفتح مصر ووصل إلى هذا المكان الذى استوطنته بعض أفراد قبيلة قريش منذ حوالى ١٤ قرنا !

الغناء للأولاد فقط !

وأغلب سكان جبال علبة . . ذوو وجوه جميلة . . وأقوياء . . وأجسامهم رشيقة كالغزلان ، وأسنانهم ناصعة البياض . . ولون جلدهم بنى قريب من لون الشيكولاته . . ولسانهم صغير تحيط به شفتان رقيقتان . . وأغلبهم يشرط خده بثلاثة جروح غائرة ، يعتبرها مظهرا من مظاهر إبراز القوة والرجولة . . وأغلبهم يرفض فكرة تربية الشارب ، ويكتفى بتربية لحية صغيرة جدا !

ولقبائل علبة بالذات عادات وتقاليد لا يوجد مثيل لها فى أى مكان فى العالم ، فهم مثلا يكرهون الخضراوات لأنها فى رأيهم كالأعشاب التى تأكلها الحيوانات ، وهم يلبسون الأحجبة والخواتم الفضية بكثرة ، ويحملون الخناجر فى وسطهم لاعتقادهم بأنها قادرة على إبعاد الحسد عنهم والأرواح الشريرة ، وهم يطيلون شعور رءوسهم ويدهنونها بالشحم مع أجسادهم حتى تقيهم حرارة الشمس فى الصحراء ، ويستخدمون دائما مسواكا من الخشب فى تمشيط تلك الشعور ، وما إن ينتهوا من عملية التمشيط حتى يغرزوا المسواك فى كمية من الشعر وسط الرأس يسمونها « الكشة » !

وأطفالهم يصبحون رجالا بمجرد وصولهم إلى سن الثالثة عشرة ، فعندما يصل الطفل إلى تلك السن ، يسمحون له بحمل خنجر ليدافع به عن نفسه وليساعده على اصطياد الحيوانات البرية الموجودة فى الصحراء ، كما أنهم يزوجونه فى تلك السن المبكرة ، فيقدم لعروسه المهر على صورة جمال ، وعندما يبدأ حفل الزواج ينصبون الزينات ، ويذبحون الجمال ، ويقدمون لحمها لأفراد القبيلة ولكل عابر سبيل يمر من أمامهم أثناء تلك المناسبة ، وفى الأيام الأربعين الأولى من الزواج لا يستطيع العريس الحياة مع عروسه إلا

بالليل ، أما فى النهار فإنه لا يراها ، لأنها تتركه وهو نائم فى الفجر وتعود لأهلها وتظل مختفية عندهم حتى يحل الليل ، وعندما تلد الزوجة فإن الزوج يترك خيمته ولا يعود إليها إلا بعد أربعين يوما ، وفى ليلة الولادة بالذات يذهب الزوج إلى بعض أقاربه ويظل منتظرا البشرى ويستطيع أن يعرف نوع المولود من المظاهرة التى تقوم بها نساء القبيلة ، فإذا كان المولود ذكرا خرجت النساء وهن يغنين ذهابا وإيابا فى كل أنحاء الصحراء ، أما إذا كانت بنتا فإن كل امرأة تذهب إلى بيتها بدون غناء ، وبهذه الوسيلة يستطيع الزوج معرفة نوع الطفل الذى رزق به !

جبال الأساطير

والمرأة فى جبال علبة ، من حجم متوسط ، وهى جميلة جدا ، ولها وجه باسم وتقاطيع حلوة ، وهى تتبع الرجل كظله فى الصحراء ، ومن النادر أن تقابل امرأة خارج منطقة الخيام التى تعسكر فيها القبيلة ، وتميل النساء الى ارتداء الفساتين الزاهية الألوان ، ويدهن أجسامهن بالزيوت حتى يزددن رقة وأنوثة ، ويربطن وسطهن بأحزمة ملونة ، ويتحلين بمجموعة ضخمة من الأساور والخلاخيل والعقود ، ولا يستغنين مطلقا عن القرط الفضى ، والرجل هنا يتعامل مع المرأة على قدم المساواة ، ولهذا فإن الخيانة الزوجية عندهم تكاد تكون معدومة ، وهى دائما تؤمن بنفس المعتقدات التى يؤمن بها زوجها ، فهى تعتقد مثله أن ولى الله « كوكا » الذى اختفى منذ ثلاثة قرون فى احدى مغارات جبال علبة المقدسة مازال حيا وأنه سيعود ، وأن الرياح الموسمية التى تهب عليهم من تلك الجبال ما هى إلا صوته ، والغريب أن هناك كثيرا من الأجانب زاروا تلك المنطقة ، وآمنوا بهذا المعتقد وبدءوا يبحثون عن « كوكا » المختفى فى مغارات الجبل الشاهق الذى يصل ارتفاعه إلى ٤٣٧ مترا فوق سطح البحر ، وبالطبع لم يعثروا على أى أثر يدل على وجوده !

إنها منطقة مثيرة ورائعة . . .

منطقة لا يكفى الذهاب إليها مرة أو مرتين . . أو ثلاثا . . فهى فى حاجة

إلى دراسات مستفيضة . . فكل الدراسات الموجودة عندنا عنها أجنبية ، وغير واضحة . . ومشوشة . . وحتى تاريخها فى حاجة إلى بحث ، فهناك علماء اعتبروها منطقة لا مثيل لها من حيث حيواناتها وطبيعتها وجوها القريب من الأساطير ، وهناك مؤرخون ولكن قدماء جدا مثل « سترابون » الإغريقى الذى جاء اليها قبل الميلاد ليقول : « رأيت فيها كائنات نبتت من الطين . . وكائنات أخرى مازالت فى طور التكوين » .

وهذا الرأى مع أنه خرافى . . إلا أن المؤرخين ساروا وراءه ، ليصلوا إلى حقيقة هامة تقول ، إن أول دفعة من البشر ، عمرت أفريقيا ، نزحت من هذا المكان . . فما رأى علماء التاريخ فى كل هذا الكلام ، ولماذا لا يحملون مع علماء الأحياء والأجناس حقائبهم ويذهبون فى رحلات علمية إلى هذا المكان الفريد الساحر ؟ ! !





يا زمان الأندلس !

قرطبة ، وغرناطة ، وأشبيليه ، قطع من عقلى وتراثى الذى أضاء الدنيا فى ساعات حالكة الظلام .

ولهذا عندما تجولت فى تلك المدن باحثا عن بقايا أندلس العرب من الحصون والأسوار والأبراج والجسور والمكتبات والقصور والمساجد الشامخة الشاهدة على ثمانية قرون من المجد الغابر ، وجدت نفسى - مثل غيرى - لا أملك غير القول : آه يازمان الأندلس . . الجرح فى أعماقنا غائر . . وعقولنا امتلأت بالطلاسم والتعاويذ والخرافات ، التى أخفت تماما سلبيات الماضى حتى لا نكتشف أخطار المستقبل . . وقلوبنا هائمة لا تعرف أين المستقر . . ووجوهنا تفضحها دهشة الغريب ونظرة العاجز القليل الحيلة !

ولكن ما جدوى تأنيب الضمير والنفس ، مادمنا قد نسينا أن شعلة الثقافة والعلوم والفنون العربية هى التى حملت مشاعل المعرفة من الشرق الى الغرب ؟!

وما معنى الندم إذا كنا غير قادرين على استيعاب دروس التاريخ ، التى أكدت أن عزائمنا لم تضعف وأفكارنا لم تنطفىء ، إلا عندما ألهبنا ظهر كل صاحب موهبة أو رأى بالسياط البدنية والنفسية التى أفرزت لنا مع الأيام جيلا عجيبا ، لا يمضغ غير اليأس والخمول والإحباط والحيرة ؟!

هل نسينا كم كانت فرحتنا غامرة عندما عبرنا مضيق «العدوة» ودخلنا الى أسبانيا فى عام ٩٣ هـ (٧١١ م) بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ليبدأ عصر ازدهار الدولة العربية القوية الموحدة المتماسكة الأطراف ؟.

وهل غاب عن أذهاننا مشهد نكبتنا ؟ . . عندما ترهلت أجسادنا ، وتسربت جرثومة الشقاق والحسد والحقد الى نفوسنا ، وتطاولت أيدى الطامعين من أجدادنا تمزق قلب وأطراف الجسد الواحد الى دويلات وامارات ، فكانت الطامة الكبرى عندما خرجنا الى الأبد من غرناطة آخر معاقلنا فى الأندلس عام ٨٩٧ هـ (١٤٩٢ م) ودموع آخر حكامها «أبو عبدالله محمد» تنهمر من عينيه ، بينما أمه «عائشة» تصرخ فى وجهه غاضبة :

إبكِ مثل النساءِ ملكا مُضاعا
لم تُحافِظ عليه مثلَ الرجالِ !

حيرة المؤرخ

فى البداية مشيتُ مزهوا فى مدينة قرطبة حاضرة الأمويين فى الأندلس ، بهتت فى عينى مبانيها الأوربية الحديثة ، بعد أن عانقتُ باشتياق الولهان أحياءها العربية العريقة ، وصافحت وجهى نسمات هوائها المشبع برطوبة العصر المنهار فى الدروب الضيقة المتعرجة ، وتنفستُ شذى أوراق برتقالنا وزهورنا الزاهية الألوان والرياحين القادمة من الشام التى حملتها الى أنفى حدائق البيوت الناصعة البياض !

فى قرطبة وبينما أنا غارق فى عالم الذكريات ، زارنى طيفه العائد بعد تسعة قرون من الزمان ليسألنى : أمازلتم لا تعرفون أن الانقسام والتناحر وتضارب المصالح الشخصية الذى وصل الى حد الاقتتال هو المعول الذى قوض عصر الحضارة العربية فى الأندلس ؟

وقلت له : مازلنا نعرف ، أو نعرف ونتجاهل ، بدلالة أننا نحرق بأيدينا بيوتنا وحقولنا وأطفالنا فى لبنان ، كما أننا مازلنا منذ منتصف هذا القرن عاجزين عن توحيد كلمتنا ومواقفنا لاسترداد الحقوق المغتصبة من الشعب الفلسطينى ، وأصبحنا لا نملك اليوم من أمرنا الا مجرد الفرجة على أطفال ونساء الحجارة الأبطال وهم يتعرضون للضرب بالركلات واللكمات وتكسير العظام بكعوب البنادق ، أو يسقطون صرعى رصاصات اسرائيل المتفجرة (دمدم) وغيرها من الأعيرة النارية والمعدنية والمطاطية !

وتنهد طويلا شيخ المؤرخين فى الأندلس أبو مروان بن حيان القرطبى ، الذى عاش تسعين عاما شهد أثناءها سقوط الدولة العامرية وما تلاه من ترنح الخلافة الأموية فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، وانهيارها وقيام دولة الطوائف ثم قال : الفرق بيننا وبينهم أن العرب عندما ذهبوا الى الأندلس لم يكن هدفهم السيطرة أو جمع الغنائم ، ولكنهم استجابوا لنداء شعب عانى من الظلم والاضطهاد على أيدى القوطيين الغربيين ، ولهذا عندما جاء المسلمون كفاتحين جعلوا من رقيق الأرض ملاكا ، ومن العبيد أحرارا بعد أن أعطوهم كل الحقوق الإنسانية ونشروا المساواة بين كل الطوائف المحرومة ، وقد أدى

هذا السلوك الى أن أصبح جيش المسلمين فى غالبيته يضم أهل البلاد الأصليين من الفقراء والمتطلعين الى الحرية . . أما ما ترونه فى الأراضى العربية المحتلة اليوم ، فهو صورة صارخة للتعصب والكراهية والحقد على البشر أجمعين ، فما أبشع أن نعاقب أسرة مهما كان وزر أحد أفرادها بأن نهدم بيتها وندفن كل ذكرياتها تحت الأنقاض وأمام أعين كبارها وصغارها على حد سواء !

وقلت له : قطعا لم يخطر على بالكم يوما فى عصركم أن اليهود الذين عاشوا مطمئنين فى حماية المسلمين فى الأندلس الى أن تعرضوا للاضطهاد من ملوك الشمال الأسبان الذين طردوا منهم ربع مليون نسمة مع ملايين المسلمين ، سيكون لهم أحفاد يردون العمل الطيب والعطف الجميل بالجحود واغتصاب الأرض العربية .

وسكت أبو مروان الذى تعودنا فى كل مؤلفاته التحليل والنقد ونزاهة الرأى ، وقال لى بأسلوب الخائف على وطنه : عيبكم أنكم مازلتم تتحركون دائما بمنطق العاطفة ثم تبدءون مع الندم فى استخدام منطق العقل . . أنتم لستم اليوم فى عصر العتاب ، ولكنكم فى عصر التحدى وسيطرة الأقوى . . ولا مكان لكم فى هذا العصر بدون استخلاص الدروس من التاريخ بعناية ، فكل آمالكم وطموحاتكم فى الخلاص والحرية وضمان خبز الغد لن تتحقق الا إذا تحولتم الى عاصفة فى وجه أى خلاف يراد به شق الصفوف ، ولن تقوم لكم قائمة بدون توحيد مواقفكم والتعاون لوجه الله والوطن بلا تحزب ، والتخلى عن تبادل الاتهامات وتصفية الخلافات بالنار والبارود . . فبدون ذلك ستصبحون مثل ملوك الطوائف الذين غذوا التعصب والتزمت والفرقة والتشرذم وأشعلوا نارا حامية بين القومية والدين ، فكانت العزلة والفرقة والحروب الأهلية التى قوضت أركان أعظم الحضارات الإنسانية فى الأندلس ، تلك الحضارة العربية الزاهرة التى قامت على التفاعل والانفتاح على تجارب الآخرين .

وقلت له : هذا حقيقى ، فقد قرأت لكاتب أسبانى معاصر اسمه «بلاسكو أبانيز» رأيا منصفا قال فيه «مع العرب أتت الى أسبانيا الحرية لشعبها المقيد تحت حكم ملوك الدين ومطارنة الحروب ، وما استولى عليه العرب فى سنتين

استغرق ثمانمائة سنة لإخراجهم منه ، ذلك لأنهم لم يلقوا مقاومة شديدة عند فتحهم بلادنا ، لأن الشعب الأسبانى كان يشعر أن هذا الفتح ليس استعمار سلاح ، بل استعمار تمدن جديد ، وحرية دينية جديدة لم ترها أسبانيا من قبل ولا من بعد» .

وقال لى أبو مروان : لقد قال هذا الكاتب كل الصدق ، فعندما سيطر ملوك الشمال الأسبان أطفئوا سراج العلم العربى ، وقضوا على أوجه التسامح فى العقيدة ، وكانت البدائل التى قدموها هى التعصب والاضطهاد والذبح الجماعى وإهانة النفس البشرية ومحاكم التفتيش .

وكما جاءنى طيف أبى مروان بن حيان القرطبى ، عاد مرة أخرى ليرقد حائرا قلقا بمقبرة «الربض» فى قرطبة ، المخصصة للعظماء والكبراء فى عصره ، والتى تذكرنا دائما منذ وفاته فى عام ٤٦٩ هـ (١٠٧٦ م) بما رآه من أحداث جسام ، بدايتها فتوة وقوة دولة العرب فى الأندلس ، ونهايتها تمزقها وضعفها وبداية سقوطها . . فهل نعود الى التاريخ لنقرأه بدقة مرة أخرى ؟!

الروايات المزيفة !

توقفت أمام مدينة قرطبة أو عاصمة الخلافة فى العصر الإسلامى ، والتى تبعد عن مدريد عاصمة أسبانيا بما لا يزيد على ٤٠٠ كيلو متر .

فى هذه المدينة الحافلة بأحداث التاريخ استوقفنى أحد الأدلاء الذين تعودوا مصاحبة آلاف السياح الذين قادتهم أقدامهم الى تلك الأزقة ، وأخذنى لأرى بيتا به نافورة وسط حديقة فيحاء .

إلا أننى سرعان ما تخلصت من الرجل بعد أن طاردتنى قصصه الملفقة عن تاريخ الفتح العربى ، التى تعود على سردها مع كل من سبقونى !

فما أكثر الأساطير والروايات التى نسجها الخيال حول الأندلس ، والتى من بينها مثلا القصة الغربية التى رددناها بسذاجة حول حرق القائد طارق بن زياد للسفن التى أقلته مع جيشه عبر مضيق الجبل الذى سمى باسمه ليلهب نفوس

جنوده ويدفعهم نحو النصر ، وكانت هذه السفن عونا من الكونت «يوليان» القوطى حاكم «سبتة» حتى ينتقم من «لذريق» حاكم الأندلس الذى دنس شرف ابنته «فلورندا» التى أرسلها ـ كعادة حكام الولايات القوطية ـ الى قصر الملك فى طليطلة لتتثقف وتتعلم الخلق الرفيع بين وصائف الملكة ، ولم يستطع أن يقاوم جمالها فاعتدى عليها ، مما أوغر صدر والدها الذى قدم للقائد العربى تلك السفن ليسهل أمامه هزيمة خصمه !

إن قصة حرق طارق بن زياد للسفن الست التى نقلت جيوشه عبر المضيق يرد عليها الدكتور أنيس الطباع فى كتابه «القطوف اليانعة» موضحا أن تلك السفن لم تكن أموية لأن المسلمين عند فتحهم لأفريقيا والمغرب لم يركبوا البحر ، ولم يكن لهم على طول الساحل أسطول بحرى ، اذن ـ وكما هو ثابت من كتاب «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية القرطبى ـ لم تكن السفن إلا من حاكم سبتة القوطى ، فكيف يقدم القائد الأموى أمام هذه الحقيقة التاريخية على إحراق سفن قدمها له رجل قوطى لتعينهم على نقل الجنود والعتاد ؟.

ومثل تلك الروايات الملفقة سرعان ما تكتشف زيفها عندما تعود الى أى مرجع تاريخى ، فقصة وصول العرب الى الأندلس واضحة كل الوضوح ، وليس فيها لبس أو غموض ، وبدايتها كانت عند سيطرة المسلمين على الشاطىء الأفريقى ، فيما عدا حصنا واحدا هو «سبتة» الذى استطاع حاكمه «يوليان» المرتبط بالامبراطورية البيزنطية الضعيفة المتهاوية أن يمنع سقوطه بسبب حكمته وتقربه من الحاكم العام لشمال أفريقيا «موسى بن نصير» واتصاله من قبل بحاكم طنجه القائد طارق بن زياد .

وكان هذا الحاكم هو أول من وجه أنظار المسلمين الى الشاطىء الأسبانى ، بل وعرض عليهم كل ما يملك من سفن لتحقيق الغزو والتخلص من خصمه اللدود .

وعندما فكر موسى بن نصير فى أن يعبر جبال البرانس ليمضى بفتوحاته إما الى «رومية» أو الى القسطنطينية فزع الخليفة الوليد بن عبد الملك لعلمه بأن هذه المحاولة لم يغامر بها أى قائد عسكرى من قبل ، وأنه لم يحدث فى أى يوم من الأيام أن اخترق أوربا جيش موحد من أسبانيا الى القسطنطينية بالذات ،

ولهذا استدعاه مع مولاه طارق بن زياد ، تاركين خلفهما الولاية لعبد العزيز بن موسى بن نصير الذى فتح بدوره الجزء الشرقى من شبه الجزيرة ، وأهمل الجزء الشمالى الغربى المسمى «جليقية» بسبب جوه الشديد البرودة ووعورة مسالكه !

وقد أصبح هذا الجزء الذى لم يتم فتحه من كل شبه الجزيرة شوكة فى ظهر العرب فى الأندلس ، فعليه قامت نواة الدولة الأوربية الأسبانية ، التى ما إن وصلت الى ذروة قوتها حتى تحركت لتقضى على حكم العرب للأندلس !

السلطانة الحزينة

والغريب أن سكان المدينة أنفسهم يقولون لك ، إنه بينما كانت أوربا غارقة فى ظلام الجهل ، كانت مكتبة مدينتهم فى القرن العاشر الميلادى تحتوى على ٤٠٠ ألف مجلد ، وكان بالمدينة ٧٠٠ مسجد و ٩٠٠ حمام !

وأثناء تجوالى فى أحياء المدينة القديمة التى يطلق عليها الأسبان اليوم لقب «السلطانة الحزينة» نظرا لما فقدته من مجد وسلطان ، وجدت أن السور الضخم الذى كان يحيط بها قد أصبح داخل الأحياء القديمة نفسها . . وهو أثر من الآثار العربية الباقية التى تدخل فى نطاقها قنطرة الوادى التى تطل عليها قلعة الحرة التى كانت مخصصة لزوجة الخليفة .

يضاف لكل ذلك مدينة الزهراء عند جبل العروس ، على مسافة أربعة أميال من قرطبة على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير والتى كانت المياه تصلها من العاصمة فى أنابيب .

والزهراء كانت جارية للخليفة الأموى الثامن عبد الرحمن الناصر ، وكان شغوفا بها الى أبعد الحدود ، لدرجة أنها ما إن طلبت منه أن يبنى لها مدينة تسمى باسمها حتى أسرع ليحقق طلبها ببنائها فى أول عام (٣٢٥ هـ) - كما ذكر المقرى فى كتابه نفح الطيب - وبالتدريج اتسعت المدينة الى أن وصل عدد أبوابها الى ١٥ ألف باب ، وكان يقوم ببنائها يوميا ١٠ آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة يتعاملون من شروق الشمس الى غروبها مع ٦ آلاف صخرة وكميات هائلة

أخرى من مواد البناء ، وقد أحضروا رخامها البديع من أفريقيا واسفاقس وقرطاجنة وبلاد الشام .

ويقول أحد الرواة إن سقف قصر الخلافة فى هذه المدينة كان محمولا على ٤٣١٢ عمودا من الرخام المتعدد الألوان الذى أحضروه خصيصا من فرنسا واليونان وايطاليا وأفريقيا ، وأن هذا السقف مع أرضية القصر كانا مصبوغين باللون الأزرق السماوى ومزينين بالذهب المقولب ، وكانت جدران هذا القصر من الذهب والرخام الغليظ بينما قراميده من الذهب والفضة !

وعندما اصطحب عبد الرحمن الناصر فى عام ٣٤٥ هـ جاريته لترى المدينة والقصر الملىء بالطيور والأغصان المورقة والورود ، سألها بعد أن رأت مالم تره طوال حياتها : مارأيك ؟ . . وأشارت له بدلال الأنثى الى جبل قرطبة الذى يطل على الزهراء وهى تقول : كل شىء جميل ، لولا هذا الجبل الأسود الذى يضاجعنى !

وكأن هذه الملاحظة كانت مجرد إشارة من حبيبة القلب ، فقد أسرع عبد الرحمن الناصر ملبيا طلبها مرة أخرى ، وزرع من أجل عينيها أشجار اللوز والصنوبر ، وعيدان الأزهار والرياحين ، وأغرب النباتات وأزهاها لونا ، ليتحول لون الجبل الأسود الى خلفية فى لوحة عناصرها أجمل الزهور والورود والأشجار !

وقد هاجم العديد من الباحثين تلك الرواية الشديدة الحبكة ، ومن بينهم عبد الحميد العبادى فى كتابه «المجمل فى تاريخ الأندلس» وقال إن ما أشيع حول علاقة هذه الجارية بالمدينة ليس إلا قصة ملفقة ، فلا يعقل أن ينشىء عبد الرحمن هذه المدينة الضخمة التى كلفها ثلث إيراد الدولة تكريما لجارية له تسمى الزهراء كان يحبها ، وإنما الحقيقة أن عبد الرحمن أنشأها مدينة ملكية على عادة الملوك فى تلك العهود ، ولعل هذا هو السبب فى سرعة تدمير هذه المدينة حينما زالت سلطة الدولة واستولى عليها الأعداء !

رؤيا صقر قريش

أما المسجد الجامع فى قرطبة فما زال يعتبر أعظم مسجد أقيم فى أوربا ،

بشهادة معظم المؤرخين الغربيين ، الذين أجمعوا على أنه ليس فى بلاد الإسلام أعظم ولا أروع ولا أتقن صنعة منه ، وأصبح يضرب به المثل فى الفخامة والجمال ، بل وكان أهل قرطبة يتباهون به على عواصم العالم .

وهذا المسجد أقيم على مساحة شاسعة تربو على ٢٢ ألف متر مربع ، وله سقف يرتفع إلى تسعة أمتار .

وهو يطل على ساحة واسعة تكتنفها أشجار البرتقال ، واستغرق بناؤه ٢٤٥ عاما ، ووضع أول حجر فى أساسه الخليفة الأموى عبد الرحمن الداخل عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) بعد أن سمع هاتفا يناديه وهو نائم : يا أمير المؤمنين اشكر الله على ما وهبك ، فقد نجاك من بنى العباس ، وعوضك ملكا وأتاك خيرا كثيرا ، فاشكره بعمل خالص له .

وكان عبد الرحمن الداخل قد سيطر تماما على البلاد فى تلك الحقبة ، واهتم بالعمران لتجميل عاصمته التى بنى حولها سورا يحميها ، وأقام فى ضواحيها منتجعا له أطلق عليه «منية الرصافة» وشيد قنطرة ضخمة يعبرها الماء العذب متجها الى المدينة ، ولم يبق إلا أن يقيم مسجدا للعبادة والصلاة يليق بجلال الرؤيا التى صمم على تحقيقها صقر قريش .

وقد أجمع أغلب الرواة الذين شاهدوا المسجد عقب انتهاء بنائه على أن كل أبوابه كانت مغطاة بصفائح من البرونز فيما عدا بابه الأوسط الذى كانت ترصعه صفائح من الذهب الخالص ، وقالوا إن أعلى المسجد كانت تزينه ثلاث قباب مذهبة تعلوها رمانة ذهبية ، وكان يضيئه فى الليل ٤٧٠٠ مصباح ، بينما كانت قبة محرابه مصنوعة من الذهب الخالص !

وفى القرن الثامن الميلادى كنت ترى حول المسجد الجامع أجمل البيوت والقصور والمساجد والمكتبات ، التى جعلت من قرطبة أهم المدن الثقافية فى أوربا بأكملها ، وكانت هناك ـ كما يقول فيليب . ك . حتى فى كتابه «مختصر تاريخ العرب» ـ أطوال هائلة من الشوارع المعبدة والمضاءة ليلا بمصابيح ، فى الوقت الذى لم يكن فيه بعد ٧٠٠ عام فى شوارع لندن غير مصباح عمومى واحد ، وكان من يجتاز عتبة بيته فى باريس فى يوم مطير يتعرض للغرق فى الطين حتى ما فوق عقبيه !

ومنذ استيلاء الملك فرناندو الثالث على قرطبة عام ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) وتسليمه المسجد الجامع لمطران طليطلة ، تم تحويله الى كاتدرائية دون أن يقتربوا من ملامحه الأصلية ، وأقاموا بين أعمدته الهياكل ، وأطلق عليه أهل البلاد اسم : المسجد الكاتدرائية !

وكان من عادة ملوك الأسبان عند استيلائهم على أى مدينة إسلامية أن يهدموا آثارها ، ولكنهم تراجعوا مبهورين أمام روعة عمارة هذا المسجد العظيم ، ولم يقدموا على مثل هذا العمل الكريه ، وإن كان أحد الأساقفة قد حاول أن يفعل ذلك ، فثار فى وجهه أهل المدينة وهددوا من يعمل معه بالقتل !

الوزير العاشق

وأتوقف فى مدينة قرطبة عند نصب تذكارى أقاموه فى ساحة المدينة مع نهاية الستينات للوزير والشاعر العاشق ابن زيدون بمناسبة مرور ٩٠٠ سنة على وفاته .

وأتعجب لأنهم وضعوا إلى جواره الأميرة الأموية والشاعرة الذكية الطاهرة «ولادة بنت المستكفى» التى عاشت عصر ملوك الطوائف ، ورأت الفتن السياسية والمحاولات المستميتة لتمزيق الأمة ، بعد أن جعلوا كف ولادة فى التمثال يعانق كف الشاعر الى أعلى ، واختاروا أبياتا للشاعرة وكأنها موجهة الى ابن زيدون تقول :

أغــارُ عليــكَ مـــن عينــى ومنــى
ومنـــكَ ومـــن زمـانِـك والمكـــان
ولـــو أنـــى حمـلتُـك فـى عيونـى
الـــى يـــومِ القيـــامـــةِ مــاكفــانـــى

واختاروا أيضا للشاعر كلمات يعبر بها عن خوالجه نحو الشاعرة بقوله :

يـامن غـدوت فـى النـاسِ مُشتهرا
قلبــى يُقـاسـى عليـك الهــم والفكــرا
إن غبـت لـم ألـقَ إنسانـا يؤانسنى
وإن حضـرتِ فكـلُ الناسِ قــد حضـرا

وأعتقد أنهم قد بالغوا فى قصة الحب ، وجروا وراء المؤرخين الذين حاولوا تلطيخ اسم الشاعرة عندما أشاعوا أنها كانت تكتب بالذهب على عاتقها الأيمن :

أنا والله أصلحُ للمعالى   وأمشى مشيتى وأتيهُ تيها

وكانت تكتب على عاتقها الأيسر :

وأُمكن عاشقى من صحنِ خدى   وأعطى قُبلتى من يشتهيها

وهما بيتان لا يوجد مؤرخ أتانا بما أكد أنها صاحبتهما فعلا ، وليسا مدسوسين على أشعارها التى تركت أثرا ما بعده أثر فى تاريخ الأدب الأندلسى ، فقد عاشت ولادة تسعين عاما ، وماتت فى نهاية القرن الخامس الهجرى عذراء لم يمسسها رجل طوال حياتها !

والواقع أن ابن زيدون أحب الشاعرة فى بداية شبابها حبا من جانب واحد ، ولذا انتهت قصة الحب بهجاء متبادل عبر سلسلة من الأحداث ، ذاق خلالها الشاعر مرارة السجن ظلما ، ومرارة عشق إنسانة تميل بقلبها لشخص غيره وتخلص له ، ولم يجد فى النهاية طريقا أمامه سوى أن يطردها من قلبه الى الأبد ، وأن يهجرها الى دنيا السياسة لعله يعوض هزيمته فى الحب من خلال بناء حاضره ومستقبله وسط المنافسات والمكائد السياسية !

ويبدو أن قرطبة قد خلدت أهم أعلامها فى عصور الأندلس ، وإن كانت قد تناست مغنيها الشهير زرياب الذى غنى فى دروبها ، وأضاف لأوتار العود التقليدى وترا خامسا ، واخترع مضراب العود من قوادم النسر !

فعند أسوار قرطبة العربية القديمة رأيت تمثالا لأكبر فلاسفة الإسلام ابن رشد الذى عاش فى القرن الثامن عشر الميلادى ، وقال عنه مؤرخو الغرب إنه من أعظم الفلاسفة أثرا فى الفكر الأوربى فهو مؤسس الفكر الحر ، وقد دعا النساء ـ فى فترة مبكرة ـ الى خدمة المجتمع والدولة كالرجال ، وأرجع الكثير من الفقر فى عصره الى الرجل الذى يمسك المرأة لنفسه وكأنها نبات أو حيوان أليف اعتقادا منه فى متاع يمكن أن توجه اليه كل المطاعن ، وهذا بدلا من أن يعطيها فرصة المشاركة فى إنتاج الثروة المادية والعقلية التى تحفظها والتى

تجعلها ذات فضائل أو على خلق عظيم !

وفي إحدى ساحات قرطبة رأيت تمثالا ثالثا للوزير الفيلسوف محمد على بن حزم الأندلسى ، الذى عاش فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وكان يؤمن بأن للعلم زكاة هى نشره وإذاعته ، والذى ملأ الأندلس بحركة فكرية واسعة ، اعتنق فيها مبدأ الأخذ بالعلم الصحيح والاعتماد على العقل والبرهان ، وعرض نظرية المعرفة قبل أن يقدمها «كانت» بسبعة قرون !

الشاعر الأمير

وإذا كانت مدينة قرطبة قد استغرقتنى وشدت كل انتباهى ، فاننى لا يمكن أن أنسى أشبيليه الجميلة برائحة زهورها وبرتقالها وزيتونها ، ونهرها البديع (الوادى الكبير) الذى يجرى فى غربها ، وجبلها الدائم الخضرة المسمى (الشرف) الذى يطل عليها بأغصانه المتشابكة ، وشوارعها الضيقة المتعرجة ، ومنازلها البيضاء اللون ذات الفناء الواسع الذى تزينه أشجار النخيل وتتوسطه أحيانا النافورة الأندلسية ، وكأنها تربط الحاضر بالماضى وتذكرنا بعشق أهلها للهو والمرح والاستمتاع .

وبحثت عن مسجدها الأعظم الذى أنشأه الخليفة يعقوب بن يوسف الموحدى فى عام (١١٧٢ م) وأكمله ابنه المنصور بالله عقب انتصاره فى معركة الأرك الشهيرة عام (١١٩٥ م) فوجدت أنه أزيل وبنوا فوقه كاتدرائية أشبيليه العظمى التى تعتبر ثانى كنيسة فى العالم فى ضخامتها وفخامتها بعد كنيسة روما ، تاركين إلى جوارها صحن المسجد القديم ومئذنته الشهيرة المعروفة «بالخيرالدا» وحوض الوضوء كآثار باقية تذكرنا بالمثل القائل : ويل للمهزوم !

كما اختفى كل أثر للسور العظيم الذى بناه الأمير الأموى عبد الرحمن الثانى لحماية المدينة من جهة البر .

أما القصر العربى الذى شيدت معظم تفاصيله وهندسته على الطراز الإسلامى فهو يسمى «الكازار» بعد أن أضافوا على نقوشه صورا ورسوما ، منذ

أن اتخذه ملوك الأسبان مقرا لهم بعد سقوط المدينة فى أيديهم ، وقد اختفت من ذلك القصر القديم كل الأبراج التى شيدت خصيصا لحمايته ، ولم يتبق منها غير برج واحد يطل على نهر الوادى الكبير ويسمونه «برج الذهب» .

وفى المدينة الصغيرة بحثت عن شاعرها وفارسها المعتمد بن عباد آخر ملوك بنى عباد (١٠٤٠ - ١٠٩٥ م) الذى أحب الأنس والطرب وتقلب فى الهوى ، وكاد يسقط ملكه تحت سنابك خيول الفونسو السادس ملك قشتاله ، لولا نجدة أمير المرابطين فى المغرب يوسف بن تاشفين الذى انتصر فى معركة الزلاقة فى بداية القرن الحادى عشر الميلادى ، وما كاد يسيطر على كل الأندلس حتى انقلب على المعتمد بن عباد فقتل ابنه وعامل زوجته وبناته فى قسوة بالغة ، وأخذه مكبلا بالقيود الى المغرب ليموت فقيرا فى مدينة اغمات بمراكش !

وقد اشتهرت زوجته باسم اعتماد الرميكية ، وكانت جارية جميلة تجيد الحديث والشعر ورواية النوادر ، التقى بها على ظهر مركب وهو يعبر النهر مع وزيره الشاعر ابن عمار ، وجاءت المصادفة عندما هبت الريح فجأة فقال المعتمد بن عباد لوزيره أجز : «صَنَعَ الريحُ من الماءِ زَرَدْ» فلم يستطع ابن عمار أن يكمل الشطر على الفور وسبقته الى ذلك «الرميكية» وهى تغسل ثيابها بقولها : «أىُّ درْعٍ لقتَالٍ لَوْ جَمَدْ» ، فأعجبه فصاحة ردها وجمال وجهها ، فعرض عليها الزواجَ ، وعندما وافقت اشتراها من سيدها رميك بن الحجاج ، لتصبح أما لأولاده ، ولتعيش معه حياة البذخ والترف حتى أنه فرش لها الأرض بالمسك والعنبر والكافور ، وظلت معه خير زوجة حتى عندما رافقته بعد سقوطه وأسره الى اغمات لتعانى معه حياة العوز والضنك حتى ماتت ودفنت بجواره فى هذا المكان المهجور !

دموع أمير الشعراء

وفى مدينة غرناطة أو «المملكة المطوقة» التى ظلت تقاوم فى بسالة طوال قرنين بعد الانحسار العربى فى الأندلس ، أدركت لماذا أحبها الشعراء والكتاب والفنانون وتغنوا بها فى قصائدهم ومجالسهم .

وعندما تجولت فى قصر الحمراء بأروقته وقاعاته وجمال أعمدته وأقواسه وأبوابه ونوافذه وقبابه ذات الزخارف الملونة ، تعجبت من بقائه حتى اليوم ، وتساءلت عن السر الذى جعل ملوك الأسبان القدامى بتعصبهم الدينى الشديد يتركون هذا الأثر الجميل دون مساس بعد هجران ملوك المسلمين للقصر ونهاية دولتهم ، ووجدت الإجابة عن هذا التساؤل عند «الدكتور عبد العزيز الدولاتى» الذى قال فى دراسته عن قصر الحمراء إن عدم التسامح الدينى للأسبان الكاثوليك سابقا لم يمنعهم من تقدير إبداعات الفكر والفن العربى الإسلامى ، فقد سمحت لهم معاشرتهم الطويلة لدولة الأندلس بمعرفة تراث خصومهم المسلمين والاستفادة منه أحيانا ، حتى أنهم عندما بسطوا نفوذهم على كامل الجزيرة ، سكن ملوكهم قصور الحمراء وأمروا بصيانتها وخصصوا لها الأموال الطائلة .

وقد أجمع كل من زار قصر الحمراء على أن أهميته لا تعود الى تخطيطه وبنائه فقط ، ولكن الى المهارة الفنية النادرة لزخارفه والى براعة نحوته المتمثلة فى مجموعة السباع الإثنى عشر الموجودة فى وسط الصحن المستطيل والتى تحيط بفسقية مستديرة ذات طابقين وتخرج المياه من أفواهها لتصب فى أربعة جداول .

وعندما زار أمير الشعراء أحمد شوقى الأندلس بكاها أمام قصر الحمراء بقوله :

آخرُ العركِ بالجزيرةِ كانت
بعدَ عَرْكٍ من الزمان وضَرس

فتراها تقولُ : رايةُ جيشٍ
بَادَ بالأمس بين أسْرٍ وحَس

الحلم والشمس

وفي المدينة العريقة سألت عن يحيى بن باجه وأبى بكر بن طفيل ، فلم أجد لهما أثرا رغم أنهما من أبناء المدينة ، ولهما فضل عظيم على العلوم الإنسانية اعترف به العالم كله !

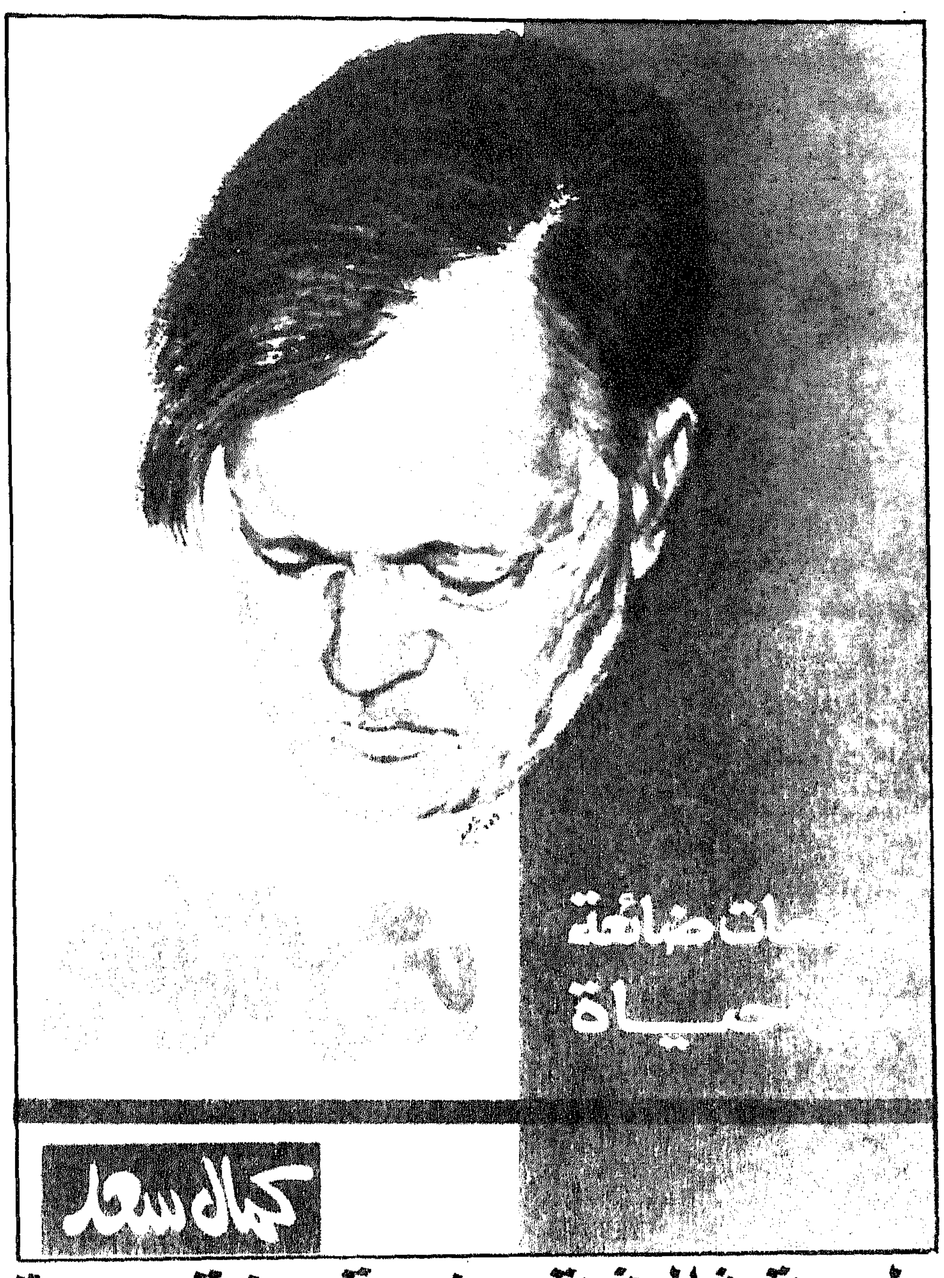
ابن باجه كان من الفلاسفة العظام الذين ظهروا فى الأندلس فى أواخر القرن الحادى عشر ، واشتهر بالطب والفلك والرياضة والهندسة ، وبحث فى الحقيقة والعدل ، وطالب الحكام بالابتعاد عن الملذات العامة والمنازعات المدمرة ، وهو القائل بأن الحياة السعيدة يمكن نيلها بالأفعال الصادرة عن الروية وتنمية القوى العقلية تنمية خالصة من القيود !

أما ابن طفيل الأندلسى الذى عاش فى القرن الثانى عشر الميلادى فمازالت فلسفته تنال دهشة وأعجاب كبار رجال الفكر فى العالم ، ولعلنا عرفنا رائعته التى كانت مصدر إلهام لكثير من كتاب الغرب وهى رسالة «حى بن يقظان» التى ترجمت الى جميع اللغات الأوربية ، وقال لنا فيها إن الانسان يستطيع دون معونة من الخارج أن يصل الى معرفة العالم العلوى ويهتدى الى معرفة الله وخلود النفس .

ورغم وداعى لغرناطة على أمل أن أعود إليها مرة أخرى لأقضى بها وقتا أطول ، أحلم فيه مثل كل الحالمين بتلك الأيام التى تحولت فيها مدينة واحدة إلى جدار عظيم أوقف يأس المهزومين فى الأندلس ، فمازالت خفقات قلبى تدق فى اشتياق كلما مر بخاطرى طيف قصر الحمراء الذى تدخله فى وضح النهار أشعة الشمس طوال العام من ٣٦٥ نافذة ، تحدق فى صفحات الوجود بعيون باكية ، أعشاها الحزن منذ ضياع أزهى عصور الحضارة العربية !



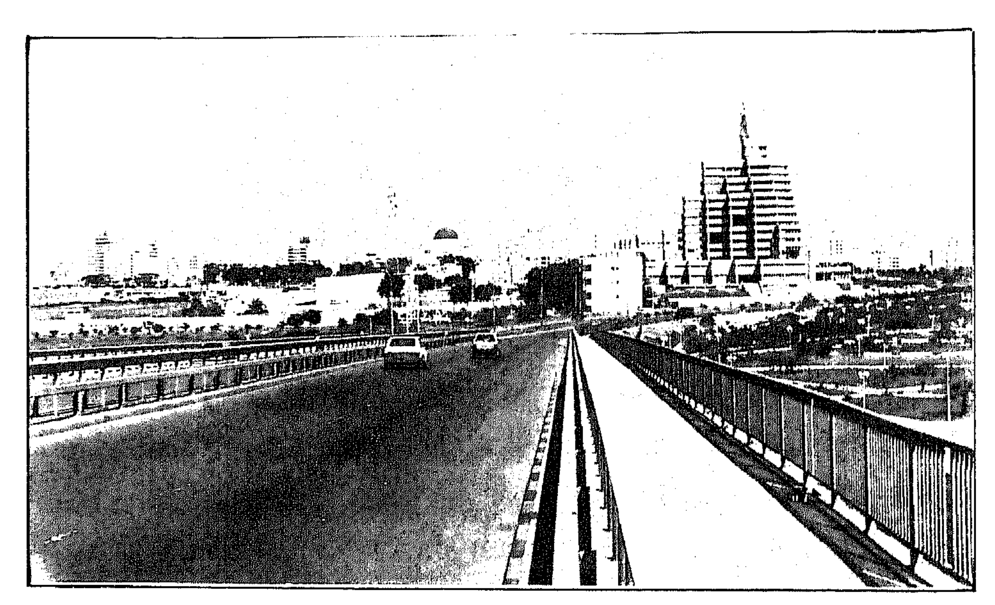
تحت الطبـع

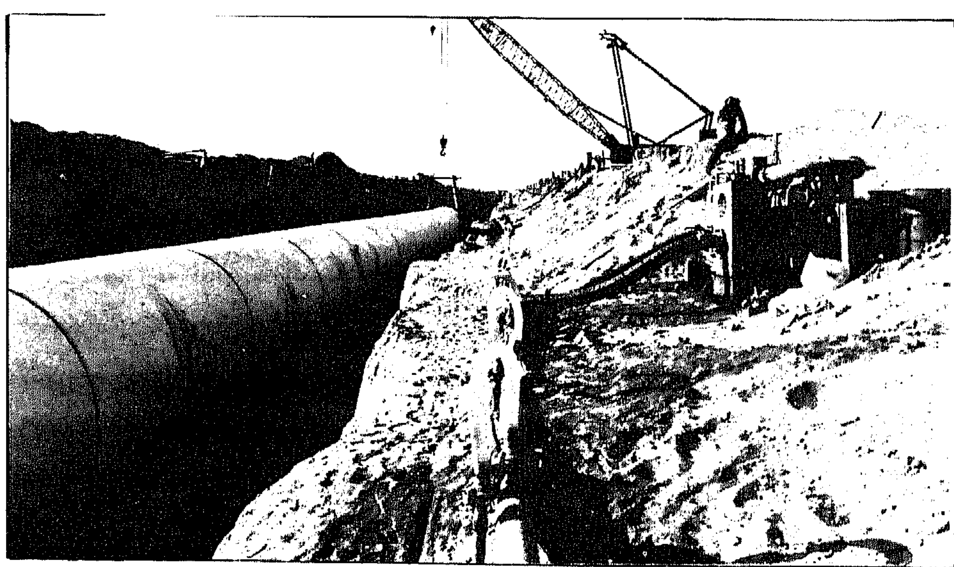


طبعة ثالثة مـزودة ومنقحـة

بعد أن نفـدت الطبعتان الأولى والثانيـة

من بنغـــازى
إلى النهر العظيم





كنت على موعد مع النهر الصناعى العظيم فى بلد بلا نهر !

وكان لابد من أن أنطلق من مدينة بنغازى الليبية فى رحلة عبر أرض عذراء ، لأرى على الطبيعة كيف حول الإنسان أحلامه الدافئة إلى واقع حى ينبض بالخير والعطاء .

ومنذ وطئت قدماى هذه المدينة العربية الساحلية ، لم أشعر بالغربة ، فكأننى قد وصلت توا إلى مدينة الاسكندرية التى هى أقرب إلى مدن السواحل الليبية منها إلى مدن الصعيد « الجوانى » !

وزاد من إحساسى بقوة هذا التقارب عندما عرفت أنهم أثناء سنوات الجفوة مع مصر ، سموا فى بلدية بنغازى وحدها ٩٨ شارعا بأسماء مصرية ، وتأكدت من صدق هذا الكلام عندما تجولت فى شوارع : جمال عبدالناصر ، الاسكندرية ، ٢٣ يوليو ، العريش ، المنوفية ، المعمورة ، وغيرها .

لم أشعر فى مدينة بنغازى « ثانى أكبر مدن الجماهيرية » بوحدة المكان وتقاربه فقط ، وإنما غمرتنى موجة من الود والحب مبعثها أواصر قوية تشكلت على مدى سنين ودهور بين المصريين والليبيين ، فقد صنع الجوار الجغرافى ما هو أكثر من الامتداد الطبيعى ، فالإنسان فى الساحل الشمالى الذى يمتد من برج العرب غرب الاسكندرية وحتى مدينة السلوم المصرية المواجهة لمدينة مساعد الليبية ، هو امتداد سكانى تربطه علاقات الدم والقربى ، حيث تعيش فى هذه المنطقة التى تمتد أعماقها إلى غرب الدلتا والفيوم والصعيد الأوسط ، أصول سكانية لها جذور مشتركة .

وحول تلك الأصول أكد الدكتور جمال حمدان فى كتابه القيم « الجمهورية العربية الليبية - دراسة فى الجغرافية السياسية » تلك العلاقات الحميمة والبعيدة المدى التى ربطت ليبيا مع المشرق وخاصة مصر التى كانت تلقى بظلها الحضارى على برقة ، وكيف كانت هجرة الليبيين إلى مصر القديمة لا تنقطع ، ومؤثراتهم العرقية ثابتة حتى اليوم فى عدة قرى ومدن مصرية ، وقال إنه فى القرن الأخير كانت مصر ملجأ وملاذا للاجئين الليبيين أيام الفاشية الإيطالية ، ومنها اتخذوا قاعدة الاحتشاد والانطلاق والتحرير .

وإذا كانت مدينة بنغازى بصورتها الراهنة تميزها الشوارع الواسعة والحدائق الغناء وأجمل البنايات والفنادق الحديثة ، فإن جذورها تمتد إلى الربع الأول من القرن السادس قبل الميلاد عندما أسسها الإغريق لتصبح درة مشرقة بين مدنهم الهامة ، واختاروا لإقامتها موقعا بديعا يرتفع عن الأرض عند الطرف الشمالى لسبخة « السلمانى » التى هى بقعة تغمرها المياه المالحة صانعة بحيرة عميقة يستقبل السكان من خلالها المراكب الصغيرة ذات الأشرعة البيضاء !

كان اسم بنغازى فى العصر الإغريقى « يوسبريدس » ، ثم انتقل سكانها إلى موقع جديد بالقرب من البحر المتوسط ، ليتغير اسمها فى القرن الثالث قبل الميلاد إلى « برنيكى » على أيام البطالسة وتكريما لزوجة بطليموس الثالث ، وما إن وصل الإسلام إلى المنطقة حتى سموها « برنيق » ثم « بنغازى » فى القرن الخامس عشر ، ومازال الاسم على حاله منذ ذلك التاريخ ، وإن كان الأهالى قد أصبحوا يطلقون عليها اليوم « بلدية البيان الأول » حيث أذيع منها أول بيان للثورة الليبية فى الفاتح من سبتمبر ١٩٦٩ .

رحلة للأراضى العطشى

من مدينة بنغازى العريقة كنت على موعد مع رحلة طويلة لرؤية تجربة فريدة من نوعها ، تؤكد أبعادها قدرة الإنسان العربى على أن يصنع المستحيل ولا يستسلم لمعطيات الطبيعة القاسية .

لقد كان النهر الصناعى العظيم حلما فأصبح حقيقة واقعة ، هدفها خلق مجتمع جديد يعيد صياغة الحياة فوق الرمال الصفراء التى عانى أبناؤها من شظف العيش على مر السنين نتيجة للجفاف والمخطط الاستعمارى الذى حرص على أن تبقى الأرض العربية جدباء لا نبت فيها ولا ماء !

ورغم أن سر الحياة كان يرقد فى بحيرات جوفية تحت الرمال الليبية منذ آلاف السنين ، فإن إرادة الإنسان المقهور كانت مفقودة ، وكانت الأيدى المفجرة لينابيع الماء مقيدة ، حتى نبت من هذه الأرض ثائر صلب هو « عمر المختار » الذى رفض أن يستسلم لأى قهر أو طغيان ، وأعطى المثل بشهادته

فى نبل رسالة هؤلاء الذين يضحون بأرواحهم ويرفضون بكل الوسائل الاستسلام لأى قهر أو طغيان ، وهكذا سار على دربه ـ بعد ذلك ـ كل أبناء الشعب العربى الليبى الذين انتزعوا بكل الوسائل إرادتهم الحرة التى تفجرت فى الفاتح من سبتمبر ، ومضت فى قوة وحيوية تصنع الحياة الجديدة فوق هذه الأرض العذراء !

وكان مشروع النهر الصناعى العظيم إحدى ثمرات هذه الإرادة الحرة ، فهذا المشروع الذى ظل لسنوات طويلة حلما يراود القيادة السياسية الليبية وتبرع من أجله كل أفراد الشعب الليبى بالحلى والمال ، أصبح واقعا ينبض بالحياة فى قلب الصحراء من السرير وتازربو والكفرة ، متدفقا نحو الشمال عبر أنابيب ضخمة يصل قطرها إلى أربعة أمتار خلال أطول رحلة يقطعها الماء العذب !

وعندما وضعوا حجر الأساس لهذا المشروع الكبير ، كان الحدث الضخم يمثل فرحة فى كل بيت ليبى ، فهم على موعد مع المخزون الهائل للمياه الذى سيتدفق من الصحراء إلى المدن والقرى على الساحل الليبى .

وفى مشهد تاريخى يوم ٢٨ أغسطس ١٩٨٤ وخلال الاحتفال ببداية المشروع ، وقف العقيد معمر القذافى قائد الثورة الليبية وسط مواطنيه فى منطقة السرير مؤكدا لهم أن العرب هم الذين بنوا إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد ، وهم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد وبنوا سد مأرب التاريخى الشهير . . وهم بناة الأهرامات تلك الأوتاد العظيمة ، وهم الذين يضعون اليوم حجر الأساس لمشروع النهر الصناعى العظيم ﴿ وجعلنا من الماء كل شىء حى ﴾ لإعادة صياغة الحياة فوق الأرض التى أصبحت حرة .

وبعد عامين بالضبط من هذا الحدث الهام تم افتتاح مصنعين للأنابيب الضخمة بمنطقتى البريقة والسرير ، ليبدأ الانتاج الفعلى على الفور لتصنيع ما يقارب ١٩٠٠ كيلومتر من الأنابيب الخرسانية سابقة الإجهاد ، ولتتحول الصحراء إلى ورشة عمل فى أضخم مشروع من نوعه فى العالم من حيث المعدات المستخدمة ومواد التصنيع والتركيب وطول مسار خط الأنابيب التى ستنقل مياه مشروع النهر الصناعى العظيم عبر الصحراء ، فعملية نقل

الأنابيب الثقيلة ـ وحدها ـ تحتاج إلى جهد شاق وسيارات من نوع خاص ، فكل أنبوبة يصل وزنها إلى ٧٣ طنا ، ولايمكن حملها من المصنع إلى موقع التركيب إلا فوق أطقم كبيرة من الشاحنات ، ذات القاطرات الكبيرة والقادرة على السير فى المناطق الوعرة ، وعندما تصل إلى موقع التركيب بالخنادق الممتدة لمسافات هائلة والتى تم حفرها بعمق سبعة أمتار ، فإنها تجد دائما فى انتظارها الرافعات الكبيرة المساندة بالجرارات الثقيلة التى تقوم بعملها فى إيصال الأنبوب إلى العمق لتبدأ منظومة التلاحم بين الأنابيب فى مسار هائل ، يرى الخبراء أنه لو امتد فى أوربا الغربية لقطع فيها ثلثى الخطوط البرية التى تربط بينها ، ويرون ـ أيضا ـ أن مجرد مسار خط الأنابيب الذى يربط عملية نقل المياه من جبل الحساونة (الحمادة الحمراء) إلى منطقة طرابلس يساوى تقريبا طول خط مستقيم يمتد من شمال بريطانيا إلى جنوبها !

لماذا هذا المشروع ؟

قبل رؤيتى لمشروع النهر الصناعى العظيم كنت لا أتصور قيام مثل هذا الانجاز الضخم فى بلد بلا نهر . . وكان يساعد على هذا التصور ذلك الحاجز الغريب الذى صنعته سنوات من الفرقة والبعاد بين جارتين ارتبطتا منذ القدم بأوثق الوشائج ، وجاءت ثورتاهما لتدعيم تلك الروابط حتى تصبح سدا منيعا فى وجه كل المحاولات الرامية إلى تحويل الوطن العربى إلى دول منعزلة ضعيفة ومبعثرة !

ولهذا فقد حرصت على أن أكون منصفا فى رؤيتى لحقيقة المشروع الكبير الذى رأيت كل مراحله رأى العين ، وكان ثمرة حقيقية من ثمار كفاح أشقائنا الليبيين الذين يصرون على تخطى كل العقبات التى تقف فى طريق نهوضهم بالزراعة وتحقيق أقصى قدر من الإنتاج الغذائى .

فى البداية جمعنى اللقاء مع الرجل الذى يتابع عن قرب كل أحداث المشروع ، والذى يمسك بين يديه كل الخيوط الإدارية والتنفيذية ويعمل مع مجموعة من الخبراء والفنيين بروح الفريق الواحد .

سألته أولا : لماذا هذا المشروع ؟

وكانت إجابة المهندس محمد أحمد المنقوش أمين اللجنة الشعبية لجهاز تنفيذ وإدارة النهر الصناعى العظيم تصل إلى هدفها من أقصر الطرق ، فالمياه هى مشكلة ليبيا الرئيسية عبر التاريخ ، فهم يعتمدون فى الدرجة الأولى على مياه الأمطار والمياه الجوفية التى أصبحت تتناقص باستمرار ، وكان هذا معناه أن يلجئوا كما لجأ غيرهم إلى تحلية مياه البحر التى وجدوا ثمنها باهظا فى الزراعة على طول الشريط الساحلى ، وهكذا بدءوا يفكرون فى البحث عن مصادر للمياه أقل تكلفة ، حتى جاءت المصادفة البحتة لتنقذهم من الاستمرار فى البحث ، عندما كانت إحدى الشركات تبحث عن البترول فى جنوب الكفرة وحفروا ٩ آلاف قدم تحت الأرض ليفاجأوا بتدفق المياه بصفة مستمرة ، وكان من نتيجة تلك المفاجأة اكتشاف مخزون هائل من المياه فى باطن الأرض يفوق كل التخيلات ، واتضح أن هذا المخزون فى أحواض تفصلها فوالق طبيعية بما يشبه السد !

ففى حوض الكفرة مثلا أقل رقم تقديرى للمياه هو ٣٤٠٠ كيلو متر مكعب بينما الدراسات المتفائلة أكدت أن الكمية أكبر من ذلك بكثير فهى تصل إلى ٢٢ ألف كيلو متر مكعب ، وبترجمة بسيطة لأقل الأرقام يتضح لنا أن فى هذا الحوض ٣٤٠٠ ألف مليون متر مكعب (الكيلو متر المكعب ألف مليون متر مكعب) ولو استغللنا ١٠٪ فقط من مخزون المياه ، أى حوالى ٣٤٠ ألف مليون متر مكعب ، وسحبنا ٣ ملايين متر مكعب يوميا من هذا الحوض ، لكان معنى ذلك أن مياهه تكفى ٣٤٠ سنة على الأقل !

رحلة الماء

ولكن كيف يتم نقل المياه إلى الشمال والمسافة من الكفرة إلى أول منطقة فى الساحل تصل لحوالى ألف كيلومتر ؟

بدأت الآراء تجمع على ضرورة إقامة قناة فى خندق مفتوح بأنابيب إما خرسانية أو حديدية ، وبعد الدراسات المتعددة تم الاتفاق على أن تكون الأنابيب من الخرسانة المسلحة السابقة الإجهاد ، فهى أرخص كما أن موادها الخام متوافرة محليا .

وهكذا بدأ العمل فى تنفيذ المشروع فى عام ١٩٨٤ ، وليتم وضع الأنبوب الأول فى القنوات المفتوحة فى نهاية عام ١٩٨٦ ، وكان هذا الأنبوب بقطر داخلى أربعة أمتار ـ هو بكل المقاييس أكبر قطر ممكن تصنيعه من الخرسانة المسلحة ـ كما روعى فى تصنيع تلك الأنابيب تحملها لكل الضغوط المختلفة والتى تصل فى بعض المناطق إلى ٢٦ ضغط جوى .

وفى الوقت نفسه الذى كان العمل فيه يتم على قدم وساق لتجهيز مصنعى إنتاج الأنابيب الضخمة ، كانت هناك عملية أخرى تتم فى سرعة بالغة لتجهيز الطرق الخاصة المعبدة التى تستطيع أن تتحمل شاحنات هذه الأنابيب بأوزانها الثقيلة ، واستطاعوا فعلا أن يجهزوا ١٢٠٠ كيلومتر طرقا جديدة على امتداد قنوات الحفر التى ستوضع بها الأنابيب .

وعقب تجهيز تلك الطرق بدأت الخطوات التالية لتنفيذ المرحلة الأولى من المشروع التى تنتهى تماما مع بداية عام ١٩٩١ ، وهو التاريخ الذى تتم فيه عبر الأنابيب الخرسانية عملية نقل مليونى متر مكعب من المياه يوميا من حقل سرير ، ومليون أخرى من حقل تازربو فى المنطقة نفسها ، يلتقيان عبر خطين متوازيين فى منطقة أجدابيا ، ليتفرع منهما خط آخر للمياه حتى المنطقة الواقعة بين بنغازى شرقا وسرت غربا .

وفى المرحلة الثانية للمشروع يتم نقل كمية المياه نفسها من حوض مرزوق وجبل الحساونة ووادى الشاطىء إلى المنطقة الساحلية فى غرب الجماهيرية .

ويتضمن المشروع كذلك خط أنابيب آخر لنقل المياه من أجدابيا إلى طبرق ليتم فى النهاية ربط مدينة سرت بمدينة طرابلس ، وليغطى هذا المشروع فى مرحلته الأخيرة احتياجات كل المناطق من المياه داخل الجماهيرية .

وقد وصلت تكاليف عملية نقل المياه فى المرحلة الأولى إلى ٤٥٠٠ مليون دولار ، وما تم إنجازه من هذه المرحلة وصل إلى ٧٠٪ ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه إجراءات توقيع عقد مع نفس الشركات التى عملت فى

المشروع ، لتبدأ عملية المرحلة الثانية بتكلفة لنقل المياه تصل إلى ٥ آلاف مليون دولار .

بداية الرحلة

لقد بدأت رحلتى مع النهر الصناعى العظيم ، عندما حملتنى سيارة إلى مواقع المشروع .

كانت البداية فى البريقة وهى منطقة هامة للصناعات النفطية ، حيث يوجد بها مجمع للبتروكيماويات وميناء تصدير للنفط ومصفاة ومصنع غاز ، إضافة إلى شهرتها كمنطقة للرعى .

وقد تم اختيار هذه المنطقة لإقامة أحد مصانع إنتاج الأنابيب الخرسانية الضخمة سابقة الإجهاد ، باعتبارها مكانا وسطا قريبا من خط الأنابيب .

وداخل هذا المصنع الضخم ـ بكل معنى الكلمة ـ والمقام على مساحة كيلومترين مربعين والذى يضم ١٥٠٠ عامل ، عرفت أن هذا المصنع هو واحد من ثلاثة مصانع لإنتاج الأنابيب للمشروع ، تم تشغيل مصنعين منها ، هذا المصنع ومصنع آخر فى منطقة السرير أكبر خمس مرات من أكبر مصانع للأنابيب فى العالم ، وبهذه المصانع أصبحت الجماهيرية أول دولة فى العالم فى صناعة الأنابيب من هذا النوع الهائل .

وسيحقق المصنعان الاكتفاء الذاتى من أنابيب المياه ، فقد بلغ إنتاجهما ١٤٠ ألف أنبوب عام ١٩٨٩ ، والباقى حوالى ١١٠ آلاف أنبوب ، لأن كل كيلو متر يحتاج إلى ١٣٠ أنبوبا ، والمطلوب من هذين المصنعين أن يقوما بتغطية الأنابيب لما يقرب من ١٩٠٠ كيلومتر ، لتمتد من أعماق الصحراء الليبية حاملة مياه ٢٧٠ بئرا فى تازربو والسرير تصل طاقتها الإنتاجية مليونى متر مكعب من المياه الجوفية فى اليوم ، تصب فى الخزان الرئيسى بالقرب من أجدابيا فى خليج سرت ، وتواصل رحلة الخير والنماء منها إلى شمال شرق بنغازى وغربا إلى سرت .

وعلى طول الطريق كان المشهد مثيرا للغاية ، فآلاف الأنابيب توضع فى

الخنادق العميقة بآليات خاصة بعد أن تم حفر الملايين من الأمتار المكعبة لكل أنواع التربة . .

وقد توقفت عند مواقع عدة للمشروع تظل ماثلة فى الأذهان لا تبارحها مثل خزان التجميع بأجدابيا وخزان « سرت » الذى ستكون سعته التخزينية مع خزان بنغازى حوالى ١١,٥ مليون متر مكعب من المياه .

وكل تلك المشاهد وغيرها التى رأيتها بطول الطريق ، تؤكد ضخامة هذا المشروع الذى يقال إن كمية الخرسانة التى استخدمت فى تصنيع أنابيبه تكفى وحدها لإنشاء طريق طوله ١٢ ألف كيلومتر ، أى من الجماهيرية الليبية إلى استراليا !

الحياة الجديدة

وكان لابد بعد تلك الرؤية من أن أتطرق إلى سؤال ملح : كيف سيتم استخدام كل تلك المياه ؟ . .

قالوا إن المرحلة الأولى من المشروع تستهدف استصلاح وزراعة مساحة ٦٥ ألف هكتار موزعة على عدد من المشروعات الإنتاجية تمتد من جنوب غرب بنغازى شرقا إلى منطقة سرت غربا ، وحددت الدراسة المساحة المروية وفقا لكمية المياه المقرر نقلها بعد استقطاع الحد الأدنى منها للأغراض الصناعية والبشرية .

وبعد مراجعة دراسات التربة قام فريق من المتخصصين بجولات استكشافية ما بين منطقتى بنغازى ووادى ثابت لاختيار أنسب المواقع المحتمل توافر العناصر الأساسية لاستثمارها بنظام الرى الدائم ، وتمت فعلا الدراسة لمساحة ١٣١ ألف هكتار من الناحية الحقلية والمعملية وتصنيف التربة ، وقاموا برسم الخرائط ووضع التقارير النهائية لمعظمها ، وعلى ضوء تلك الدراسة تم تحديد المساحات القابلة للاستثمار والتركيب المحصولى المقترح والاحتياجات المائية للمحاصيل المختلفة .

أما بالنسبة للانتاج الحيوانى القائم على استثمار مياه النهر الصناعى

العظيم ، فيعد مكملا لأنشطة الإنتاج النباتى . ويهدف إلى تحويل الأعلاف المنتجة ومخلفات الإنتاج النباتى إلى وحدات لإنتاج اللحوم والألبان حتى ترتفع معدلات الاكتفاء الذاتى منها .

وبالطبع ، هناك أهداف أخرى لمشروع النهر أهمها عملية الاستيطان السكانى ورفع مستوى المعيشة لعدد من الأسر وتوفير متطلباتها من الخضر والفواكه واللحوم وخاصة فى كل من بنغازى والبريقة وراس لانوف وسرت ، مع توفير الدخل المناسب لتحويل جزء من العمالة فى قطاع الخدمات إلى قطاع الإنتاج الزراعى .

وقد قدرت الميزانية الاستثمارية لتنفيذ مشروعات استثمار مياه المرحلة الأولى لمشروع النهر الصناعى العظيم بحوالى ٦١٠ ملايين دولار ، مع ملاحظة أن هذا الرقم لا يشمل تقديرات المشروعات الصناعية .

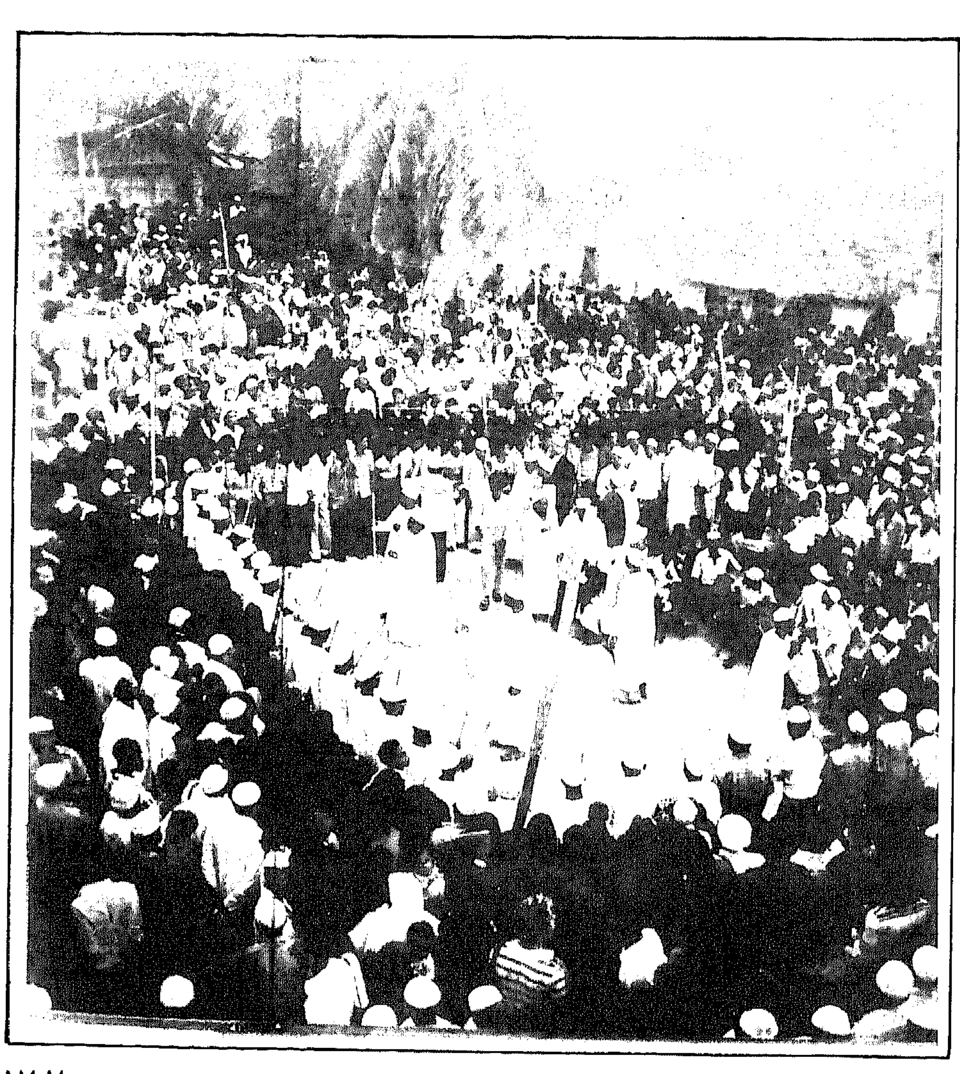
أما البرنامج الزمنى لتنفيذ تلك المشروعات فهو يستغرق ما بين ٢٥ إلى ٤٨ شهرا .

وهكذا نرى أن هذا المشروع العملاق الذى يجرى تنفيذه على أرض عربية ، هو نقطة ارتكاز جديدة ، تنطلق منها الثروة الطبيعية الكامنة فى أرض الوطن العربى ، لتغير من ملامح هذه الأرض الطيبة ، وتدفع استثماراتها فى الاتجاه الصحيح ، وتكسر احتكار الأسواق الأجنبية التى مازالت تتحكم فى غذاء المواطن العربى ومقدراته وتجعله غير سيد لقراره .

إن هذا المشروع فى مجمله يعد كسبا اقتصاديا كبيرا لاقتصاديات الوطن العربى ككل فى مواجهة تكتلات اقتصادية عالمية تحاول أن تحتكر لنفسها الثروات الغذائية وتتحكم فى أسعارها وتوزيعها .



مسلمون منسيون على المحيط الهندى !



لم أكن أصدق أن على ساحل المحيط الهندى مسلمين فى حالة عزلة تامة عن المجتمع الإسلامى ، إلا عندما زرت المدن الثلاث التى يعيشون فيها حياتهم كمواطنين من الدرجة الثالثة !

فعندما زرت مومباسا وماليندى ولامو وهى مدن عربية على سواحل كينيا التى يعيش بها ثلاثة ملايين مسلم ، وجدت أنه لا توجد فى هذه المدن مدرسة عربية واحدة ، وإن كانت هناك بعض الكتاتيب التى ألحقها السكان المسلمون بالمساجد لتحفيظ القرآن للبنات والصبية بمجرد وصولهم الى الرابعة من أعمارهم ، وفى هذه الكتاتيب يقوم « سيدنا » بالتدريس فيها دون تقاضى أى راتب من الدولة ، فهو يعتمد على أولياء الأمور الذين يدفع له الواحد منهم فى أول كل شهر خمسة شلنات ، أى حوالى جنيه مصرى واحد !

وهذه المدن ـ أيضا ـ مع الأسف لا توجد بها مكتبة إسلامية أو عربية واحدة تساعد الطلاب على تطوير معارفهم ، فقد شكا لى الكثير منهم فى مرارة قائلين : تصور أنه طوال السنوات الماضية لم يرسل الينا كتاب إسلامى واحد من أى دولة عربية أو إسلامية !

وأثناء تجوالى فى المدن الثلاث لاحظت كثرة بيوت الله وكثرة المترددين عليها ، فسألت عن تعداد المساجد فى المدن الثلاث وهل هى كافية ؟ وجاءنى الجواب ليؤكد مدى تعلق السكان وحماسهم لدينهم ، بدلالة أنهم بنوا ١٥٠ مسجدا بالتبرعات والجهود الذاتية ، رغم ما يعانونه من شظف العيش وضيق فى الحياة الاقتصادية !

واستغربت عندما وجدت أسماء المساجد مكتوبة على أبوابها باللغة الانجليزية ، ولكننى عرفت أن القوانين هنا لا تسمح لهم بكتابة أى لافتة باللغة العربية ، بداية من دور العبادة الى المحلات التجارية والمطاعم والأسواق والفنادق الموجودة فى هذه المدن .

وأثناء لقائى ببعض الشخصيات الإسلامية فى تلك المدن قالوا لى إن معظم المسلمين فى كينيا إما على المذهب الشافعى أو على مذهب أبى حنيفة ، وإن من بينهم عددا من الشيعة ، وإن نسخ القرآن الكريم تصلهم إما من سنغافورة

أو من باكستان والهند ، وإن الكثير من تلك النسخ تصلهم وبها أخطاء تجعلهم يتوجهون بندائهم الى الأزهر الشريف والهيئات الاسلامية فى الدول العربية ، حتى يوفروا لهم نسخا من الكتاب الكريم تحافظ على الرسالة الإسلامية بصورتها الأمينة التى تطمئن لها القلوب ، وحتى تحمى الأجيال الناشئة من خطر تشويه عقيدة الإسلام !

وعرفت من خلال حديثى معهم أن المسلمين فى كينيا لا يزورون الأضرحة ويعتبرون ذلك ضد الدين ، كما أن الغالبية العظمى من المسلمين فى كينيا يوجدون فى مدن الساحل الممتد ٤٨٠ كيلو مترا على المحيط الهندى ، فى مناطق تحيطها مساحات من ألوان الطبيعة الخلابة التى لا يوجد مثيل لها فى العالم ، مثل مومباسا وماليندى ولامو وقانجا وتاكونجى وكليفى وغيرها .

وفى هذه المدن الساحلية نرى أعدادا كبيرة من مواطنى كينيا ذوى الأصل العربى ، الذين جاءوا من مسقط وعمان وحضرموت ومصر والكويت ، ومازالت عاداتهم العربية الإسلامية كما هى رغم مضى مئات السنين على استقرارهم ، فهم يكرمون الضيف ويمدون صوانى الفاكهة امام الحاضرين ويصبون القهوة الى أن تهز « الفنجال » فى يدك مكتفيا بما شربت !

ويوجد المسلمون أيضا فى وسط كينيا ، ولكن بصورة أقل من وجودهم على الساحل ، فهم يعيشون فى العاصمة نيروبى وفى نيرى ونيوكى وغيرها ، بين قبائل كامبا وككويو المشهورة بحب التجارة .

أما بقية الثلاثة ملايين مسلم الموجودين فى كينيا وسط شعب تعداده حوالى ١٣ مليون نسمة ، فستجدهم فى منطقة يطلق عليها اسم «نيانزا » خاصة بين قبائل جالو ولوهيا وعناندى وغيرها التى يشتهر أفرادها بالقوة والشجاعة والتى يوجد بها أعداد كبيرة من السكان الكينيين ذوى الأصل اليمنى !

وكل السكان العرب فى تلك المناطق لايحفظون غير عدة كلمات عربية ، بينما يتحدثون فى طلاقة اللغة السواحلية !

ويرجع تاريخ اللغة السواحلية إلى القرن الثانى الميلادى ، عندما اختلط

العرب بالأفريقيين على الساحل ، وأقاموا بينهم ، وتزوجوا من أهلهم ، وأدى هذا الاتصال الى نشأة اللغة السواحلية التى هى مزيج من اللهجات المحلية المختلفة التى يتخللها ١٩ حرفا عربيا ، وتعتبر هذه اللغة اليوم لغة شبه رسمية فى شرق أفريقيا !

أحفاد العمانيين

ولكن متى جاء العرب إلى سواحل تلك المدن ؟ .

المصادر التاريخية تؤكد أن العرب التقوا بالأفريقيين أثناء الرحلات البحرية منذ قبل الميلاد .

وفى عام ٨٦٠ ميلادية غزا العمانيون سواحل كينيا عن طريق مقديشيو ، وذلك بعد أن أصبح للعرب دولة إسلامية عظيمة توسطت العالم ، وأطلت على البحرين المتوسط والأحمر ، وعلى المحيطين الهندى والأطلنطى ، فمنذ ذلك الحدث الكبير ، أصبح العرب يجوبون كثيرا من جهات البر والبحر فى آسيا وأوربا .

وفى القرنين التاسع والعاشر بالذات وصل التجار والرحالة المسلمون الى بلاد الهند والصين برا وبحرا ، واستقرت جماعات إسلامية فى بعض موانىء الصين ومنها (كانتون) قبل أن يصل اليها البرتغاليون بأكثر من أربعة قرون ، ووصلوا ايضا جزر الهند الشرقية المعروفة الآن باسم أندونيسيا ، ووصلوا الى الملايو ونزلوا أراضيها للتجارة واستقر بعضهم فيها قبل وصول البرتغاليين والهولنديين بثلاثة قرون ، كما وصل التجار العرب الى أفريقية الشرقية حتى أقصى الجنوب قبل أن يصل اليها البرتغاليون بعدة قرون !

وفى القرن الحادى عشر الميلادى استطاع أحفاد العمانيين أن يشيدوا مناطق محصنة على طول الساحل فى قبطا وشمال ماليندى لتقف فى وجه الغزو الخارجى ، كما استطاعوا فى القرن الرابع عشر الميلادى ـ بمعاونة تجار شيراز ـ أن يؤسسوا مدينة مومباسا ، لتنتقل البقاع الإسلامية الساحلية الى أيدى عدد من المشايخ العرب ، وليسرى نور الإسلام فى صفوف القبائل المجاورة للساحل ، وكانت أولى القبائل التى أسلمت فى المنطقة هى قبائل

« البانتو » التى انتقل الإسلام عن طريق أبنائها الى العديد من القبائل الوثنية ، وكانت آخر القبائل التى دخل الإسلام بين صفوفها قبائل « الماساى » أشهر قبائل كينيا شجاعة وكرما .

وبالطبع ـ فنحن نعرف ـ أن العرب من سكان مومباسا وقفوا فى وجه الغزو البرتغالى ، وظلوا يقاومونه طوال فترة الاحتلال ، حتى استردوا المدينة فى بداية القرن الثامن عشر الميلادى ، بعد صراع عنيف شهده كل الشاطىء الأفريقى ، وليظلوا محافظين على عقيدتهم عبر الأجيال حتى يومنا هذا الذى زادت فيه أعداد المنضمين الى الإسلام بفضل جهود المخلصين الذين يعملون باستمرار على تخليص أبناء القبائل الوثنية من الشرك عن طريق اقناعهم بضرورة اعتناق الاسلام لتنظيم حياتهم فى الدين والدنيا ولترك تلك العادات البدائية الساذجة التى تبعدهم عن حظيرة الإنسان .

أقدم المدن

ومومباسا ـ بالذات ـ هى أكثر المدن التى يتركز فيها المسلمون فى كينيا ، وهى ثانية المدن الكبرى بعد العاصمة نيروبى وأكثرها إثارة حيث تطل على خليج صغير يصلها بالمحيط الهندى ، وقد أقام بها البرتغاليون استحكامات قوية فى القرن السابع عشر بعد تغلبهم على العرب ، الا أن تلك الاستحكامات سرعان ما تهاوت بعد مائة سنة تحت أقدام المجاهدين المسلمين الذين استطاعوا بانتصارهم الساحق أن يخرجوا البرتغاليين الغزاة من المنطقة كلها مع مطلع القرن السابع عشر .

وعندما قطعت اكثر من ستمائة كيلومتر بالسيارة من نيروبى الى أقدم مدن شرق أفريقيا ، فوجئت كما لو كنت قد وصلت الى احدى مدن الخليج العربى ، فهى مدينة بالغة الحركة ، تبدو فيها بصورة واضحة مظاهر الرفاهية فى كل مكان ، ومن معالمها البارزة « كلندى » وهو اسم الميناء الرئيسى ، والمطار الدولى ، وعشرون مسجدا صغيرا يتعلم الأطفال بداخلها القرآن على نظام الكتاتيب .

وعندما تجولت وسط مدينة مومباسا لاحظت كثرة الأسماء العربية باللغة الانجليزية على واجهات العديد من المطاعم والمتاجر التى يجذب بعضها

الزبائن عن طريق إدارة شرائط غنائية عربية لأم كلثوم وعبدالوهاب وناظم الغزالى وفريد الأطرش وعبدالحليم ، فالعرب والمسلمون هنا يمثلون ٨٥ فى المائة من سكان المدينة التى يصل تعدادها الى ربع مليون نسمة ، وهذا يعنى أنهم يشكلون غالبية السكان ، بينما يعيش الى جوارهم فى المدينة بعض الهنـــــود وقليل من الأوربيـــــين ، وجميعهم يتكلمون اللغة السواحلية كلغة رسمية ، وهى تتضمن كلمات عربية مثل : أهلا بكم ، تفضل ، السلام عليكم ، العصر ، الظهر ، العشاء ، رفيقى ، وغيرها من الكلمات التى أصبح السكان يتداولونها فى لغتهم اليومية !

وهذا ليس معناه أن اللغة العربية هى اللغة الثانية فى المدينة بعد السواحلية ، فاللغة الثانية هى الانجليزية ، والسبب أنه لاتوجد بالمدينة مدرسة واحدة لتعليم اللغة العربية ، وقد قال لى أحد العرب من سكان المدينة : لا تستغرب لو قلت لك إننى أكاد أنسى لغة أجدادى العربية بسبب عدم وجود أى تشجيع على نشرها ، ولأنها مهملة تماما فى كل مراحل التعليم التى تعتمد على التدريس باللغة الانجليزية ، فلا توجد مدرسة واحدة لتعليم اللغة العربية ، ولولا آيات القرآن التى يتدرب الأطفال على حفظها فى المساجد لاندثرت اللغة العربية فى المنطقة .

وفى بيت سعيد بن أحمد رئيس الرابطة الإسلامية فى المدينة ، قال إنه يقوم مع أتباعه بمجهودات ذاتية لإدخال القبائل الوثنية فى الدين الإسلامى ، وان من يدخل فى دين الإسلام يعطونه شهادة رسمية يخضع بمقتضاها لكل قوانين المسلمين ، بما فيها الزواج والطلاق والميراث الذى تتم إجراءاته أمام المحكمة الشرعية فى المدينة ، والتى يرأسها القاضى عبدالله صالح !

إلا أنه يتساءل : لماذا لا نتلقى أى عون من الهيئات الإسلامية والعربية ، حتى لا نظل فى هذا المكان فى حالة عزلة كاملة عن العالم الإسلامى ؟ !

البرتغاليون قادمون

وكانت المدينة الثانية التى التقيت فيها بالتاريخ العربى هى «ماليندى» وهى

مدينة مثيرة بكل ما فيها من ألوان مختلفة ، وهى ملتقى للصيادين الذين يبحرون من مينائها على المحيط الهندى فى رحلاتهم التى يعودون منها محملين بأطنان من الأسماك ، يبيعون الكيلو منه بما يوازى «شلن» أى حوالى خمسة قروش مصرية !

والمدينة بصورتها الراهنة تضم أكثر من ١٥ مسجدا ، وبها آثار للبرتغاليين من بينها معبد قديم ، وبعض المقابر بالقرب من السوق العربية .

وهى أيضا تضم آثارا للأماكن التى زارها الرحالة الشهير « فاسكودى جاما » الذى قام برحلة طويلة حول أفريقية ذاع صيتها فى تاريخ أوربا فى أواخر القرن الخامس عشر ، رغم انه استعان فيها بأحد البحارة العرب المقيمين فى ساحل أفريقية وهو أحمد بن ماجد ليرشده الى طريق الهند .

وكما نعرف فمن بعد « فاسكودى جاما » دخل البرتغاليون الى المنطقة ولم يخرجوا إلا بعد أن سقط حصن « فورت جيزر » فى يد عرب عمان ، لتنتقل المنطقة كلها بعد ذلك الى يد الاحتلال البريطانى الذى جلب جالية هندية كبيرة لبناء خط السكك الحديدية ، فاستوطن الكثيرون منهم المدينة ، وأصبحوا يعيشون جنبا إلى جنب مع العرب وبقية الجنسيات المختلفة .

ولوصول « فاسكودى جاما » الى المدينة قصة تعود الى عام ١٤٩٨ ميلادية ، عندما وصل الى مدينة « مومباسا » فرفض سكانها من العرب المحليين أن يستقبلوه ، وناصبوه العداء ، وحاولوا إغراق سفنه ، فاضطر الى ترك الميناء والتوجه إلى ماليندى فى الشمال ، مستغلا المنافسة الشديدة التى كانت بين حاكمى المدينتين ، واستطاع فعلا أن ينفذ من خلال هذه الثغرة ، وأن يجعل شيخ ماليندى يصدر أمرا باستقباله استقبالا حافلا واعتباره صديقا للمدينة ، وبذلك حصلت سفنه على الطعام الطازج والماء وكل المعدات الهامة لرحلته ، كما صعد الى ظهر سفينته الملاح العربى ليرشده الى طريق الهند .

ومدينة ماليندى التى يصل تعدادها اليوم الى حوالى مائة ألف نسمة ، كانت

في ذلك الوقت لايزيد تعداد سكانها على ستة آلاف ، وكانت تحت حكم العرب ، فقد وصف الرحالة « فاسكودى جاما » حاكمهم العربى بأنه كان طويل القامة ، مليح الوجه ، يرتدى زيا فضفاضا مصنوعا من الحرير الطبيعى المزين بالأطلس الأخضر ، وكان يرتدى فوق رأسه عمامة كبيرة من القماش الفاخر ، وكان يجلس على كرسى مزين من النحاس الأصفر ومبطن بالقماش الحريرى ، وكانت هناك مظلة كبيرة يحملها أحد أتباعه فوق رأسه لتقيه من حرارة الشمس الحارقة ، بينما كان يقف خلفه حارس يحمل سيفا محلى بالفضة ، وأمامه ما يقرب من عشرين فارسا يتزيون بأحلى الثياب ، وعلى مقربة منهم فرقة موسيقية تدق الطبول لإدخال السرور على قلبه !

هكذا رأى « فاسكودى جاما » الحياة فى مالیندى عندما زارها ، الا أنه لم يستطع التعرف على تاريخ نشأتها ، ومازالت كل المحاولات التى تبذل حتى اليوم عاجزة عن تحديد التاريخ الذى تم فيه تشييد هذه المدينة المثيرة .

إن تاريخ مالیندى التى يمثل العرب فيها غالبية السكان لا توجد له وثائق قديمة غير كتاب لجغرافى صينى لم يذكر اسمه ألفه فى القرن التاسع الميلادى ، والكتاب بعنوان « رحلات الى أفريقية » وفيه قال إنه سافر الى (مالاين) - يقصد مالیندى - ووجد أن الأرض بها مهملة ، وليس بها حشائش ولا أشجار أو حبوب ، واتضح له أنهم يطعمون الخيول بالأسماك المجففة ، وأن الأهالى يعيشون على التمر كطعام ، وأنهم فى الليلة السابعة القمرية يستريحون تماما ولا يرسلون أو يستقبلون أى بحار ، ويظلون طوال الليل يشربون !

ولو صح رأى هذا الجغرافى الصينى ، لكانت مالیندى قد أنشئت قبل القرن التاسع الميلادى ، غير أن مؤرخى كينيا المحدثين يؤكدون أن هذا الجغرافى المجهول لم يزر المنطقة مطلقا ، وأنه حاول إيهام قومه بأنه جاء إلى هذا المكان ، رغم أن الصينيين لم يصلوا الى هذا المكان الا فى القرن الخامس عشر عندما جاء أسطول صينى الى مالیندى فى عام ١٤١٩ ليحمل زرافة أفريقية كهدية للامبراطور الصينى « يونج » فقد كان الصينيون فى ذلك العهد يعتقدون أن الزرافة حيوان مقدس ويعاملونها معاملة وحيد القرن فى

أوربا ، ولا يظهرونها الا اذا حكم الصين امبراطور عادل !

كما أن المدينة التى قال إنها جافة ولا توجد بها أى خضرة تعتبر أغنى مدينة زراعية فى كينيا ، فهى غنية بالفول والسمسم والمانجو والبلح ومختلف أنواع الخضراوات والفواكه ، ويعتبرها الزوار أرخص مدن العالم فى الطعام !

ثم يأتى المرجع الثانى - من حيث القدم - عن تاريخ المدينة ، وهو ما كتبه العالم العربى « الإدريسى » صاحب الخريطة المشهورة فى العالم ، والذى عاش منذ عام ١١٠٠ الى ١١٦٦ ميلادية ، ولم يزر شخصيا شرق أفريقية ، ولكنه قال إن مالينذى هى بلاد الزنج ، وهى تقع على حافة البحر فى لسان النهر ذى المياه العذبة ، وهى مدينة كبيرة ترى دائما سكانها مشغولين بصيد الأسماك فى البحر ، أما على الأرض فهم يصيدون النمور والحيوانات الأخرى المتوحشة ، وهم يمتلكون ويستغلون مناجم للحديد تعتبر بالنسبة لهم مسألة تجارية ومصدرا من مصادر الربح ، وهم يتفاخرون بمعرفتهم لفن ترويض الثعابين بحيث يجعلونها غير ضارة لأى انسان ، فيما عدا هؤلاء الذين يودون الانتقام منهم !

وإذا صح كلام الإدريسى فان المدينة تكون قد انشئت قبل القرن الثانى عشر الميلادى ، ولكن المؤرخين ايضا يقولون إنه على الرغم من أن كلام الإدريسى على جانب من الاتزان والعقل ، فإن مالينذى لاتقع على لسان نهر ، ولكنها على بعد أربعة أميال من نهر « ساباكى » كما أنه لا توجد بها مناجم للحديد ، ولكن يجوز أن الأمر اختلط على من أبلغه بهذه المعلومات عندما رأى بعض الرمال السوداء التى تحتوى على الألمونيوم فتصور أنها الحديد !

ويؤكد هؤلاء المؤرخون طبقا للمعلومات التى لديهم أن المدينة أعاد بناءها العرب فى القرن الثالث عشر الميلادى ، ففى ذلك الوقت كانت معظم مبانيها على الطراز العربى الصميم ، الذى كانت تتخلله النقوش والألوان الأفريقية الصارخة .

القنابل ورحلة همنجواى !

وكانت مدينة ماليندى واحدة من مدينتين فى شرق أفريقيا أسقط عليها الإيطاليون القنابل أثناء الحرب العالمية الثانية ، عندما كانت تعسكر فيها قوات الحلفاء ـ بريطانيا والهند ونيجيريا وجنوب أفريقيا ـ ففى ٢٤ أكتوبر عام ١٩٤٠ جاءت طائرتان ايطاليتان الى ماليندى وأسقطتا عليها ١٥ قنبلة ، منها ١٢ قنبلة على مهبط الطائرات ، وبقية القنابل الأخرى لم تنفجر ، وكان رقم ضحايا المدينة جريحين فقط !

وبعد الحرب العالمية الثانية أصبحت المدينة مقصدا لصيادى العالم ، الذين مازالوا يتوافدون عليها بحثا عن مغامرة وسط الأحراش ، فالمدينة تقع على مقربة من غابات « آمبوسيلى » التى تشرف على قمم جبال (كليمنجارو) أعلى جبال أفريقيا الذى تظل قمته مكسوة بالثلوج معظم أيام السنة ، والذى تزخر السهول المحيطة به بأعداد هائلة من حيوانات وحيد القرن والزرافات والأفيال والأسود والحيوانات الأخرى .

وقد كانت ماليندى قديما من أهم الموانى التى رسا فيها السندباد البحرى وهو فى طريقه الى الشرق ، كما أبحر منها الروائى المشهور « أرنست همنجواى » فى رحلة صيد ما بين مارس وأغسطس عام ١٩٣٠ ، ومن وحى هذه الرحلة كتب قصته الخالدة « ثلوج كليمنجارو » التى تعتبر من أحسن قصصه ، وقد تحولت الى فيلم نال شهرة واسعة وقام ببطولته آفا جاردنر وجريجورى بيك ، وفى هذه القصة عبر عما يدور فى أعماقه عندما جعل فكرة الموت تسيطر على وجدان بطلها ، بعد أن أحس بصرير العدم يسرى فى أوصاله ، وتدفق الموت عليه ليس كموجة مياه عالية أو كتيار هواء جارف ، ولكن كفراغ هائل مفاجىء له رائحة خبيثة ودفينة ، فعلى حافة الفراغ رأى ذلك الحيوان الخبيث المشهور برائحته النتنة « الفهد » وهو ينطلق محيطا بدائرة العدم !

لقد سيطرت تلك الفكرة على كل وجدان همنجواى بعد أن عاش حياته

بالطول والعرض وطاف العالم وتجول فى غابات أفريقيا وتسلق جبال كليمنجارو ، وقادته نفس أفكاره الى أن يضع فى قمة شهرته ومجده وثرائه فوهة بندقيته فى فمه ويضغط على زنادها لتنطلق منها رصاصتان تضعان نهاية للكاتب العظيم فى يوم ٢ يوليو عام ١٩٦١ !

إن ماليندى التى يردد أبناؤها قصة هذا الكاتب العملاق ، مازالت تنظم حتى اليوم رحلات لجزر مليئة بجميع أنواع الطيور أو عبر خلجان تكسوها الأشجار التى تنمو على شواطئها .

ورغم أن الحضارة العربية كادت تطمس فى المدينة التى يعتبر أغلب سكانها من العرب ، فإنه فى السنوات الأخيرة بدأت تظهر بعض المبانى والفنادق ذات الطراز العربى ، وأصبح من المألوف جدا أن ترى من يجمع التبرعات لبناء مسجد جديد .

مدينة بلا سيارات

أما المدينة العربية الثالثة فى كينيا فهى « لامو » وهى مدينة شديدة الغرابة ، فلا توجد بها دراجة أو سيارة واحدة ، والطائرة عندما تهبط بك فى مطار صغير لا تجد سوى عربة يد لحمل حقائبك الى القارب الذى سينقلك بدوره الى المدينة المشهورة بشوارعها الضيقة ومبانيها العربية القديمة ومدافع البرتغال التى تركوها خلفهم والتى تذكر الزائرين بالغزو البرتغالى لهذا الشاطىء !

والمدينة بناها العرب أيضا منذ القرن الثامن عشر ، وتطل على المحيط الهندى ويبلغ سكانها عشرة آلاف نسمة ، معظمهم بالطبع من المسلمين ، وبها سبعة مساجد ، ومتحف يروى تاريخ المدينة على مر العصور .

وحول مدينة لامو تنتشر غابات مليئة بالتين والبلح ، وعلى مقربة منها توجد سهول شجرية لا تقطنها غير الحيوانات البرية ، كما أن شاطئها الذى يبدأ حول رأس قرية « شيلا » الذى يبلغ طوله ١٢ كيلو مترا ، تراه مفروشا بالرمل الأبيض الناعم الذى تحيط به هضاب رملية عالية ومياهه دافئة نظيفة .

ومنذ الدقيقة الأولى ستشعر وأنت فى مدينة لامو ، كما لو كنت فى مدينة غارقة فى النوم والصمت الطويل ، فمظهرها مازال يدل على أنها لم تتحرك خطوة واحدة منذ القرن الثامن عشر ، وأهلها أشاعوا بينهم أن أى تطوير فيها سيقضى على مستقبلها ، وصدقوا هذا ، ليعيشوا فى مدينة لايعرف أهلها الوقت الا عن طريق المؤذن فى المسجد !

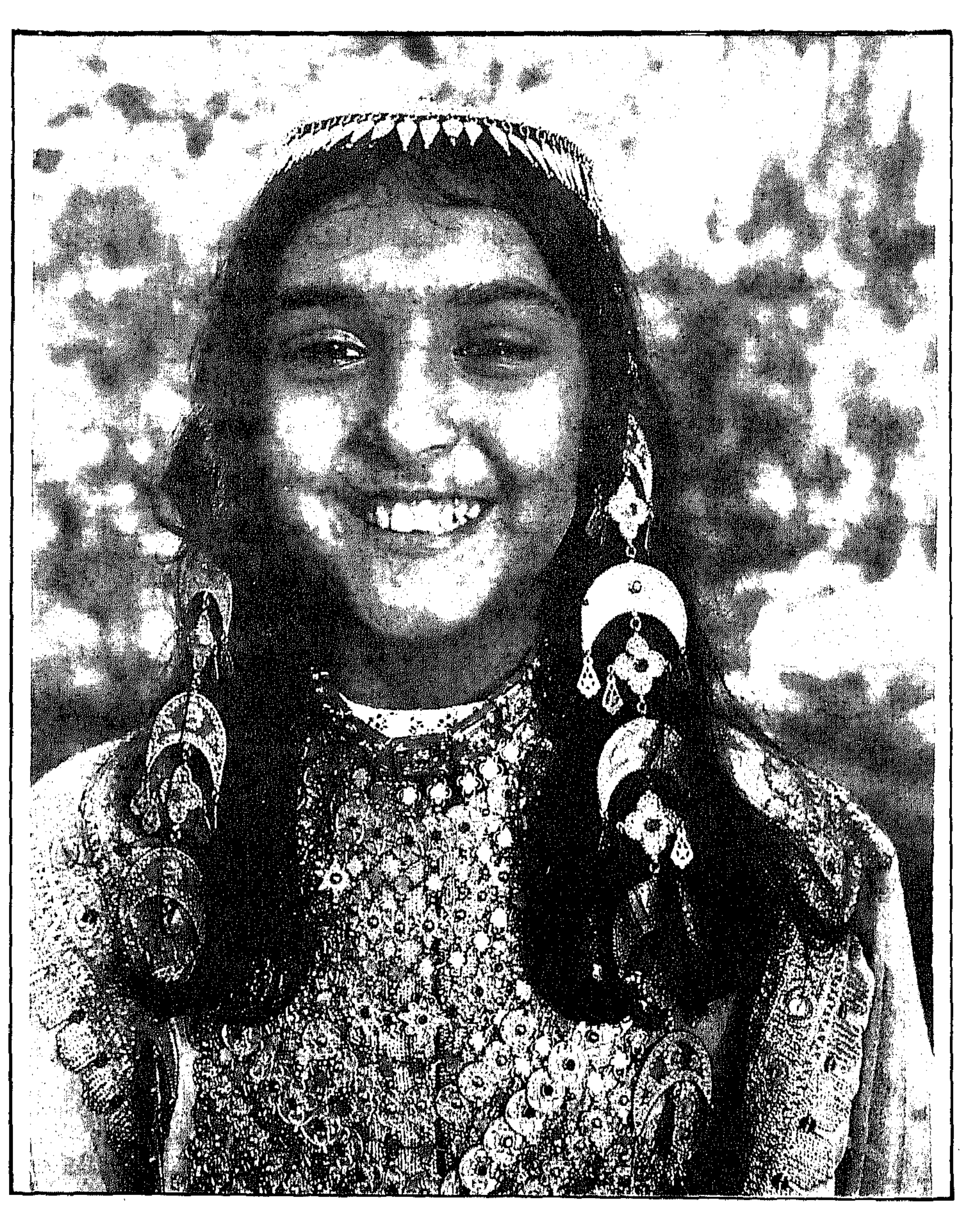
وهذه المدينة تزحف عليها اليوم موجات من شباب الهيبيز الذين يريدون تحويلها الى «كاتماندو» أخرى كما فعلوا فى نيبال ، فهم يجلسون بأعداد كبيرة على أرصفتها بشعورهم المسترسلة وأقدامهم الحافية والزهور فوق الرءوس الغائبة فى جحيم المخدرات !

ووسط كل هذا ترى سكانها وهم يلتفون حولك سائلين : هل أنت عربى ؟ . . وتقول لهم : نعم . . ويسألونك مرة أخرى : مسلم ؟ . . فتقول لهم : نعم . . فيقولون لك : إذن لماذا لا تذكرون أشقاءكم فى هذه المدن الإسلامية المنسية ؟ ! . . . لماذا لا تتذكرون مدننا التى عاشت مجدا خالدا فى أيام الدولة الاسلامية الكبرى عندما دك أبناؤها معاقل البرتغاليين وضحت بأغلى المجاهدين والشهداء ؟ ! . .

ووعدتهم بأن أحمل رسالتهم الى العالمين العربى والإسلامى . . فهل من مجيب ؟ !



وداعا للغوص
وأهلا بالتحديث في قطر



فى قطر أصدقاء وأعزاء عشت بينهم سنوات لم أشعر خلالها بالغربة ، فأهلها طيبون إلى أبعد حدود الطيبة ، مجاملون يحملون فى قلوبهم فيضا من الود يجعلك تألفهم منذ الوهلة الأولى ، لم تلوثهم أمراض الثروة التى تجعل البعض يتصورون أنهم قادرون على اختراق الأرض وبلوغ الجبال طولاً .

تراهم بسطاء ، يشدهم دائماً حنين إلى الأرض ، وكأنهم عائدون لتوهم من فوق سفينة « السنبوك » بعد رحلة بحرية مضنية ، تعلموا خلالها معنى أن يكون الإنسان إنساناً ، ومعنى أن تتلاقى الأيدى فى تضامن وثيق فى أوقات الشدة !

إنهم فى أعماقهم عشاق لصفاء الزمن القديم ، حيث الرمال والخيام وأشجار النخيل وصقور الصيد وطيور الحبارى وقطعان المها والبحـــر الذى لا يحد أمواجه غير الأفق البعيد .

وهم أذكياء بالفطرة ، أوفياء ، يكرهون الغيبة ، ويشارك الكبير منهم قبل الصغير فى أفراح الناس وأتراحهم ، ويفزعون لمرضك وكأنك واحد من أفراد أسرتهم ، ويفتحون أمامك قلوبهم ـ بلا حدود ـ كلما كنت من هذا الطراز الذى لا يلجأ إلى ألاعيب شيحا !

ولعل تلك الصفات النبيلة وغيرها هى التى جذبت إلى قطر العديد من المثقفين البارزين الذين لم يبخلوا بثمرات خبراتهم ، فأعطوها بحب وتقدير لهذا البلد الشقيق .

وقد عرفت قطر قبل أن أصلها بسنوات ..
عرفتها منذ أيامها الخوالى ، وقتما كان أهلها يحترفون الغوص بحثا عن اللؤلؤ فى مياه الأعماق ، وعرفتها ـ بعد ذلك ـ من خلال مشوار الحياة على أرضها التى لاتفرط فى تراثها وهى تندفع إلى الحداثة لتعويض ما فات !

اللقاء الأول

كانت معرفتى الأولى لقطر من خلال بيت للشاعر الأموى جرير الذى ولد

ومات فى اليمامة ، والبيت يقول :

لـدى قطـريات إذا مـــا توغلـت
بها البيد غاولن الحروم الفيافيا

ومن خلال هذا البيت تبين لى أن تلك الأرض كانت تنسب إليها عتاق الإبل أو النجائب القطريات التى يسابق عليها الزمن .

ومن قراءاتى الأخرى عرفت أن شبه جزيرة قطر كانت مأهولة بالسكان منذ فجر التاريخ ، وأن ذلك تأكد بوضوح عقب حفريات بعثات الآثار فى المنطقة التى عثرت على أدوات متقنة الصنع يعود تاريخها إلى الألف الرابع قبل الميلاد وترتبط بشكل واضح مع مخلفات الحضارة العبيدية التى انتشرت فى الزمن القديم فى شمال الخليج العربى .

وقد أشار إلى تلك الحياة المبكرة أبو التاريخ الأغريقى « هيرودوت » الذى عاش فى القرن الخامس قبل الميلاد ، مؤكداً وجود الحياة النشطة فى قطر والمناطق المجاورة وخاصة ما يتعلق منها بالبحر .

وأيده فى ذلك الجغرافى « بطليموس » الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى ، ونبهنا إلى وجود « قطرا » فى خريطته المسماه « بلاد العرب » .

وفى أواسط القرن السابع الميلادى استجاب سكان قطر وجيرانهم إلى الدعوة الإسلامية ، وكانوا بارعين فى ركوب البحر ، ولذلك شاركوا فى تجهيز وتعبئة أول أسطول بحرى لنقل القوات الإسلامية المجاهدة بقيادة أبى العلاء الحضرمى .

وتروى الصفحات كيف كانت قطر فى ذلك الوقت سوقاً عربية ، يقبل الناس فيها على شراء الثياب القطرية ، وهى ثياب « حمر » فقد نسب « ياقوت الحموى » فى مؤلفه « معجم البلدان » إلى القطريين إتقانهم فى نسج الثياب والبرود ، ومهارتهم فى تقويم الرماح المعروفة بالرماح الخطية .

وفى العصر الأموى أصبحت ملاذا لبعض أصحاب الرأى والفكر وبعض الهاربين من جحيم الظلم والباحثين عن مظلة آمنة ، وكانت فى ذلك الوقت مهداً للشاعر والخطيب الفارس « قطرى بن الفجاءة » الذى ترك خلفه قليلا من الشعر المرصع بأقوى معانى الشجاعة والإقدام والجود بالنفس .

وفى ظل الدولة العباسية بلغت قمة ازدهارها ، حتى يقال إنها كانت تمد الخلافة فى بغداد بقدر كبير من الثروة ، إلى أن استولى عليها البرتغاليون فى عام (١٥١٧ م) لفترة لم تتجاوز ٢١ عاما ، وليتم طردهم عقب ذلك على يد العثمانيين ، ولتظل سيادة العثمانيين إسمية إلى أن وصلها الانجليز عقب الحرب العالمية الأولى ، وفى أعقاب ذلك الصراع الرهيب الذى جرى فى منطقة الخليج منذ مطلع القرن السادس عشر بين أساطيل أربع دول هى البرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا ، من أجل الاستيلاء على طريق الهند وتأمين التجارة مع الشرق .

أقدم القبائل العربية

كان سكان قطر منذ قرنين لا يسكنون إلا الساحل ، ولكن مع وجود الأساطيل الغربية فى المنطقة وتعرض القرى الساحلية لخطر التهديد والحملات ، بدأت القبائل تهتم بالداخل وتنتقل فى أغواره بحثا عن الماء والكلأ .

وفى تلك الفترة أصبحت قطر موطنا لأقدم القبائل العربية التى جاءت فى القرن الثامن عشر من « جبرين » فى نجد بشبه الجزيرة العربية لتستقر فى شمال البلاد بالقرب من (مظان) اللؤلؤ التى كانت وقتئذ تمثل عصباً لاقتصاد الساحل الشرقى فى جزيرة العرب وأساساً لمختلف معاملات سكانه .

وجاءت فى مقدمة هؤلاء أسرة آل ثانى ، يدعمها أصل مرموق ، فهى تنتمى إلى المعاضيد من بنى تميم القبيلة الكبرى التى تحالفت مع الرسول الكريم ، وكانت كما تجمع كل كتب التراث ذخر العربية فى الشعر والبلاغة ، وكانت تسكن جانبا من الساحل الشرقى لبلاد العرب وتمتد بيوتها حتى فيافى الدهناء جنوبا ، كما تمتد شمالاً بشرق حتى ضفاف الفرات ، ويتصل نسبهم بمضر بن نزار الجد الأعلى لفريق من القبائل العربية العدنانية .

كان على رأس أسرة آل ثانى الشيخ محمد بن ثانى الذى انتقلت إليه الزعامة بعد وفاة والده ثانى بن محمد عميد الأسرة ، والذى كانت صفاته

تجمع بين الحكمة البالغة وبعد النظر والقدرة على تأليف القلوب ، ولذلك أجمع الناس على اختياره لتولى أمرهم فى أواسط القرن الماضى (١٨٥٠ - ١٨٧٨) ليصل إلى الدوحة فى منتصف القرن التاسع عشر مسلحاً بحب الناس والتفافهم من حوله .

ويتولى بعده نجله الشيخ قاسم بن محمد آل ثانى الحكم الذى عاش فى الفترة ما بين (١٨٢٦ - ١٩١٣) وهى فترة مفعمة بالأحداث ، استطاع خلالها أن يؤسس الحدود المعروفة التى قامت عليها دولة قطر ، وأطلق عليه المؤرخون صفات عديدة تجمع فى مجملها بين البطولة والوفاء والكرم وغوث المحتاج وإشاعة العدل والتمسك بفضائل العقيدة ، وكان فوق هذا وذاك شاعرا يخشى الله ويشير فى معظم قصائده إلى ميزان العدل خوفا من قاضى السماء .

وقد جاء بعد الشيخ قاسم نجله عبد الله بن قاسم آل ثانى (١٩١٣ - ١٩٣٩) .

وأثناء حياته نقل الحكم إلى نجله الشيخ حمد بن عبد الله آل ثانى (١٩٤٠ - ١٩٤٧) الذى كان يتمتع بشعبية كبيرة بين مواطنيه ، لما عرف عنه من حنكة وروية وبعد نظر وعمق إيمان ، واشتهر بدرايته الكاملة بمغاصات اللؤلؤ ، وعرف قاربه باسم « فتح الخير » الذى مازال يحتفظ به القسم البحرى من متحف قطر الوطنى ، وعندما ظهرت بشائر البترول قبل وفاته بقليل أخذ يعد العدة لرفع مستوى الناس بنهوض التعليم والصحة والعمران ، فوضع برامج إصلاحية لتغيير ملامح الحياة وتعويض شعبه عما قاسوه فى سنوات الحربين العالميتين وما أصابهم نتيجة انهيار تجارة اللؤلؤ ، غير أن قضاء الله وافاه قبل أن تتحقق كل أحلامه فى إسعاد الناس وتعويضهم عن سنوات الكساد .

وكان الشيخ حمد هو والد الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى أمير دولة قطر منذ ٢٢ فبراير ١٩٧٢ ، وهو الذى أعلن فى الأول من سبتمبر عام ١٩٧١ إنهاء العلاقات التعاقدية مع بريطانيا وإلغاء المعاهدة التى تم توقيعها فى عام ١٩١٦ ، وبموجب ذلك أصبحت قطر فى الثالث من سبتمبر دولة مستقلة ذات سيادة ، وتم قبولها عضوا فى الجامعة العربية بعد الاستقلال بتسعة أيام ،

وأصبحت ـ كذلك ـ عضوا فى الأمم المتحدة فى ١٦ سبتمبر ١٩٧١ .
وفى ٣١ مايو عام ١٩٧٧ بويع الشيخ حمد بن خليفة آل ثانى وليا للعهد .

الماضى والحاضر

والواقع أن من عاش ماضى قطر وحاضرها يدرك الفرق الهائل فى شتى نواحى الحياة ، فلم تكن تلك الأرض تحتضن فى ماضيها غير المعاناة والقلق والحياة الصعبة القاسية ، خاصة فى عام ١٩٣٠ عندما توقفت مراكبها الأربعمائة التى كانت تغادر شواطئها فى كل موسم لصيد اللؤلؤ .

لقد كان الإنسان القطرى ـ مثله مثل كل خليجى ـ يشق طريقه إلى المستقبل فى أرض وعرة ولذلك فإن كساد تجارة اللؤلؤ أصاب الحياة فى هذا المكان ٢٨ عاما ، إلى أن بدأ استخراج النفط لتصبح قطر بمقتضى الثروة البديلة الواعدة هى الدولة الخامسة فى انتاجه فى الشرق الأوسط .

ومنذ الدقيقة الأولى لاكتشاف النفط ، كان لابد من أن تسخر الثروة الجديدة لرحلة التطوير .

وهذا النمط الحديث من الحياة كان لايمكن أن يتم بدون السيطرة على الثروة الأساسية للبلاد ، فقد أدى قرار السيطرة الوطنية الكاملة على البترول والغاز إلى تجنيد العوائد لدعم كل المشروعات التى قامت وتقوم على أرضها ، وتوفير كل الخدمات التى حظى بها الجيل الجديد فى قطر ، بداية من التعليم المجانى والعلاج المجانى وتوفير المسكن المناسب والحياة المناسبة ، الى فتح الباب على مصراعيه أمام الأجيال الجديدة لكى تنهل من العلم والثقافة ، ولكى تتولى مسئولياتها فى مختلف المواقع لتقوم بدورها فى الانتاج وخدمة وطنها والوطن العربى الكبير الذى لن يقوى ويرتفع بنيانه إلا بسواعد أبنائه .

عشاق التراث

إن هؤلاء الأبناء ـ أو الناس فى قطر ـ فى معظمهم تهيم قلوبهم ببداوة البر

بكل ما فيها من تمور وإبل وبيوت الشعر المصنوعة من الصوف والوبر ، ومازالت تجمعهم تلك الروابط القوية والمشاعر المتـــحدة والحلم الذى لا ينقطع تحت ضوء القمر فى الأرض الممتدة باتساع الأفق !

ومازالوا حتى اليوم يتطلعون بأبصارهم نحو شاطىء البحر ، عندما كانت أرزاقهم متعلقة بتجارته المتمثلة فى صناعة المراكب وصيد الأسماك والغوص من أجل اللؤلؤ فيما بين جزيرة حالول وجزيرة شراعوة وحولهما فى العد الشرقى وميدان محزم وبولحنين والبندق .

وكانوا يخرجون فى رحلاتهم الطويلة على فيض الكريم ، لا يعرفون فى البحر طعاما إلا السمك والتمر والقهوة ، ويقبضون بأيديهم الخشنة فى قوة على فضيلة الصبر ونشوة حب الخطر المرتبطة بالعواصف والحبل المتدلى الى القاع .

ولهذا فهم - مثلا - يتعجبون من هؤلاء الذين يزورون العاصمة الدوحة بعد رحلة تحديثها ، فيهتمون فقط بما فيها من حياة عصرية ولا يسألون مطلقاً عن أيامها الخوالى ، عندما كانت المدينة مجرد قرية صغيرة لصيد الأســـماك لا صلة لها بالعالم الخارجى ،وكانت من أبرز معالمها منطقة « البدع » التى تميزها سوقها الطويلة ومنازلها الصغيرة وممراتها المظلمة وعدد من القلاع.

وكثيرا ماتوقفت عند عبارة قرأتها لزائر غربى أتى إلى مناطق الخليج فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وأذهلته الطريقة التى استطاع بها الإنسان أن يصمد فى تلك المناطق رغم صعوبة الحياة وشدة الحرارة التى تتراوح فى شهور الصيف ما بين ٣٨ و٤٥ درجة مئوية ، ورطوبة الجو التى ترتفع على الساحل بدرجة قاسية تصل فى أحوال كثيرة إلى درجة التشبع .

وكثيرا ماجعلتنى تلك الحقائق أتمادى فى البحث وراء السكان القدماء البسطاء الذين حرثوا الأرض والبحر بأظافرهم ، لأكتشف أن حياتهم لم يكن فيها أغلى من القناعة والتعاون وعفة النفس والكرامة والشجاعة والرحمة واستقبال الضيف ، وغير ذلك من الصفات التى ظلت هى السمة الغالبة لإنسان هذا المجتمع الذى مازال يستمد قوته من رحابة الصحراء التى أعطته فيضا هائلا من الحرية وحب الناس والإحساس بامتلاك العالم .

لقد كانت أحلام هذا الإنسان تدفعه أحيانا إلى رواية أسطورة الغطاس « عناد » الذى لم يستطع الحصول على اللؤلؤ الأسود النادر إلا بعد أن غاص فى أكثر المناطق وعورة فى البحر وتعرف على أماكن المحارات الكبيرة التى يكمن بداخلها ذلك الكنز ، وتغلب على الوحش المائى الحارس للمغارات التى تحمل فى جوفها الثروة !

بداية العاصمة

ونأتى إلى بداية نشأة مدينة الدوحة التى أصبحت اليوم عاصمة عصرية .

فى البداية نشأت المدينة فى الأراضى التى لا يفصلها عن منطقة البدع سوى حى صغير ، واشتق اسمها من دوحة المياه الواسعة أو الخليج البالغ الروعة الذى تطل عليه ، ومع النصف الثانى من القرن التاسع عشر أصبح بها تسعة أحياء ، وكانت فوق أرضها حامية تركية ، تعززها سفينة حربية تقف بالميناء ومحطة للفحم لتزويد السفن العثمانية بالوقود .

وفى أوائل القرن العشرين ظهرت فى المدينة لأول مرة مساكن لا بأس بها وسور يحيطها من جانب واحد ، وأصبحت تطل على رأس الميناء ، وإن كان منظرها فى ذلك الوقت لم يكن جذابا نتيجة لطرقاتها الضيقة ومبانيها غير المنتظمة !

وقد ظلت صورة الدوحة على حالها لفترة طويلة ، كانت لا تقترب منها مطلقا ملامح التطوير ، فالمياه كانت تصلها فى تنكات من الخارج ، والكهرباء غير متوافرة إلا لعدد بسيط من البيوت بها مولدات كهربائية خاصة ، والطائرة الأسبوعية التى تصل المدينة كثيرا ما لا تكلف خاطرها بالنزول فترمى حمولتها من الرسائل بالباراشوت !

أما اليوم فقد تغيرت الصورة ، وأصبحت الطائرات العملاقة تحمل الفنيين من كل مكان فى الدنيا ، وعالم الأزرار يقتحم حياة الناس وتعاملاتهم اليومية ، بداية من الأجهزة التى تعمل باللمس داخل البيوت إلى انتشار استخدام الكمبيوتر على نطاق واسع .

والواقع أنه لم يغب عن الأذهان فى زحام تحديث مدينة الدوحة ، ألا يتم الاقتراب من تراثها ، ولذلك ظلت بعض بيوتها تحتفظ بطابعها القديم بعد ترميمها لتظل شاهدا للأجيال القادمة على تفاصيل طرز البناء القديم .

لقد تم - فعلا - ترميم قصر الحكم الذى كان قد بناه الشيخ عبد الله بن قاسم آل ثانى فى مواجهة الشاطىء فى حى « السلطة » بعد أن طلب الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى إعادة ترميم أبنية القصر كنمط من العمارة الإسلامية العربية ليصبح مقرا لمتحف قطر الوطنى الذى يمكنك التعرف على ملامح قطر القديمة من خلاله ، كما أنه بجناحيه البرى والبحرى يجسد لك ذلك التفاعل الخصب بين البحر والصحراء !

إن هذا المتحف يضم مجموعة نادرة من المصاحف القديمة والمخطوطات والمعمار والأثاث والأزياء الشعبية والنماذج الحربية القديمة والحلى الذهبية والفضية النادرة وأحلى اللآلىء الطبيعية ، إضافة إلى الأحياء المائية المتنوعة وسفن « السنبوك » و« البوم » الرابضة فى بحيرته الصناعية ، وعشرة آلاف مسكوكة تمثل كل أقطار الأمة الاسلامية من أندونيسيا وموريتانيا فى الحاضر حتى الأندلس والصين فى الماضى .

وهو يضم صوراً توضيحية تبين الحياة التى عاشها الناس فى البادية ، عندما كان الإنسان البدوى يعتمد على نخلته الكريمة الأيادى بتمرها الشهى ، وكان يرعى ناقته الصبور التى لا تعرف التعب .

وهذا المتحف كان يذكرنى دائما بتراث البادية ، بشعرائها ، الذين تارة ينوحون على فراق الحبيب وهجره ، وتارة يظهرون شغفهم للقاء الماء والخضرة والوجه الحسن ، وأحيانا يجسمون حركة الإبل والماشية التى تسعى على صفحة الصحراء تنقب عن شجرة خضراء أو عود يابس !

وعلى درب هؤلاء الشعراء عرفته من خلال قصائده التى تخاطب أعماقك وتلفك بهالة من الحب الوفى .

إنه الشاعر محمد بن عبد الوهاب الفيحانى الذى ولد فى مطلع هذا القرن فى بلدة فويرط بشمال قطر ، وأثناء مشواره فى الحياة وقع فى حب ابنة عمه

التى تزوجت بغيره ، ورغم ذلك أخلص فى حبها حتى مماته ، تاركاً خلفه أجمل قصص التضحية وأحلى كلمات الشعر الشعبى فى الغزل التى من بينها :

شبعنـا مـن عناهـم وارتوينـا   وعنـد رسـوم منزلهـم بكينـا

العمارة والفارس المحب

وعندما نتأمل عمارة مدينة الدوحة سيتضح أنها تجمع بين أكثر من أسلوب تشكيلى ، بداية من استخدام الزجاج اللامع والأعمدة الحجرية الصلبة على الساحل إلى الأسلوب العربى المبسط فى القصور والمساكن الشعبية فى الضواحى .

والقصور القديمة ـ بالذات ـ تعتمد فى بنائها على مزيج من التراث العربى وفن البيئة الخليجية ، كما أن القلاع ذات الأبراج المستديرة هى إسلامية المنشأ ، أما الإبداع الحقيقى فيمكنك رؤيته فى المبانى القديمة الخليجية الروح والقوام ، والتى توجد بها أبراج هوائية تسمى « البادجير » تسمح بدخول الهواء من أعلى لأسفل فتبرد الحجرة تبريدا طبيعياً ، وهى كذلك تتميز بالأبواب الكبيرة الضخمة التى توجد بداخلها فتحات صغيرة للاستخدام الدائم تسمى « الفرخة » ، وشبابيك تلك البيوت ضيقة ومرتفعة ، وعادة ما يحتوى البيت على صحن واسع تحيط به الحجرات من جهاته الأربع تقريبا ، وقد روعيت بعض صفات تلك البيوت القديمة عند بناء البيوت الشعبية لمحدودى الدخل فى مدينة خليفة وحى المنتزة .

وفى زحام كل ذلك ، يأتى السؤال : وأين وسائل التسلية فى المدينة ؟

والجواب يؤكد أن كل مجتمع يصنع وسائل تسليته من خلال تقاليده ، وهنا فى تلك البيئة بالذات عرفوا الرقص الشعبى المتأثر بظواهر البحر والصيد والصحراء والحرب ، وعرفوا الغناء الملىء بالأشواق .

والمحب فى الأغنية عندما يودع فتاته تسيل من عينيه دموع الغروب ، فهو

لن ينسى مطلقا وجه المليحة الذى يشبه بدر السماء ، لن ينسى ذوائبها التى مثل الليل المظلم ، وثغرها المبتسم كالبرق الذى ينير الأفق ، ونورها الذى جعل الغزالة تزداد إشراقاً ، ووجنتيها اللتين ينبت عليهما الورد ، وكفوفها المخاضيب التى تلوح بها وقت الفراق .

إلا أن الرقص الشعبى والشعر والغناء ليست وحدها وسائل الفن والتعبير فى المدينة ، فالإذاعة والتليفزيون والمسرح تقوم بدور هام فى حياة الناس ، وممارسة الرياضات المختلفة بما فى ذلك التزحلق على المياه والصيد والغوص وسباق القوارب وكل ما يتعلق بالمظاهر البحرية المختلفة .

وهناك غير ذلك الحصان العربى فى حظائره الطبيعية ، فتربية الخيول العربية الأصيلة تحظى باهتمام شديد ، والخيول الموجودة فى مناطق الريان القديم والجديد تشتهر بذلك ، ومباريات سباق الخيل والهجن تعقد بصورة منتظمة .

ثم يجب ألا ننسى فى قطر تلك الحركة الثقافية الهامة التى فى مقدمتها حركة تشكيلية متميزة ، ترعاها الدولة وتقدم لها كل الإمكانات وقد أثمرت تلك الرعاية مجموعة من الفنانين البارزين الذين يشاركون اليوم بانتاجهم فى معارض محلية وخارجية .

وفى مقدمة هؤلاء الفنانين : جاسم الزينى ، ويوسف أحمد ، وحسن الملا ، وسلطان المناعى ، وفرج الدهام ، ومحمد الجيده ، وحصة المريخى ، وعيسى الغانم ، ووفيقة سلطان ، وأحمد عبد الله ، وسلمان المالكى ، وأحمد هلال ، ويوسف الشريف ، وعلى حسن ، ووفاء الحمد ، ومحمد الصايغ ، وأحمد زينى وغيرهم .

ولا يبقى إلا أن أقول لك إن قطر كما رأيتها ـ فى مسيرتها الحالية ـ حاولت أن تواجه فى تعقل شديد هزات أسواق النفط العالمية ، واستطاعت ـ فعلا ـ عن طريق سياسة الترشيد التى اتبعتها منذ عام ١٩٨٣ وبلغت أشدها فى عام ١٩٨٦ أن تتغلب على جميع التحديات .

رأيت غجـــر أوربا

يرقصون ويبكون !



رأيت الغجر فى أوربا يرقصون ويتشاجرون ويسرقون !

رأيتهم غارقين حتى النخاع فى المباهج والأحزان !

وعندما سألت أحدهم : متى تتعاملون مع الحياة العصرية ؟ . . متى تودعون حياة البوهيمية والقلق وتتخلون عن عاداتكم التى تبدأ بالحب الجياش ورسم الفتيات على الصدور والأذرع،وتنتهى بالقتال حتى الموت والغناء لخرير الماء وللنار وللأثقال المحمولة على عربات أثناء التجوال على طول النهر ؟

عندما فعلت ذلك ، رمقنى بنظرة فاحصة وهو يقول : هل تسمى ما تراه أمامك بالحياة العصرية ، إن من تسميهم « عصريين » قتلوا ٤٠٠ ألف غجرى داخل معسكرات الاعتقال وغرف الغاز أثناء الحرب العالمية الثانية ، ولهذا لن تستغرب إذا قلت لك إنهم فشلوا فى وضع الكثيرين منا فى حظيرة ماتسمونه بالحياة العصرية ، بينما انضم إلى قوافل الغجر آلاف الشباب فى أوربا ، ممن يعشقون الطبيعة والجمال وينامون فى الخلاء بين العيدان الخضراء والزهور الملونة والعصافير والطيور المغردة ، وأصبحوا مثلنا يؤمنون بالحظ وقراءة النجوم !

وعندئذ سألته : وهل مازال الغجر يكسبون لقمة عيشهم من الاحتيال واحتراف الرقص والغناء ؟

وضحك بملء فمه ثم قال : بين الغجر اليوم من يرفض كل ما يتعلق بالحياة العصرية ويحاربها حتى الموت . . ومنهم أيضا من هجر تلك الحياة وأصبح طبيبا أو مهندسا أو فنانا . . أما أنا . . . . .

وعاد ليضحك بصورة أقوى . . ثم أكمل حديثه قائلا : أما أنا فأعمل جرسونا . . ومازلت حائرا بين القديم والجديد . . ولذلك تجدنى دائما أغنى وأنا فى طريقى إلى عملى الجديد كل ليلة :

توبة . . لن أذهب لسرقة البيوت بعد ذلك .

حتى لو أصبحت جوعانا . .

فأنا اليوم جنتلمان محترم . .

أتعامل مع كل الوجهاء بلباقة . .

وأجعلهم فى قمة السرور وأنا . . .

أنفض جيوبهم من كل أنواع البنكنوت !

وغرقنا معا فى الضحك . . لأبدأ رحلتى مع ذلك الإنسان الغريب الذى مازال يرفض البيت المستقر والمدرسة والقوانين ، ويتخلص دائما من خطاياه بالنزول فى برميل ملىء بالجير المغلى حتى يصبح جسده ناصع البياض ، وحتى ينسى اللحظة التى كان فيها النازيون يسحبون نساء الغجر فى رحلات تبدأ بالاعتداء وتنتهى بالموت خنقا !

لغة الغجر

ومنذ البداية جذبتنى ملامح الإنسان الغجرى الذى عاش تاريخه خارج أبواب المدنية الحديثة ، وطاف حرا فى مسالك العالم الوعرة متفاخرا بقوله : إن حكمة الغجرى أرقى مليون مرة من كل مايتشدق به هؤلاء الذين يعيشون فى العالم المتحضر !

ولم أر ملامح الغجرى محصورة فقط فى لون بشرته التى صبغتها أشعة الشمس باللون الداكن . . ولا فى شعره المجعد . . ولا فى الصيحات التى تصاحب لحظات مرحه وسعادته . . ولا فى ملابسه البالية المتعددة الألوان . . ولكننى أدركت بأنها تنبع قبل أى شىء من جذور اللحظة التى انطلق فيها من الشرق نحو الغرب واجتاز نهر « الأندوس » فى الهند ، ليضرب خيامه فى بلاد فارس ، التى مكث بها بعض الوقت واكتسب منها كل ما عرفناه عنه من مهارة فى ركوب الخيل !

كانت تلك اللحظة بحق مثيرة لخيال الرواة الذين تناقلوا تفاصيل رحلة الغجر الأولى بصورة أسطورية . .

لقد انطلق الغجر ليتجولوا فى مناطق متفرقة من العالم بعد أن أدركوا أن

حياتهم على أرض بلا حدود ستكون أمتع . . وأن نومهم تحت سقف السماء الواسعة لا يعنى غير التحرر من قبضة أسر الغرف المغلقة . . وأن هموم الفقر أهون مائة مرة من هموم الغنى . . وأن لغة الموسيقى والرقص هى أقرب اللغات إلى نبض العالم ، وأكثرها قدرة على مخاطبة كل الشعوب !

وقد قاموا بهذه الرحلة بعد أن تعرضوا لكل ألوان العذاب فى الهند ، وبعد أن وجدوا فى رحيلهم ثورة على الظلم ودعوة مفتوحة للحرية والفن والانطلاق بلا حدود !

ولكن لماذا قامت شكوك المؤرخين حول تلك الرحلة ؟ . . وهل حققت أهدافها ، أم أنها أخفقت فى التعامل مع شعوب العالم أثناء التجوال طوال تلك الحقبة التاريخية ؟ . .

رحلة الغجر الأولى

من يتتبع رحلة الغجر الأولى سيكتشف أولا أن تاريخها غير معروف ، فقد طمس الزمن آثار أقدامهم وعرباتهم ، بحيث لم يترك للباحثين سوى حقيقة واحدة تؤكد أصلهم الهندى ، وان كان بعضهم قد ظل يردد لفترة طويلة بأن أصلهم مصرى ، اعتمادا على كذبة بدأت منذ أكثر من ٥٠٠ عام ، كان سببها أن الغجر الذين أقاموا فى المجر لفترة طويلة فى القرن الرابع عشر إهتموا بأكل لحوم البشر ، وطاردهم فى هذا الوقت الفلاحون فى تلك المناطق اعتقادا منهم بأن هؤلاء الناس يقتلون ضحاياهم ويأكلون لحومهم بعد أن يستولوا على ماليديهم من ذهب ومواش ومتاع ، واضطر الغجر بعد هذا الاتهام إلى اللجوء إلى الكهوف والاختفاء بداخلها ، وفر بعضهم إلى المانيا فوصلوها فى عام ١٤١٧ ميلادية بالضبط ، وعندما نزلوا بها خشوا أن تكون أخبار اتهامهم الظالم قد وصلت إلى هذا المكان ، فبدءوا فى رواية أسطورة حضورهم من مصر التى ظلت لاصقة بأذهان الأوربيين حتى هذا القرن !

قالوا : إن العذراء مريم ، عندما هاجرت إلى مصر مع طفلها عيسى ، ذهبت إلى أجدادهم فى دلتا مصر فرفضوا ضيافتها ، ولهذا حلت اللعنة بأهلهم ، وظلوا منذ تلك الفترة فى تجوال دائم ، حتى يكفروا عن خطاياهم !

وصدق الفلاحون الألمان تلك القصة وغيرها من القصص الأخرى التى كانوا يروونها عن السحر والشياطين ، وبدءوا يروونها لبعضهم ، بل وفتح الكثير منهم بيوتهم للضيوف المتجولين . . السمر اللون ، الذين يزينون آذانهم بحلقان من الفضة ، ويمتطى بعضهم جيادا هزيلة ، وتضم قوافلهم الصقور والكلاب والنساء المتبهرجات اللاتى لا يستطعن التمييز بين الخطأ والصواب ، فهن يمنحن البهجة والسعادة للناس بالأغانى والرقصات ، وأحيانا بلحظات من الحب !

وكعادة الغجر ـ باعتبارهم قوما لا يستقرون فى مكان واحد ـ بدءوا يتجولون فى معظم أنحاء القارة الأوربية ، فانتشروا فى سويسرا ، وفرنسا ، وإيطاليا ، وأسبانيا ، وغيرها من البلدان ، وكانوا فى كل مكان يذهبون إليه يرددون نفس قصة انتسابهم إلى مصر وقصة هجرتهم منها !

ورغم أنهم كانوا يحاولون إقناع أهالى تلك البلاد ، بأنهم أناس طيبون ، عن طريق رسم الصلبان على خيامهم ، فإنهم كانوا دائما ينشرون الغش ، والسرقة ، والشعوذة ، فى كل مكان ينزلون فيه ، حتى وصل الأمر بأسقف باريس إلى إصدار بيان يقول فيه : كل من يعرض كفه على هؤلاء المصريين الذين يشتغلون بالسحر ، يعتبر فى نظر الكنيسة مرتدا إلى الوثنية !

هكذا بدأت القصة . . وهكذا استمرت لاصقة فى الأذهان ، إلى أن تصدى لها بعض العلماء ، الذين أكدوا ببحوثهم ـ وعلى رأسهم الباحث المجرى جوزيف فيكردى ـ أن غجر أوربا أصلا من الهند . . وليسوا من مصر !

وقال هؤلاء العلماء ، إن الغجر الذين يعيشون فى عصرنا هذا ، أصبحوا أيضا يوافقون على حقيقة انتسابهم إلى الهند . . فهم يدركون أن أجدادهم جاءوا منها فعلا إلى القارة الأوربية ، وأنهم فى أوائل مراحل هجرتهم أثناء الحروب الصليبية ، أقاموا فى اليونان ، وتعلموا بسرعة من قساوسة الكنيسة البيزنطية . .

وبعض هؤلاء العلماء يفسرون شائعة انتساب الغجر للمصريين بالقصة

السابقة . . والبعض الآخر ـ مثل الباحث المجرى ـ يقول : إنه إذا ما قرأنا التاريخ الإغريقى ، فإننا سنكتشف أنهم يطلقون على قارة آسيا كلمة « ايجبتوس » ، ولأن الغجر مروا عبر آسيا فقد أطلق عليهم هذا الاسم الذى تحول بمرور الزمن إلى تصور الأوربيين بأنهم ينحدرون من مصر ، وإلى تنبه الغجر إلى هذا التصور ، واستغلاله بما لديهم من مقدرة على التخيل فى رواية القصص التى أكدوا بها فى أذهان الناس هذا الاعتقاد !

ويؤكد الباحث المجرى قدرة الغجر على التخيل بالقصة التالية : قالت امرأة غجرية إنها تعودت مع نساء قبيلتها على الاستيقاظ عند الفجر ، لغسل شعورهن من مياه جدول على جانبيه أشجار زاهية الألوان ، حتى يصبحن أكثر جمالا وإشراقا . . ولكن بالاستطراد فى الحديث مع تلك المرأة ، اتضح أنها لم تسكن طوال حياتها بجوار أى نهر ، وأن القصة من بنات أفكارها ولاأساس لها من الصحة ، إلا أنها بروايتها لتلك القصة بالطبع لا تريد خداعنا ، ولكنها تدل على أنها لو سكنت بجوار النهر لفعلت ذلك ، وحققت ما تحلم به !

أسباب الهجرة

ولكن كيف . . ولماذا هاجر الغجر من الهند ؟ . . .

إن جميع الدراسات تؤكد أنهم ينتمون إلى قبيلة « جاتس » فى الهند ، التى كانت تعيش بالقرب من مصب نهر الأندوس ، وقد كانت تلك القبيلة منبوذة من الهنود ، فهم لا يحبون أفرادها ، ويعتبرونهم أنواعا من البشر لا يجوز للهندى المتدين مخاطبتها !

وساءت الأمور بين أفراد تلك القبيلة ، وبين جيرانهم الهنود منذ أكثر من سبعة قرون ، فاضطروا للهجرة فى جماعات ، وصل بعضها إلى أوربا بعد أن قطع آلاف الأميال سيرا على الأقدام !

ويذهب بعض العلماء إلى أكثر من هذا ، فيقول إن قبيلة « الجاتس » كان أفرادها أول من سكن الهند ، وكانوا يحملون اسما آخر ، إلى أن غزا الهندوس البلاد ووجدوا أن هؤلاء القوم على درجة كبيرة من التأخر والانحطاط ، فأطلقوا عليهم تلك التسمية ، التى تحمل فى معناها ترجمة

تقول « المتشرد النشال » ، وبدءوا يطاردونهم فى كل مكان حتى جعلوا الكثيرين منهم يهاجرون فى جماعات إلى مناطق متفرقة فى العالم !

وقد أجريت فى السنوات الأخيرة دراسات على مقاييس رءوس بعض الغجر ، وبعض أفراد قبيلة الجاتس ، فاتضح أنها تنتمى إلى أصل واحد ، كما وجدوا كلمات متشابهة كثيرة من تلك التى يتكلمها الغجر ، وتلك التى يتكلمها أفراد القبيلة ممن يعيشون فى الهند حتى يومنا هذا !

واتضح أيضا أن الملامح الأسطورية الغامضة التى نراها فى قصصهم مثل قصة « الراهب ذو الرأس الرصاص » أو قصة « الملك السويسرى برانسويك » أو قصة قاطع الطريق الغجرى « بيستاباركو » .. كل تلك القصص إذا ما تعمقنا فى تفاصيلها لوجدناها قريبة جدا من الأساطير الهندية ، فهم دائما يزخرفون قصصهم مثل الهنود بالحوادث الهامة غير المألوفة ، أو بالعناصر الحقيقية القاسية ، وأحيانا بمنجزات العلم الحديث ، فالأميرة لاتسقط فى حب الفارس الذى أضمر لها حبا حتى العبادة ، ولكنها تكاد تذوب فى حب الحوذى الذى لا يملك من دنياه غير جلبابه وحصانه ، والفتى الجميل يعشق وصيفته ويهرب معها من التنين ذى الرءوس السبعة فى طائرة تطير خلف البحار ، وينفد وقود الطائرة فيتوقف فى جزيرة مهجورة ، ليملأ خزانها ، ويعود للطيران !

وكذلك إذا ما نظرنا إلى قصة قاطع الطريق ، لوجدنا أن شخصيته تجمع بين القسوة والمكر .. فهو يقول لنا فى الأسطورة إن النجاح ليس بالشجاعة .. ولكنه بالمكر ، وأن كل شىء يتوقف على الفرصة ، ولا شىء غيرها ، وهذا فعلا ما نراه فى ملامح شخصيات بعض الأساطير الهندية القديمة !

وما يؤكد لنا بصورة أكبر صلة الغجر بالهنود ، أنهم يطلقون على الإله أثناء طقوسهم اسم « ديل » أو « ديفلا » .. وهو نفس الاسم الذى يطلقه الهنود !

وحتى أغانيهم ، التى يصاحبها دائما إيقاع قوى بالأقدام والأيدى وأصوات تصدر من الفم .. إن هذا الإيقاع يعيد إلينا بمجرد سماعه جو الأغنية الهندية المصحوبة بالطبول !

وعباراتهم أثناء الغناء :

* كلما أمشى تبكى الأشجار . .
* يا إلهى لا تتخلى عنى . .
* من أغصانها الحانية تتساقط أوراق الشجر . .
* من وجهك الجميل يتساقط الندى .
* كان طعامه أقل الأطعمة ملحا . .

كل تلك الكلمات وغيرها ، هى نفسها التى نرى ملامحها فى الأغنية الهندية .

وإضافة لكل هذا فإن معظم الدراسات الجادة التى نفت تلك الأكذوبة ، أكدت على أنه عندما وصل المتجولون من الهند إلى بلاد فارس مكثوا بها وقتا طويلا ، ثم انقسموا أثناء مغادرتها إلى موجتين : أناس اتخذوا طريقا للتجوال فى شمال وغرب أوربا . . والفريق الثانى فضل التوجه إلى سوريا وشمال افريقية !

وفى مطلع القرن الرابع عشر استطاعوا النجاح فى الوصول إلى أوربا ليتمركزوا بين سهول البلقان وفى شمال نهر الدانوب ، ويقال إن الغزوات التركية ـ من المحتمل ـ أن تكون قد عجلت بتقدمهم فى اتجاه الغرب !

وفى بداية وجود الغجر فى أوربا ، كانت فنونهم تبهر الأهالى وتأسر قلوبهم ، فذاع صيتهم كمغنين ورواة بارعين ومدربى خيول وطارقى معادن وخبراء فى ألعاب الحظ ، ولهذا منحوا مميزات خاصة مثل الحق فى استخدام كلاب الصيد والحق فى المحاكمة أمام محاكمهم الخاصة !

غير أنه سرعان ما طرأ على هذا الإعجاب تغير شديد فى القرن السادس عشر ، وانقلبت الأوضاع ضدهم بعد أن اتهموا بالاساءة إلى حسن الضيافة !

وكان من نتيجة ذلك أن تعرضوا لسلسلة من المضايقات والازدراء والاهانات ، ووصل الأمر إلى حد اتهامهم بالضلال وابتداع السحر ونشر الخرافات والعادات السيئة فى البلاد !

لقد تعرض الكثيرون منهم للضغط حتى يعترفوا بجرائم لم يرتكبوها . .

وكان بعضهم يضطر إلى الاعتراف كذبا بسرقة الأطفال وأكل لحوم البشر أمام ما سلط عليهم من تعذيب رهيب !

وفى ألمانيا بالذات ألقوا بالغجر إلى الوحوش فى القرن الثامن عشر . . أما فى النمسا فقد حاولت الملكة ماريا تريزا أن تحرمهم من العيش فى الخيام والتجوال وانتخاب الرؤساء ولكنها فشلت تماما . . وحاول من بعدها بعض ملوك النمسا أن يشيدوا مستعمرات منظمة للغجر بها منازل ومدارس ، ولكنهم ضربوا عرض الحائط بتلك المحاولات ودفنوها كما دفنوا كل المحاولات السابقة !

إلا أنه فى ذلك القرن ، وفى السنوات الأخيرة بالذات ، حاولت بعض البلاد الأوربية أن تجمع الغجر للاستقرار فى فترة الشتاء - على الأقل - فى حياة عادية ، فكانوا عندما يعطونهم بيوتا مكيفة فإنهم لا يعرفون طريقة الحياة داخلها ، ويملأونها بالخرق والمهملات والحيوانات !

وقد استبدل الكثيرون منهم اليوم بالمضارب القديمة بيوتا من الصفيح أو عربات « خردة » لقطارات قديمة بينما فضل بعضهم الحياة داخل كهوف من أشهرها كهف « سكرومونت » .

وأصبح الغجر فى تجوالهم اليومى يستعملون الخرائط والعربات التى تجرها الخيول ، وإن كانت الحياة العصرية قد حددت طريقة معيشتهم وحياتهم !

ومازالوا حتى تلك اللحظة يكسبون لقمة عيشهم من الاحتيال والتجارة التى تعتمد على منتجات الصناعات الحرفية التى يبيعونها أثناء انتقالهم من بلدة لأخرى ، وهذا بخلاف إدخال السرور على قلوب السياح الذين يجرون وراء الفولكلور القديم !

وفى انجلترا بالذات فإن مهاراتهم تبدو بصورة واضحة أثناء عمل المشروبات وصنع أوراق الزهور والسلال . . وهم لا يرتكبون أية جريمة خطيرة ، فكل جرائمهم من النوع الذى يعتمد على الفهلوة والذكاء وسرعة الخاطر !

وكل الموسوعات العلمية تؤكد بأن تعداد الغجر فى العالم لا يزيد على خمسة أو ستة ملايين نسمة ، وترى بأن أفقر مجموعات الغجر هى التى تعيش فى جنوب شرق أوربا وأن أغناهم هم : غجر السويد !

ولا تختلف تلك الموسوعات حول أصل الغجر ، فهى تعطى من الدلائل ما يثبت إنتماء الغجر إلى قبيلة « جاتس » فى الهند وكيف أن بعض المؤرخين يعتقدون بأن الغجر طردوا من الهند فى القرن الرابع عشر فى عهد تيمورلنك !

طيور الحرية

وعلى كل فالإنسان الغجرى لا يهتم مطلقا بمن يلهثون وراء أصله . . فهو يعتبر نفسه دائما ابن اللحظة التى يحياها . . وهو يؤمن بأن الأرض حق للجميع . . وينظر إلى أفراد جماعته على أنهم أنقى الشعوب ، ولهذا يحثهم على عدم الاختلاط بغيرهم حتى يحافظوا على الميزات التى توارثوها أبا عن جد ، والتى من بينها ذلك الذكاء الخارق الذى اكتسبه الإنسان الغجرى من تجربته العريضة أثناء تنقلاته الدائمة !

وأى إنسان يتعمق فى أساطير الغجر سيلاحظ أنها تركز على شيئين : الحب والحرية المطلقة . . فهم فى تلك الأساطير مرة نراهم كما كانوا بالأمس طيورا تحلق فوق الأشجار والمدن ، ثم هبطوا إلى الأرض ليتحولوا إلى أناس يزحفون بحثا عما يسد رمقهم على أمل أن يأتى اليوم الذى يعودون فيه مرة أخرى كطيور طليقة لا تقيدها أدنى حركة أو قيد !

وفى أسطورة أخرى نجدهم يهيمون فى كل مكان ، لأنهم لا يحبون النوم فى مكان ثابت أكثر من فترة ، ويتشاءمون من عبور النهر الواحد مرتين ، ويحبذون الشرب من مياه البئر الواحدة مرة واحدة !

ومن أغرب ما سمعته فى أساطيرهم ، أنه فى التاريخ الغابر وقعت بعض نساء الغجر فى أيدى جيش الاسكندر الأكبر ، وعندما عدن أصر الرجال على أن يوقعن كشفا دقيقا على الأطفال الذين رزقت بهن هؤلاء النساء أثناء الأسر ، وكانوا عندما يكتشفون أن الطفل لا يشبه والده يقتلونه فى الحال ،

حتى لا يبقى إلا من يجرى فى عروقه الدم الغجرى الخالص !

وفى أساطيرهم الأخرى يهتمون دائما بوصف حفلات الزواج وما يتخللها من مرح وبهجة وأفراح لا مثيل لها . . ويصفون دائما اتفاق أهل العروسين حول المهر بطريقة تهكمية . . فالنقاش الحاد يبدأ بين والدى العروسين حول المهر وكأنهما يتناقشان حول صفقة يتمسك فيها كل طرف برأيه . . وكثيرا ما ينتهى النقاش بصدام بين الوالدين ، يؤدى إلى تبادل اللكمات وتدخل أفراد الجماعة لفك الاشتباك !

وإذا ما تم الاتفاق حول الزواج وانتهى استخدام العنف عقب تدخل الوسطاء ، فإن الاحتفالات تبدأ بالرقص والغناء والموسيقى الصاخبة لأيام عديدة ، يحضرون بعدها العروسين ويشرطون معصم كل منهما بمقطع صغير ويضعونهما فوق بعضهما حتى تمتزج دماؤهما برباط العلاقة الأبدية ، ثم يتعاهد العروسان بألا تفرق الأيام بينهما ، إلا إذا أحس طرف منهما بفتور حبه للآخر ، فالحب عند الغجر لابد أن يكون قويا كالريح العاتية ونقيا ومتجددا كأكواب اللبن الطازج !

أرواح الموتى

وإذا كان الغجر اليوم لا يحبون الحديث عن أصلهم الحقيقى ، ويرفضون الاستقرار فى مكان واحد ، فهم أيضا يكرهون الاحتفاظ بالنقود ويصرفونها ببذخ شديد بمجرد الحصول عليها ، لأن النقود فى رأيهم نذير شؤم وهلاك ، وهى وحدها التى تخلق الصراع بين الناس على هذا الكوكب !

ورغم حبهم للمرح فهم كذلك مغرمون بالحزن ، ويحتفلون بموتاهم فى مواكب لا مثيل لها ، لاعتقادهم بأن روح الميت تظل تنادى الأهل والأقارب من مكانها العلوى ، ومن عاداتهم أن يضعوا ملابس المتوفى وكل متعلقاته الشخصية داخل نعشه ، كما يذبحون حصانه حتى لا يصادقه إنسان غيره !

وأغلب زيجات الغجر تتم فى سن مبكرة جدا . . ويحذرون أطفالهم دائما من أكل قلوب الطيور . . ومن أفضل أكلاتهم التى يستمتعون بمذاقها أكلة السمك المسلوق بجوار النهر !

وأجمل عناصر الغجر هم الذين يعيشون فى أسبانيا ، وقد تركوا بصماتهم واضحة على الأغنية والموسيقى الأسبانية . . وفى شرق أوربا ينتشرون فى المطاعم والمراقص ، وكثيرا ما يقدمون لك الزهور وهم يعزفون أرق النغمات وأعنفها !

وفى الماضى حاول الغجر الاهتمام بالسياسة فانقلبت عليهم . . حدث ذلك عندما كرههم الفرنسيون لما وصل نفوذهم إلى بلاط الملك شارل الثامن وكان لهم تأثير بالغ فى صنع الحروب ومعاهدات السلام الفرنسية !

وأضافوا إلى فلسفتهم اليوم أشياء جديدة أدركوها من التجارب السابقة التى خاضوها . . وعلى رأسها عدم اهتمامهم بسياسة الدول التى يعيشون فيها . . فهم يدركون مخاطر السياسة . . ويعلمون أنها من الممكن أن تؤدى إلى انقراضهم لو اهتموا بشئونها ، ويكفى أنه عندما انقلب عليهم أهل السويد والدانمرك فى القرن السادس عشر اضطروا إلى اللجوء إلى الجبال والغابات حتى لا يتم صيدهم بنفس الطريقة التى يتم بها صيد الحيوانات والطيور !

بصماتهم فى الأدب والفن

لقد ترك الغجر بصماتهم فى العديد من الأعمال الأدبية والفنية ، ولعل من أشهر من كتب عنهم هو أديب فرنسا الكبير « ڤيكتور هوجو » فى قصته الشهيرة أحدب نوتردام ، فبطلتها هى الغجرية « أزميرالدا » التى عشقها راعى كنيسة نوتردام ، ولما صدته لفق لها جريمة وحكم عليها بالإعدام ، ولكن حبيبها المسخ الأحدب « كيزمودو » أنقذها من على حبل المشنقة !

ومن روائع الأوبرات العالمية عولجت قضية الغجر فى الأوبرا الشهيرة كارمن ، وهى قصة غجرية حاولت أن تنسلخ من الجيتو الغجرى بعد أن عشقها ضابط شاب من أسرة نبيلة ، ولكن حبيبها الغجرى القديم يلاحقها ، ويحاول قتلها مع الضابط ، ولكنها تفتدى الضابط بحياتها !

وهذه الأوبرا التى ذاع صيتها فى كل مكان ، وعرضت فى كل دور الأوبرا العالمية ، لحنها الموسيقار العالمى الكبير « بيزيه » ، وفى الوقت نفسه خلدت السينما قصة كارمن الغجرية فى فيلم يحمل اسمها فى أواخر

الأربعينات ، وفى هذا الفيلم قامت بدور كارمن ممثلة الإغراء الراحلة ريتا هيوارث ، وقاسمها البطولة النجم المشهور « جيلين فورد » الذى قام بدور الضابط العاشق ! .

وفى السينما الحديثة عالجوا قضية الغجر فى فيلم فرنسى اسمه « الغجرى » بطولة « ألن ديلون » ، والفيلم يقدم صورة حية للمطاردة التى يتعرض لها الغجر من شرطة المدينة وتعقبها لهم فى أى مكان يحطون فيه رحالهم !

وفى مطلع السبعينات شاهدت فيلما مجريا عن الغجر اسمه « أسطورة الحب والموت » وفى هذا الفيلم تحول الغجر لأول مرة فى حياتهم إلى ممثلين داخل معسكرهم ، حيث دارت أحداثه فى الأماكن الطبيعية لتجمعات الغجر ، لتكشف ذلك الصراع الرهيب المتفجر فى أعماقهم بين الحفاظ على التقاليد المتوارثة والاستسلام للحياة العصرية . . بين استمرار جذورهم أو طمس كل معالمهم إلى الأبد ! .

ورغم أننى قبل رؤية هذا الفيلم كنت معجبا بالفيلم اليوغسلافى « قابلت الغجر سعداء » الذى حصل على جائزة كان فى عام ١٩٦٩ ، فقد وجدت أن هذا الفيلم الجديد يتفوق على الفيلم الفائز لعدة أسباب ، من أهمها أنه بينما كان الفيلم اليوغسلافى يضم ممثلين محترفين ، وصوروا أحداثه فى مناطق لا يسكنها الغجر ، ولم يقدموا لنا فيه غير ملابس الغجر وتقاليدهم بصور مصطنعة ، فإن الفيلم المجرى دخل بشجاعة لأول مرة لأحد معسكرات الغجر الكائنة على مقربة من مدينة « ميشكولش » وناقش معهم تفاصيل السيناريو ليجرى عليها التعديلات المناسبة لواقعهم وتقاليدهم وذلك إضافة إلى الاستعانة بممثلين من قبائل الغجر للقيام بأدوارهم الحقيقية فى الحياة !

وقد روى لى مخرج الفيلم المجرى « ايميرى جونجتشى » كيف أنه فى أحوال كثيرة كان يطلب من الممثلين والممثلات الغجر ألا يتمسكوا بالنص وأن يعبروا عن أنفسهم من خلال الحدث وبتلقائية ، وأنه قبل أن يبدأ فى تصوير الفيلم قضى عامين وسط معسكرات الغجر يدرس تقاليدهم وعاداتهم ، ثم بدأ يكتب السيناريو الذى أراد به أن يقدم أول وقفة سينمائية

عند ثقافة الغجر بكل ما فيها من فنون وعقائد وتقاليد غريبة !

وقال إنه عندما حاول أن يدخل إلى حى الغجر فى مدينة « ميشكولش » بعد التاسعة ليلا ليسجل عادة حبهم للسباحة فى النهر على ضوء القمر ، منعه رئيس الشرطة فى المدينة من الدخول إلى الحى فى هذا الوقت بالذات ، لأن الحى به عائلتان متنازعتان وهناك قرار بعدم خروجهم للسباحة ليلا حتى لاتحدث أية جرائم فى النهر . . ولكن أمام إصراره على الدخول للحى وضرورة التصوير لتقاليد النهر ليلا ، أخذ عليه رئيس الشرطة تعهدا بمراعاة ظروف النزاع بين العائلتين ومسئوليته الكاملة عن نفسه وعن سلامة جميع أفراد جهازه الفنى !

وروى لى المصاعب الجمة التى قابلته أثناء التصوير والتى من بينها مثلا الصعوبة الكبيرة فى تحفيظ الممثلين الغجر لأدوارهم فى هذا الفيلم بسبب عدم معرفتهم للقراءة والكتابة !

وقال لى : إن هناك لقطات كثيرة من الفيلم يدور أثناءها الحوار بلغة الغجر ، حتى يشعر المتفرج كما لو كان يعيش فى التو واللحظة وسط قبائلهم بدون مكياج أو رتوش . . كما نبهنى إلى أغانى الفيلم التى استقاها من وحى الفولكلور الغجرى والتى تؤكد فى معظمها على أن الغجرى ولد إلى جوار خرير الماء ، واتحد مع النار ، وتعب من حمل الأثقال التى يتجول بها دائما من أول النهر إلى نهايته !

وفى فيلم « أسطورة الموت والحب » نرى ببساطة شديدة قصة الغجر الذين كونوا عالما خاصا لهم فى أوربا ، وتمسكوا بالتجوال رافضين أى تقدم نحو المعرفة والعلوم الإنسانية طوال ألف عام !

ففى الفيلم نرى « جيرا » الشاب الغجرى المثقف ، الماهر جدا ، بعد أن تخلى عن حياته المريحة فى المدينة ، وعاد مع صديقه إلى معسكر الغجر القديم لكى يبدأ ـ مع أكثر الناس تخلفا ـ حياته الجديدة !

إلا أن الغجر لا يثقون فى الشابين وينظرون إليهما بعين الشك والريبة منذ لحظة وصولهما ، فهم لا يفهمون قصدهما ولا الغرض من الانخراط فى

حياتهم التى لا تعرف الرفاهية أو طعم الراحة !

وفى الفيلم نرى الفتاة « دينا » المريضة بالسكر ، تعيش مع أمها اللعوب فى كوخ قديم وتلاحق الشابين كظلهما !

وفى غمار ألوان ومباهج كل يوم تجرى الأحداث فى اتجاهين : استعادة مجتمع الغجر القديم بأحزانه ومافيه من تجوال وأغان وتقاليد . . واستعراض للحاضر الذى تهدده عدم ثقتهم بأى جديد !

وتتطور الأحداث لنرى الفتى الغجرى المثقف « جيرا » وهو منهمك فى تأمل مجتمعه الذى لا يريد أن يجتاز أسوار التخلف . . ونرى زيادة آلامه عندما يرى جثمان الفتاة دينا التى انتحرت على طريقة الغجر مؤكدة عودة الغجر اليائسة لكل ما هو قديم . . ولا يجد أمامه فى النهاية سوى نهر « تيزا » حيث يرقد على شاطئه فى غيبوبة ، بينما كان أفراد قبيلة الغجر ملتفين حوله ، يمدون له أيديهم ، لعله ينجح فى أخذهم إلى تجربة لابد أن يجتازوها ، وهى تجربة البيت المستقر والمدرسة وإطاعة القوانين التى كثيرا ما لفظوها !

رحلة الاحلام

وإذا كانت أهم ميزة لهذا الفيلم تكمن فى مزجه بين الروائية والتسجيلية بصورة بارعة ، فإنه لا يعيبه سوى تلك الدعوة المباشرة لقبائل الغجر بأن تستسلم للحياة المستقرة وأن تندمج فى سهولة ويسر مع عادات وتقاليد أهل المدينة ، وهو ما ترفضه ـ بالفم المليان ـ معظم قبائل الغجر فى أوربا التى مازالت تتشبث بتراثها الملىء بالعواطف الجياشة ، وتتهكم من الحضارة الزائفة التى قادت العالم الحديث إلى جحيم الحروب والغازات السامة وإنتاج أبشع أدوات الدمار واستنزاف دماء الشعوب الفقيرة !

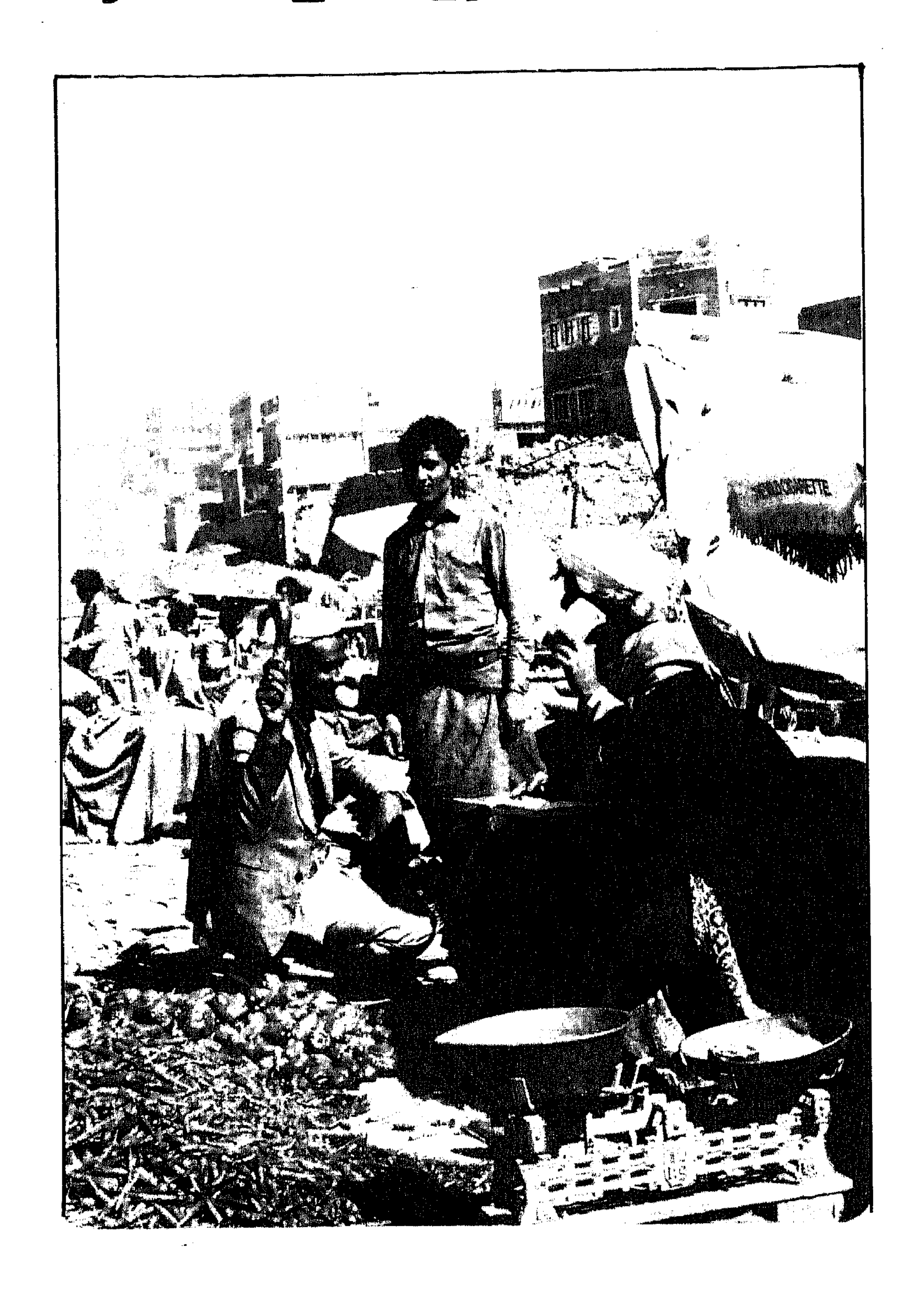
إنهم لا يحلمون بالاندماج فى تجمعات تركت الآلاف تموت من الجوع والعطش فى أفريقيا ، وهم لن يسعدهم بأى حال من الأحوال أن ينضموا إلى طابور الذين يصوبون بنادقهم ضد المستضعفين فى الأرض !

ومادامت تلك هى مشاعرهم نحو دعاة المدنية ، فهم راضون بمجتمعاتهم

الصغيرة الخارجة على عرف الحضارة ، والتى لا تملك سوى فضيلة واحدة هى الصدق مع النفس : فما أمتع أن يمارس الإنسان حريته بعيدا عن قناع الحضارة الزائف .. وما أمتع أن يحب فى اندفاع .. وأن يتشوق للنظر إلى نجوم السماء .. وأن يبحث عن الجمال والدفء أينما كان .. أن يرقص .. أن يغنى .. أن يحتضن الطبيعة ويتمسح فى ألوانها وأوراقها الحانية .. أن يسبح كما ولدته أمه فى نهر لن يراه سوى مرة واحدة وسيظل فى خياله طول العمر .. أن يتخلص من آلام العصر وأدواته القاتلة الشريرة .. أن يخلع أظافر البشرية الدامية ويستبدل بها نغمات تعيد لنا الأحلام والمتع واللحظات الجميلة التلقائية !



لابد من صنعاء
وإن طال السفر !



ذهبت إلى اليمن لأرى الإنسان الذى بنى السدود فى مصب كل سيل .. ذلك الإنسان الذى قال عنه شاعرهم الكبير عبدالله البردونى : لما تهدمت السدود بقى الإنسان الذى شيدها .. بقيت القرية التى تستجيب لكل مستغيث من غزو السيل .. كما تجيب كل مستغيث من سطو المعتدى .. وكانت التقاليد أن تنسى القرى خصوماتها القديمة .. وتدفن ذكريات حروبها حين تصرخ الإستغاثة ، لأنها تستفز المروءة !

هكذا كان الإنسان فى اليمن .. مشحونا بدافع العمل الاجتماعى .. تسرى طبيعة النجدة فى عروقه .. إذا تصدت السيول لبيت تجمعت القرية كتفا إلى كتف وزندا إلى زند .. يتغزل فى تراب أرضه .. يصل بحضارته إلى دول آسيا وأفريقيا بما فيها وادى النيل وشمال أفريقيا وأوربا حتى بحر الظلمات فى بريطانيا !

لا يبنى ـ كما قال المرحوم عباس العقاد ـ مجرد ممالك عربية عريقة فى التقدم والتمدن والتجارة ، بل يبنى لنا أصحاب علم لهم أحرف هجائية لا يقل قدمها عن الخطين الهيروغليفى والآشورى !

عشاقها يركضون

فى صنعاء وقفت من شرفتى فى فندق « سام » أتأمل الجبل الشامخ .. ووجه العاصمة بعشاقها الذين يركضون تحت قمرها .. ويتقبلونها على أى الأحوال .. عندما تحنو رياحها ، أو حينما تقسو عليهم بأذرع الشمس الملتهبة أو برد الليل القارس !

ولا أدرى لماذا مر بى طيف شاعرها العظيم الراحل محمد محمود الزبيرى وأنا غارق فى لحظات التأمل ؟ ..

ربما لأن قصائده المقاتلة فى وجه جلادى سنوات البطش والجمود والتخلف ، قد ذكرتنى بهذا الفارس الصلب النبيل بمعنى الكلمة ، الذى وهب كل ذرة من كيانه لعشق الوطن ، وكانت يداه الحانيتان تمتدان لمسح آلام الناس ومشاركتهم أحزانهم ، فقد كان يجمع ـ دائما ـ أشتات جراحهم فى ضلوعه ليطبعها شعرا ، ما إن أتذكره حتى يهز أعماقى ، خاصة عندما

يعاتب معشوقته الأبدية « صنعاء » قائلا :

صنْعَــــاء ويحَـــكِ مـــا للظلـــمِ
قــد رسخــتْ آثامُــه فيــك واستشــرت خطايــاهُ
وسّــعت صــدرَك لــلطغيــانِ يــصــنــعُ مــا
يَــهْــوى وعــيــنُــك تــحْــمــيــه وتَــرعــاهُ

إنه بحق واحد من شعرائها البارزين الذين أحبوا صنعاء وخاطبوها تحت كل الظروف ، فهي ملاذهم وحبهم الخالص من كل غرض أو زيف . . تراهم يسمونها فى أشعارهم أحيانا « لؤلؤة العرب » لأنها فى نظرهم المدينة العربية الأصيلة التى لا يكتشف كوامن العراقة والإبداع فيها إلا غواص ماهر !

ويراها بعضهم كالفتاة الأسطورية التى تغطى ظهرها ضفائر مفتولة لشعر حرير أبتلت أطرافه بنقط المياه !

ويحس شاعر آخر بأنها عندما تكون بجانبه تتعانق الأشجار وتصبح ظلا بلون الشفاه ، فعيناها حمامتان بريتان ، عندما تكبران يسترخى ، وعندما تغلقهما ينكمش ، ولذا فعليها أن تفتح دائما عينيها حتى يصبح جزءا من ذرات الضوء !

ويطالبها بعضهم وخاصة الأديب المبدع حسن اللوزى بأن تخلع تراب التعب وعباءة السنين المنكسرة ، فهى الأم الخالدة التى ابتدأ التاريخ الزاهى للبشرية من سرتها الخضراء ، ومن فمها الريان انبثقت أنهار الحكمة .

أما شاعرها المتألق الدكتور عبدالعزيز المقالح الذى ظل بعيدا عنها عشر سنوات منذ عام ١٩٦٧ حتى عام ١٩٧٧ ، لا يزورها سوى فى الشعر ولا يلتقى بها إلا فى الأحلام ، فقد كانت صنعاء ، كما أحسها فى غربته ، هى رغيف الخبز وفنجان القهوة والصورة المرئية عبر كل المناظر والألوان ، ولهذا حاول فى قصيدته « البكاء بين يدى صنعاء » التى كتبها فى عام ١٩٧٢ أن يخاطبها برسائل وبرقيات الشوق التى تحولت إلى انفجارات تأكل القلب وتمزق اللحم والعظم بعد أن زاد حنينه إلى أن يمسح على ترابها الندى أوجاع غربته الطويلة :

صنعــاءُ يــا أنشــودةً عَبَقَتْ وأجــادَ فــى انشــادِهــا الأزلُ
إن أبعــدتنى عنــكِ عــاصفــةٌ وتفــرقَتْ مــا بينَنَــا السُّبُــلُ

يجتــاحنى شــوقٌ ، ويسحقُنى شــوقٌ ، وفى التــذكــارِ أشتعــلُ
مــا نجمــةٌ فى الأفقِ عــابــرةٌ إلا هتفتُ بهــا متى نصــلُ ؟

إلا أنه عندما عاد إلى وطنه أخذ يتساءل : ما الذى يصنع الدهشة فى عيون زائرى المدينة ؟ هل هو عطر التاريخ أم شيخوخة الأحجار ؟ . . هل هو نظام البناء أم مادة البناء ؟ هل هو توجع الأيام الغابرة أم طريقة التخطيط والترتيب ؟ . .

ومن كثرة عشقه لمدينته إحتار أمام تقديم الإجابة الشافية ، وبدلا من أن يشفى رغبتنا فى الوصول إلى الإجابة بأقصر الطرق ، راح يروى قصة طريفة تناقلها أهل صنعاء فى الخمسينات عن سيدة أمريكية طلبت من الإمام أحمد آخر حكام اليمن من الأئمة أن يبيع لها صنعاء بأربعين مليون دولار بعد أن يقوم بإخلائها من سكانها ، على أن يبنى لهم مدينة فى مكان آخر من الوادى الذى تنهض صنعاء القديمة على جانب صغير من جوانبه الواسعة !

ورغم غرابة القصة ، فالحقيقة المؤكدة أن الناس اهتموا بها ورددوها على نطاق واسع فى ذلك الوقت ، وأصبح أهل العاصمة يذكرونها ـ دائما ـ فى جلساتهم أمام كل ضيف ، لا لشىء ، إلا لأن روايتها فى حد ذاتها تنبه عشاق المدن القديمة إلى ضرورة العناية بالمدينة العريقة ذات الطابع المميز والخصوصية الفريدة ، كما أنها تجعلنا نقترب أكثر من إحساس الإنسان اليمنى بأرضه ونبع حضارتها العريقة الذى لا يدانيه أى إحساس . . فاليمنى ـ باختصار ـ لا يؤرقه شىء فى غربته قدر حنينه إلى لون المطر الذى يتساقط على جبال الوطن .

إنه فى غربته جمرة من الشوق تؤكد ما ردده العرب فى أقوالهم :

لابــد من صنعــا وإن طــالَ السفــر
وإن تــحنى كــلُ عــودٍ وانعــقــر

اختلاف الروايات

فى صنعاء أعرف أنها كانت أول مدينة تبنى بعد الطوفان ، عندما وجد « سام بن نوح » فى اليمن المسكن الطيب ، فوضع مقرانه (الخيط الذى يقدر به البناء) ليحمله طائر حاول اللحاق به لينظر أين يسقطه فإذا به يرميه على مرتفع ، كان البداية لتاريخ نشأة المدينة .

غير أن ياقوت الحموى يرى أن بانيها هو ازال بن يقطن بن عامر بن شالخ ابن أرمخشد بن سام بن نوح ، ولذلك سموها فى البداية « ازال » حتى فتحها الأحباش فى عام (٥٢٥ م) ووجدوها مبنية بالحجارة الحصينة ، فقالوا هذه « صنعة » ومعناها « حصينة » ومن يومها عرفت باسم صنعاء !

وقد جاءها الاحتلال الحبشى عندما اتسعت وذاع صيتها ، ليواجه مقاومة باسلة بقيادة سيف بن ذى يزن الملك اليمنى الذى دارت حوله أقاصيص البطولة الخالدة والشجاعة الخارقة حتى أصبح بطلا شعبيا فى تراث القصص الشعبى وخاصة فى ألف ليلة وليلة ، وقد ساند الفرس هذا البطل فى حروبه ثم حكموا فيما بعد اليمن أربعين عاما حتى كان فجر الإسلام .

ورغم ما مر بصنعاء من أحداث جسام ، فإن الذاكرة تتوقف دائما أمام حدثين هامين : أولهما عندما اتخذ أبرهة من صنعاء عاصمة لليمن وخرج فى جيش كبير لمهاجمة الكعبة المشرفة ، فكانت خاتمته من أبشع النهايات . أما الحدث الثانى فكان عندما اقتحم بعض رجال القبائل أبوابها ليلا فى أوائل شهر مارس عام ١٩٤٨ ، وتسلقوا سورها الطينى لينهبوا البيوت والمتاجر ويخربوا المطار ، فقد أصبحت صنعاء فى تلك الليلة المظلمة مدينة مستباحة ، لابد من أن تدفع ثمن مصرع الإمام يحيى بن محمد حميد الدين الذى خرج فى ١٨ فبراير عام ١٩٤٨ إلى قرية « حِزْيَزْ » جنوب صنعاء مع حفيديه ووزيره حسين بن عبدالله العمرى ونائب الحديدة نسب حسين الحلالى وصديق محمد بن محمد باشا ، فاعترضت موكبهم سيارة لورى كانت تقف فى منتصف الطريق وانهالت منها طلقات مدفع رشاش فقضى فى الحال على الإمام ومن معه !

وباستثناء هذين الحدثين الصارخين ، فهى مدينة تقرأ فى صفحاتها مئات القصص العجيبة التى يزخر بها تاريخها الغابر ، فقد قامت - كما قال الكاتب العربى أمين الريحانى - بين شمس المجوس وكواكب الأوثان ، وتعددت فيها الأسرار والكهان ، وعزَّت عندها آمال الإنسان فكانت ملكة سبأ ، وكان حمير وقحطان ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان ، وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء نوابغ فى البناء .

السور العظيم

مدينة صنعاء فى صورتها الراهنة ترتفع فوق سطح البحر ٢٤٠٠ متر ، وتراها رابضة فوق سهل منبسط فسيح ، يحيط به من الغرب جبل عيبان ومن الشرق جبل نقم ، ويداهمها كل شتاء البرد الشديد بينما يعتدل مناخها بشكل ملحوظ فى شهور الصيف .

كانت فى القرن السادس الهجرى محاطة بسور عظيم ، له سبعة أبواب ظل حراسها على مر التاريخ يغلقونها بعد مغرب كل ليل ويقبعون خلفها نائمين حتى الفجر !

وقد ذكر رحالة إيطالى فى القرن التاسع الهجرى أن أعلى السور كانت تسير فوقه ثمانية خيول مجتمعة !

وقد تهدمت معظم آثار السور العظيم فى الستينات ولم يتبق من أبوابها السبعة إلا باب واحد هو « باب اليمن » الذى أصلحه الوالى التركى أحمد فيضى فى أوائل القرن الرابع عشر ، وامتدت صنعاء القديمة خارج هذا السور بعد قيام الثورة اليمنية فى ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ ، وزحف العمران والبنيان فى جميع الاتجاهات ليلبى احتياجات ٤٠٠ ألف نسمة - هم سكان المدينة - محاولا التمسك بطابع التجانس فى المبانى حتى لا تفقد مدينة القصور رائحتها التاريخية .

وفى ١٦ يوليو ١٧٦٣ م وقف أمام أبواب هذا السور الرحالة والعلامة الدانماركى « كارستن نيبور » الذى سافر مع بعثة مكونة من خمسة أفراد إلى مصر واليمن بتكليف من ملك الدانمارك ، وعندما فتحت أبواب صنعاء

استقبله كاتب الفقيه أحمد وزير الدولة الذى أتاه كمندوب عن الإمام المهدى عباس ومعه مؤنة مقدمة من الإمام عبارة عن أغنام وجمال محملة بوقود للطبخ وشموع وأكياس أرز وكمية لا بأس بها من الخضراوات ، وبعد الترحيب به وبأصحابه أعطى لكل منهم ثوبا يمنيا ، ثم أخذهم إلى بيت محاط بحديقة غناء بها نافورات وبرك وأعناب وزهور ، وعقب راحتهم ذهبوا للقاء الإمام مع بقية أفراد الشعب فى داره فى بستان « المتوكل » ، وأدخلوهم على الإمام لتقبيل يده وثوبه المتدلى على ركبتيه ، وما إن انحنى نيبور ليقبل يد الإمام حتى ضجت القاعة بصوت واحد وكذلك خارج القصر « الله يحفظ الإمام » ثم أعادوهم إلى البيت ليتسلموا هديتهم التى كانت عبارة عن كيس ملىء بالعملة الفضية !

ورغم أن مثل تلك المشاهد التى رواها « نيبور » بعد منتصف القرن الثامن عشر قد رأيناها صورة طبق الأصل فى أفلام ألف ليلة وليلة الغربية المفرطة فى الخيال ، فإن الحقيقة الساطعة تؤكد أن الرحالة العالم لم يخرج مع صحبه من أبواب صنعاء إلا بعد أن حمل إلى أوربا أول معلومات جغرافية وعلمية عن اليمن السعيد !

الأسواق والجامع الكبير

عندما تعبر باب اليمن إلى سوق الملح ستشعر كأنك لم تغادر بداية عصر التجارة فى تاريخ اليمن الإسلامى ، حيث الكهرمان والأحجار الكريمة وكأنها قد أحضرها لتوها التجار اليمنيون الحاذقون من الهند وبلاد الشرق الأقصى . . وسترى الحرفيين المهرة ذوى السمعة الكبيرة وخاصة فى صناعة الجنبية (الخناجر) والسيوف . . كما يمكنك فى نفس السوق العثور على الأسلحة القديمة إذا ما كنت من هواة جمعها .

وقد تكون محظوظا أثناء عبورك من باب اليمن إذا ما صادفت لاعبى المزامير وضاربى الطبول وراقصى الجنابى ، فمثل هذا المشهد لن يضيع من ذاكرتك على مر الأيام .

وستجد نفسك منساقا إلى الجامع الكبير الذى يعتبر من المساجد الثلاثة الأوائل فى اليمن ، ويرجع تاريخه إلى القرن السابع الميلادى ، ويعتبر تحفة فنية أثرية تدل على مدى عظمة الإنسان اليمنى ، فقد بناه ملوك بنى يعفر الحواليون وسجلوا أسماءهم على أخشابه وأحجاره ، ومازالت واضحة رغم محاولات إزالتها فى العصور التى أعقبتهم .

وأثناء التجوال فى المدينة عليك أن تتذوق العنب ، فهم يقطفون منه أكثر من أربعين صنفا تنافس فى حلاوتها أشهر أنواع الكروم فى العالم !

وعندما زرت المتحف الوطنى ، لم أصدق عينى وأنا أرى تلك المجموعات الأثرية النادرة ، التى أكدت لى ماذكره المؤرخ « جوستاف لوبون » من أن المدن الكبرى فى اليمن ظلت مدة تزيد على ألفى عام هى المستودعات التجارية للعالم ، وأنها لعبت الدور الذى لعبته البندقية فى عصرها الزاهر !

ولاحظت هنا أن معظم اليمنيين يتميزون بالنحافة ويرتدون لباسهم الوطنى « الفوطة » التى يتمنطقون عليها بحزام جلدى يضعون فى منتصفه الجنبية ، كما يحتفظون أحيانا بحزام الذخيرة ويحملون البنادق كرمز للرجولة !

أول قصور اليمن

وحدثنى أهل صنعاء عن قصر غمدان الشهير ، أول قصور اليمن وأعجبها ذكرا ، فقد بالغوا فى وصفه فقالوا إن ملوك اليمن كانوا يحرصون على إقامة مجالسهم فى أعلى البنيان بالليل ، وكانوا عندما يشعلون الشموع لإضاءة المكان تراها قوافل المسافرين من على بعد ثلاثة أيام !

وكما اختلفوا حول طوابقه هل كانت سبعة أو عشرين ، اختلفوا ـ كذلك ـ حول بانيه فهو تارة سام بن نوح ، وتارة أخرى بانيه حام بن نوح ، وهناك من يقول إنه يعرب بن قحطان ، وهناك من يشير إلى سليمان بن داود الذى أمر الجان بأن يبنوا لبلقيس ثلاثة قصور فى صنعاء هى غمدان وسلحين وبنيون ، بينما نجد من يقول إن بانيه هو القائد العظيم « إلى شرح يخصب » الذى استطاع اليمنيون بقيادته أن يسحقوا الجيش الرومانى على جبال صعده وعسير

وسهل نجران ، واستطاع أيضا أن يعيد إلى الملاحة العربية نشاطها فى البحر الأحمر والخليج العربى ، وأعاد الروح إلى سد مأرب وغيره من السدود ، وبذلك ظلت روحه تحفظ العروبة فى جزيرتها قبل أن يتهيأ لها رفع راية الإسلام .

ورغم كل تلك الاختلافات حول شخصية البانى ، فكل المصادر تجمع على أن قصر غمدان كان مربع الأركان ، مبنيا بالرخام الملون ، فى زواياه الأربع أسود من نحاس أصفر خارجة صدورها ، تزأر عندما تهب الريح فى أجوافها كما يزأر الأسد الجائع ، وكان فى صدره قطارة (ساعة) تحسب الوقت قبل أن تعرف أوربا هذه الآلة الدقيقة بسنوات طويلة ، وكانت غرفه الشهيرة (المحاريب) محكمة البناء وبه ينابيع ماء عذبة المذاق ، وقد وصف هذا القصر الجغرافى العربى والشاعر اليمنى الحسن بن أحمد الهمدانى بقوله :

من بعد غمدان المنيفِ وأهلِهِ ... وهو الشفاءُ لقلب من يتفكر
يسمو إلى كبد السماءِ مصعدا ... عشرينَ سقفا سمكُها لا يقصر
وبكل ركن رأسُ نسرٍ طائرٍ ... أو رأسُ ليثٍ من نحاس يزأر
متضمنا فى صدره قطارةً ... لحسابِ أجزاء النهارِ تقطر

وضّاح اليمن وعشاق « المجاعة » !

وفى صنعاء ستحرك أشجانك قصص كثيرة يرددها أهلها فى جلساتهم ، وإن كانت بعض أحداثها وقعت خارج مدينتهم .. قصة بلقيس ملكة سبأ واستسلامها للملك سليمان ، والسيرة الشعبية للبطل سيف بن ذى يزن ، وقصة إسماعيل عبدالرحمن أو « وضاح اليمن » الشاعر الذى عانى أقسى حب ، وسافر خلف فتاة أحلامه « روضة » التى هربت مع والدها إلى الحجاز بسبب أشعاره ، ليجدها مصابة بالجذام ، ولم يعد يعرفها لبشاعة صورتها ، ولم تعد تعرفه لضعف بصرها !

وسيروون لك قصة الطبيبة الفرنسية « كلودى فايان » التى جاءت من

باريس إلى صنعاء فى الخمسينات لتعمل كطبيبة ولتسجل انطباعاتها فى كتاب بديع بعنوان « كنت طبيبة فى اليمن » وفيه تحدثت عن الطبيعة البكر وشوارع صنعاء وبيوتها التى تزخرفها النوافذ العالية الواسعة وخيولها الهادئة الساكنة التى تحيط رقابها بعقود من الحرير ويمتطيها أسياد لهم هيئة صارمة يحتزمون بالخناجر وكأنهم خرجوا مباشرة من إحدى قصص ألف ليلة وليلة ، وقالت إنه لا يوجد فى صنعاء شىء من الغرب يعكر فتنتها ولهذا أحبتها من أعماقها ، وتعلقت بذلك البيت الذى أعدوه لها وكانت جدرانه بيضاء وبسقوفه نتوءات بارزة للأخشاب المصبوغة بالجص ، والذى فرشوه بالحصير ووضعوا بداخله موقدا للفحم فوقه غلاية لتسخين الماء للاستحمام ، وفى هذا الكتاب وجهت نداءها للعالم المتحضر لإنقاذ صنعاء قبل أن يزحف على واديها الأخضر وبيوتها القديمة المعطرة بالأصالة العمارات الخرسانية الحديثة فتسرق روحها المتميزة وطابعها الفريد !

وستلاحظ أن الحِلبة هى سيدة الأطعمة فى العاصمة ، فاليمنى يضيفها إلى المرق والخضار والبيض واللحم وغيرها ، كما ستكتشف أنهم مولعون بتدخين المداعة (النرجيلة) منذ أن أدخل إلى اليمن دخانها أو « التتن » بالتركى حكيم مغربى اسمه الشيخ على المغربى فى بداية القرن الحادى عشر وعلى أيام الوالى التركى سنان باشا ، فقد أحضر معه بعض بذوره التى ثبتت صلاحية زراعتها فى أرض اليمن ، ورغم أن بعض الحكام حاربوها فى البداية وأحرقوا مزارعها فإن الناس تعودوا عليها لتصبح اليوم أمرا طبيعيا ، بل ولينتشر تدخينها فى البيوت والمقاهى !

هجرة البن والقات

وقد استمعت منهم إلى قصة ظهور تلك الشجرة الصغيرة ذات الخضرة الدائمة التى أطلقنا عليها اسم شجرة « البن » بعد أن نقلها اليمنيون إلى أرضهم من الحبشة (أثيوبيا) فى القرن العاشر الميلادى ، وظلوا يمضغونها فى البداية بعد أن ولعوا بقشر البن أكثر من ولعهم بلبه ، إلى أن شربوها فى أكواب فى القرن الخامس عشر الميلادى بعد تقشيرها وتحميصها وطحنها وغليها فى الماء ، ومنذ ذلك التاريخ طوروا زراعتها وأصبحت الشجرة

عندهم تنتج أقصى محصول لها بين السنة الخامسة والعاشرة ، كما أصبح عمرها فى المتوسط لا يقل عن أربعين سنة ، ومع انتشار استخدام « القهوة » فى العالم كله أصبح البن أهم الحاصلات الزراعية فى اليمن ، ووصل إنتاجه فى العام الواحد إلى أكثر من سبعة آلاف طن !

واستمتعت بكل ما رووه أمامى عن شجرة القات التى جاءت إلى اليمن مع غزو الأحباش فى القرن السادس الميلادى ، فقد أحضروها معهم بحجة أنها تعمل على شحذ الذاكرة وإبعاد الهم والحزن ، لكن الإمام اليمنى شرف الدين حرمها بعد أن اكتشف أن قليلها منبه وكثيرها مخدر ، وأمر ولده « المطهر » بقلعها ، ورغم ذلك ظلت من بعده جلسات القات تعقد فى منازل الفقراء والأغنياء على حد سواء ، يتحلقون حولها بالساعات الطوال ، حيث يتم تخزينها فى شدق المتعاطى الذى يقوم باستحلابها ببطء مع جرعات الماء المثلج !

وقد انتشر القات بصورة واسعة فى المجتمع اليمنى منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، وكان أكثر المتحمسين له هم الأدباء الذين ألفوا قصائد عديدة فى مدحه ، وظل منتشرا حتى اليوم بحجة أنه يجمع الناس دائما فى مجالس ثقافية تدور فيها المناقشات المتنوعة التى تؤثر فى مستوى الأدب والشعر بشكل ملحوظ ، كما أنه ـ فى نظر هواته ـ حمى البلاد من انتشار الحشيش الذى له أضرار لا يمكن مقارنتها بأى حال من الأحوال بأضرار القات !

الجامعة والتراث الشعبى

ولأن صنعاء هى العاصمة التى تتركز فيها الحركة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، فإنها دائما تستقبل مع كل صباح أحداثا جديدة .

وتأتى جامعة صنعاء بكلياتها المتعددة ، لتلعب دورها فى تطوير المجتمع وحركته الثقافية ، وهى جامعة مختلطة أنشئت فى عام ١٩٧٠ ، وبدأت بأربعة وستين طالبا وطالبة ، أصبحوا فى عام ١٩٨٨ حوالى ٢٧ ألف طالب وطالبة .

وقد لاحظت أن بعض الطالبات يحتفظن بالحجاب داخل الجامعة ،

ولاحظت أيضا أن المرأة فى القرى المحصنة فوق الهضاب الوسطى تشارك الرجل فى الزراعة بالحقول والمصاطب ، كما أنها المسئولة عن بيع المحاصيل !

وهذا ليس بغريب ، فقد رأت اليمن قيادات نسائية عظيمة فى الماضى مثل أم الشهيد « لقية » التى قامت بدورها فى الحركة الوطنية ، وحورية المؤيد وليلى الوادعى وفاطمة أبوبكر وغيرهن !

وعموما فالمرأة اليمنية تتميز بسرعة البديهة وطلاقة اللسان ، وهناك نساء كثيرات اشتهرن بالعلم وبرزن فى المجال الثقافى مثل صفية بنت المرتضى التى برزت فى علم النحو ، وفاطمة بنت أحمد بن يحيى التى تخصصت فى حل المشكلات العلمية ، وغيرهما كثيرات .

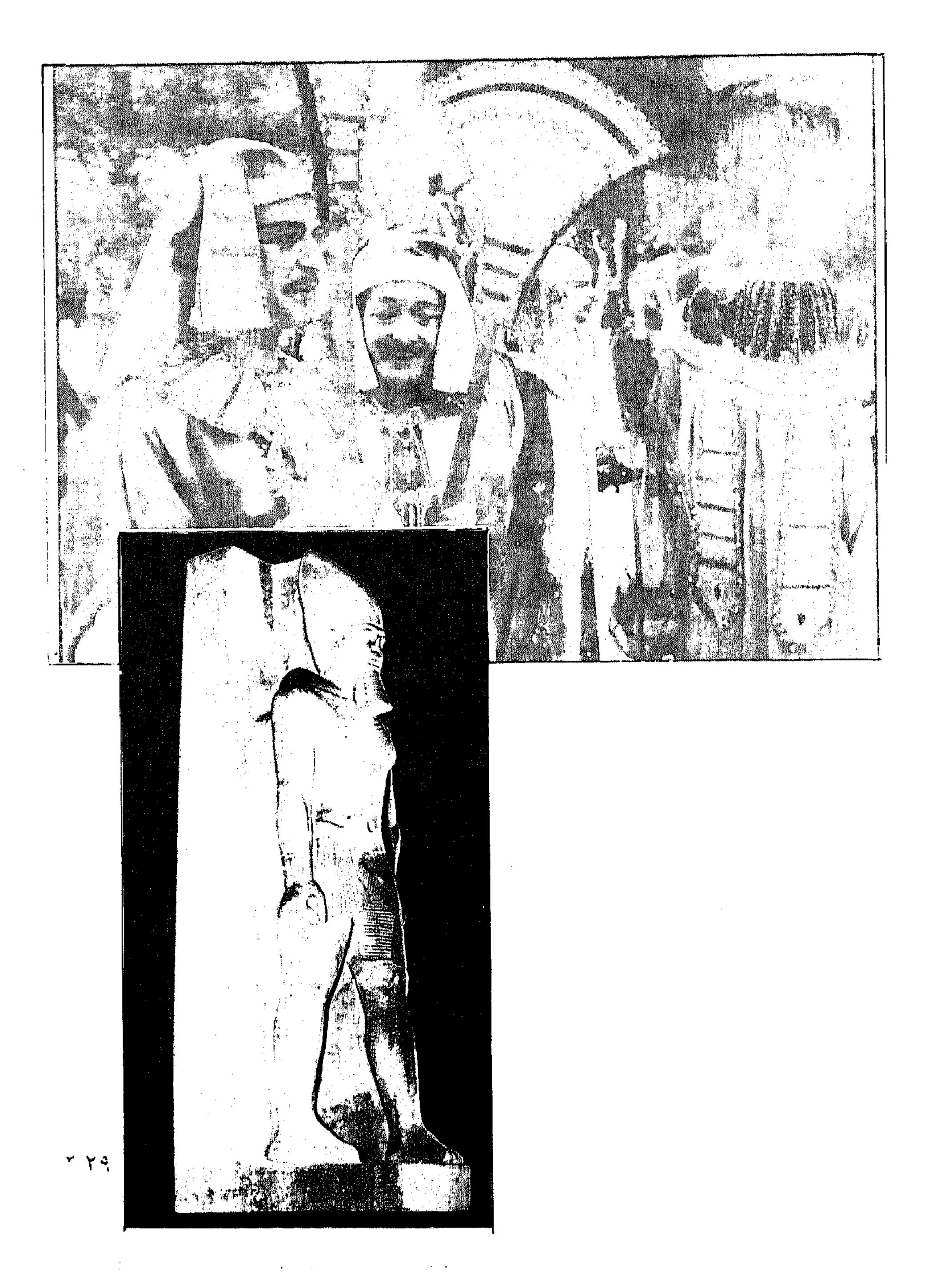
وعندما سألت عن أهم ملامح التراث الشعبى فى البلاد ، قالوا يأتى فى مقدمته الفن المعمارى الذى توارثه الإنسان اليمنى عن أجداده الذين بنوا ناطحات سحاب مثل قصر غمدان ، ثم تلوين زجاج النوافذ المعشق ، وتصميم مداخل المنازل والشرفات بفن متفرد ، لتأتى بعد ذلك الرقصات الشعبية التى من بينها رقصة البالة التى تشبه رقصة الدبكة الشامية ، ورقصة الطيور التى مازالت تمارس فى لواء صعدة ويرقصونها وهم يرتدون قمصانا ذات أكمام تشبه أجنحة الطيور .

أما فى صنعاء فإنهم يرقصون الرقصة الصنعائية المعقدة الحركات ، يرقصونها تحت قطعة من الرخام تسمى « المسرجة » يضعون فيها الزيت وجدائل من القطن تُشعل طوال الليل !

وهناك رقصات عديدة مثل المزمار والسيارى والبيضاء وزبيت وغيرها ، فاليمنى يعشق الرقص الشعبى بصورة ملحوظة ، وإذا ما أراد مثلا أن يتهكم على شخص لا يجيد هذا الفن قال عنه : ما رقصش تحت المسرجة !

إنها صور نابضة بالحياة للإنسان والمكان فى صنعاء . . فالإنسان ـ هنا ـ الذى قضى معظم أيام حياته على مر العصور يبحث عن الماء ويعانى فى أحوال عديدة من آلام العطش ، يسعى اليوم سواء كان من سكان الجبال أو السهول أو الصحراء إلى حل متناقضاته الداخلية بكل ما يملك من قدرة وجهد لعله يقضى على القديم المعطل الذى ترسبت جذوره منذ انهيار سد مأرب فى القرن السابع قبل الميلاد !

قصيدة عشق على نهر المسيسبي !



كانت البداية مع رمسيس العظيم - كما أطلقوا عليه فى مدينة ممفيس الأمريكية - عندما جلست فى الطائرة المتجهة إلى مدينة نيويورك إلى جوار عالم الآثار المعروف الدكتور جمال مختار لأقول له : لماذا تذهب آثارنا بكل ما لها من قيمة لا تقدر بثمن إلى آخر الدنيا ، بينما نقرأ أخيرا عن رفض وزير الثقافة الفرنسى لتحريك لوحة « الموناليزا » من متحف اللوفر لعرضها خارج الحدود ، رغم أن آثارنا المرسلة إلى الخارج يزيد تاريخها على ٣٥٠٠ سنة ، بينما اللوحة الشهيرة للفنان ليوناردو دافنشى لا يزيد عمرها على ٤٨٦ عاما ؟ !

ونظر إلىّ العالم الكبير فى استغراب شديد وكأنه لم يكن يتوقع أن أبدأ أسئلتى بهذا السؤال الخائف على تراث الفرعون الطويل القامة ، الوسيم ، الأسود الشعر ، الفحل ، المتهور إلى أبعد الحدود ، والذى دفعه إدمانه للشهرة إلى منافسة « أبولمعة » فى نقوشه التى لفت نظرنا فيها عندما قال - بدون خجل - إنه قتل بيديه ٧٥٠٠ محارب فى معركة قادش خلال يوم واحد بعد أن تخلى عنه كل جنوده الذين غمرهم بأفضاله ، ولم يثبت معه غير سائق عربته الحربية وجواده !

وأردت أن أبرر للعالم الكبير سر سؤالى وأن أضع نهاية لاستغرابه ، فواصلت حديثى قائلا : لعلك سمعت عن لعنة الفراعنة التى كادت تلحق برمسيس الثانى وتفعل معه كما فعلت مع اللورد الانجليزى « كارنارفون » عندما قتلته بعوضة بعد تمويله لاكتشاف مقبرة توت عنخ آمون منذ ٦٥ عاما ، فكما تعلم كان هناك اتفاق لنقل تمثال رمسيس على إحدى البواخر اليونانية ، ولكنها غرقت فى خليج بسكاى وهى فى طريقها لمدينة الاسكندرية ، وفى نفس المكان الذى حاول لصوص الآثار عبوره وهم يحملون تابوتا مسروقا من هرم الملك منقرع ، فغرق معهم ومازال فى القاع منذ القرن الماضى !

وهنا انبرى الدكتور جمال مختار ليقدم حيثيات دفاعه فى حماس لا حدود له : صحيح أنهم رفضوا أخيرا عرض الموناليزا فى الخارج ، ولكنهم عرضوها من قبل فى اليابان وأمريكا ، وهم فى هذا يتساوون معنا عندما قررنا ألا نعرض آثار توت عنخ آمون فى الخارج ، والاكتفاء بدورها العظيم فى

العروض السابقة . . وبصراحة فكل الدنيا لو سنحت لها مثل تلك الفرصة فلن تتباطأ . . والأمثلة على ذلك عديدة ، منها أن جواهر العائلة المالكة الروسية تعرض منذ خمسين عاما فى دول أوربا وأمريكا ، والمتحف العراقى أرسل ثمانية معارض من أهم مقتنياته الأثرية للخارج ، وحتى الصين أدركت ضرورة دخولها لهذه الحلبة فأرسلت تابوتا كاملا من أندر مقتنياتها الأثرية ليلف الدنيا !

وبدأ يتحدث فى إسهاب عن مدى استفادتنا ـ على سبيل المثال ـ من هذا المعرض الذى سيتجاوز إيراده فى كل مدينة أمريكية الـ ٤٠٠ ألف دولار ، تتحول تلقائيا للمساهمة فى إقامة متحف الحضارة بأرض الجزيرة ومتحف أسوان ، كما أن الـ ٧٢ قطعة أثرية التى أرسلت إليه أخذت فرصتها من التقوية والاعتناء ، فتمثال رمسيس الثانى مثلا الذى أخذوه فى هذا المعرض صرفوا على ترميمه ١٠٠ ألف دولار ، ولو تجاوزنا مسألة الـ ٣٢ مليون دولار المؤمن بها على تلك الآثار ، ومسألة أننا لا نرسل للخارج آثارا من الدرجة الأولى أو آثارا لا يوجد مثيل لها ، فإن معرض رمسيس الحالى فى مدينة ممفيس سيعطى دفعة كبيرة للدعاية لمصر وللآثار المصرية ، وسيؤدى إلى تعميق التعاون الثقافى بين مصر وأمريكا ، وهو تعاون يؤدى بالتالى إلى تعميق العلاقات على المستوى السياسى .

ثم نظر إلىَّ وقال : وقد علمتنا الحياة أن نرى ونحكم ، ولذا فموعدى معك عندما ترى رمسيس القادم من مدينة منف على رأس الدلتا ومدى جاذبيته وسحره على عقول الـ ٦٠٠ ألف نسمة الذين يسكنون مدينة ممفيس الأمريكية القابعة على قمة نهر المسيسبى !

سلطان القوة والمكان

وتحدد اللقاء مع مدينة ممفيس بعد ١٣ ساعة طيرانا إلى نيويورك ، أضف إليها أربع ساعات قضيناها فى مطار باريس بسبب إضراب عمال المطار ، ثم حوالى ثلاث ساعات طيران إلى المدينة المحتفية بالفرعون الذى دفعته هيبة مصر لمحاربة دولة خيتا (الحيثيين) التى كانت فى آسيا الصغرى (الأناضول) وكانت أطماعها تصل إلى رغبة عارمة فى ضم الإمارات

السورية ، ولذلك حرضتها على الثورة ضد مصر ، وانتهت الحرب بعقد رمسيس الثانى لأول معاهدة صلح فى التاريخ مع دولة ميتانى ، ليعيش بعدها فى سلام ٤٦ عاما من سنوات حكمه التى بلغت ٦٧ عاما ، متوجها بكل طاقاته إلى البناء والإصلاح ، محيطا نفسه بمتع السكينة ، متفرغا لتخليد تاريخه بكل الوسائل ، بداية من بناء المعابد إلى نزع أسماء الملوك الذين سبقوه وإحلال اسمه على آثارهم سواء فى النوبة أو الوادى أو الدلتا !

وإذا كانت مسلته القابعة حاليا فى « الكونكورد » بباريس تصفه لنا من خلال ما عليها من كتابات هيروغليفية على أنه قاهر الشعوب الأجنبية ، والسيد على كل من لبس تاجا ، والمحارب الذى خضع العالم كله لسلطانه وقوته التى لا تقهر ، فإنه يندفع طوال بقية سنوات حياته التى امتدت إلى ٩٦ عاما ، ليغترف من متع الحياة ، فالقوة - تاريخيا - تتهاوى وتضعف دائما أمام الجمال ، وهى تزدهر بالذرية ، ولهذا أنجب ١١١ ولدا و٦٧ بنتا من ثمانى زوجات وطابور طويل من المحظيات !

وما دام رمسيس الثانى بكل صفات القوة والضعف فى تاريخه قد وصل سالما إلى مدينة ممفيس ، فلماذا لا نبدأ بالتعرف السريع على هذا المكان الذى يبدو أنه يعد العدة لاستقباله بصورة تليق بأعظم القواد والفاتحين ؟ . .

المدينة المحتفية تمس شغاف قلبى منذ وصولها ، فهى قابعة على بعض المرتفعات الصخرية ، ومن علوها تشرف على حوض نهر المسيسبى عند التقائه برافد نهر دولف ، وهى شابة مغرقة فى الخضرة ، لا يتجاوز عمرها القرن ونصف القرن إلا بسنوات قليلة ، وهى عقدة مواصلات برية هامة ، وبها كلية للطب وعدد من المؤسسات العلمية الكبيرة ومتحف للتاريخ الطبيعى وآخر للفنون الجميلة ، وقد أخذت اسمها من « منف » أقدم عواصم الدنيا وثانية عواصم المملكة المصرية القديمة ، وهى ليست المدينة الوحيدة التى تحمل اسما مصريا فى أمريكا فهناك الاسكندرية ومصر الجديدة وكايرو وطيبة وغيرها ، وهى مثل مصر محصولها الرئيسى القطن ، وهى منبع الموسيقى الأمريكية السوداء الجاز (البلوز) ، كما أنها تتباهى بأنها مسقط رأس (الفيس بريسلى) ملك الروك آندرول الذى تملأ صوره معظم

المطاعم والملاهى ، وهى بالطبع من أكبر مدن ولاية تنيسى أو الولاية السادسة عشرة التى تضم مصانع آلات الطاقة الذرية ، والتى شهدت أكبر معارك فى الحرب الأهلية الأمريكية بعد ولاية فرجينيا ، كما شهدت مولد جماعة « الكلوكس كلان » فى عام ١٨٦٥ ، وهى جماعة إرهابية كانت توجه نشاطها للقضاء على السود وحرق منازلهم فى الولايات المتحدة ، وكانوا يرتدون زياً أبيض وقناعا أبيض يخفى ملامحهم إلا العيون !

احتفالات مهيبة

أصل إلى مدينة ممفيس فى يوم شمسه ساطعة . . وفى طريقى للاحتفال ألمح أعلام مصر ترفرف فى كل مكان . . بينما كان هناك ملصق بديع فى كل الشوارع لرمسيس العظيم مكتوب عليه (مصر : ١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق . م) وهى فترة تاريخ حكم رمسيس الثانى لمصر . . و(تنيسى : ١٥ أبريل ـ ٣١ أغسطس ١٩٨٧) وهى الفترة المحددة للمعرض فى مدينة ممفيس بولاية تنيسى .

اخترق الصفوف وسط الآلاف الذين تجمعوا فى الميدان المواجه لمبنى حاكم المدينة المزدان بالأعلام المصرية والأمريكية بينما تعزف موسيقى البحرية الأمريكية النشيد القومى لمصر ، ويبدأ موكب حرس الشرف لحاملى الأعلام المصرية والأمريكية متجها من ميدان ممفيس الرئيسى إلى معرض رمسيس الثانى ، حيث كان يمر بين فرسان يمتطون الجياد العربية ويرتدون الأزياء الفرعونية والعربية .

وألمح البهجة على كل الوجوه ، فهم على موعد مع ٧٢ قطعة أثرية من عصر رمسيس الثانى تزن ٢٢ طنا ، معروضة بطريقة موضوعية لأنها تقدم حياة الملك وعائلة الفرعون ومقتنياته الثمينة وجواهره وطقوس تقديسه ، وكبار رجال الدولة فى عصره وأدوات البناء ، والحياة اليومية ومجموعة التوابيت الجنائزية ، إضافة إلى تمثاله الضخم الذى يبلغ ارتفاعه ٨,٥ متر ووزنه ٤٧ طنا .

ويبدو أن ما حققه هذا الفرعون فى أمريكا ، لم يستطع أن يحققه جهابذة

الإعلام والسياحة العربية طوال السنوات الماضية ، لأنه حتى يوم الافتتاح كان المباع من تذاكر المعرض ٢٨١ ألف تذكرة ثمن كل منها ستة دولارات ، وظلت فقرات الإرسال التليفزيونى مخصصة للبث المباشر من كل مكان حيث استطاعت أن تعكس صورة الاحتفالات المهيبة ، فى أيام مشهودة - بحق - لمصر ولشعب مصر على ضفاف النيل .

وتجند الصحافة الأمريكية بمناسبة المعرض بعض صفحاتها للاحتفال بالضيف القادم فتصف القادمين من مصر وأهالى ممفيس على ضفة نهر المسيسبى بأنهم يلتقون فيما يشبه لقاء أفراد العائلة الواحدة بعد فراق طويل بين مركزى الحضارتين الحديثة والعريقة .

ووصف عمدة ممفيس « ديك هاكيت » هذا الاحتفال بأنه مناسبة تاريخية ودليل قوى على أن أهل ممفيس يهتمون بشئون المجتمع الدولى ، وأن حضورهم الاحتفال لدليل على ذلك أمام الأجيال القادمة ، كما سيكون دافعا لتلك الأجيال حتى تستمر بنفس الروح الديناميكية ، التى تساعد على مزيد من التفاهم والتعاون بين الشعوب فى العالم كله .

وبينما كان المسئولون المصريون والأمريكيون يتبادلون الكلمات فى افتتاح المعرض ، لوحوا بأعلام صغيرة قدمتها لهم فتيات الزهرات لدى وصولهم إلى مقر الاحتفال .

ورأت الصحف الأمريكية الصادرة فى ذلك اليوم أن افتتاح المعرض كان يوما للأعمال الهامة ، فقد رفع العلم المصرى والعلم الأمريكى وراية رمسيس ، كما رفعت أعلام ٥٠ ولاية أمريكية حول النافورة الرئيسية ، حملها جنود البحرية الأمريكية من قاعدة متلنجتون البحرية الجوية فى ممفيس ، وقد شاركت فى الافتتاح فرقة موسيقى الجيش الأمريكى القادمة من واشنطن ، وكذلك فريق الموسيقى فى جامعة ممفيس ، وكل ذلك من أجل الاحتفال بمنف القديمة التى كانت من أولى العواصم فى أرض مصر .

وأجمعت كل الصحف على أن المصريين كانوا هم بحق نجوم الاحتفال بالملك رمسيس ، فالسفير المصرى عبدالرءوف الريدى قال فى كلمته :

« إنها لمناسبة ثقافية هامة تتيح لملايين الأمريكيين الفرصة للقيام برحلة ساحرة عبر الرمال الذهبية لمصر الفرعونية » ، ووصف المعرض بأنه مثل حى للرموز الثقافية والفنية التى يزخر بها التاريخ المصرى .

وعقد الدكتور جمال مختار أثناء الاحتفال مقارنة بين ممفيس القديمة وممفيس الحديثة قال فيها إنه يشعر كما لو كان رمسيس الثانى بين أفراد شعبه ، ولذا فإن الفرعون العظيم سيجد صعوبة فى فراق أهل ممفيس بعد انتهاء المعرض !

ثم أعلن بعد ذلك السفير المصرى عبدالرءوف الريدى افتتاح المعرض رسميا ، قبل ثلاث ساعات من الموعد المقرر ، وذلك فى التاسعة صباحا من يوم الأربعاء الموافق ١٥ أبريل ١٩٨٧ .

لماذا نجح هذا المعرض ؟

وباختصار ، فقد كان الاحتفال الذى رأيته أمامى من أعظم المهرجانات الشعبية التى شاهدتها طوال رحلاتى السابقة فى مدن عديدة ، فالمنظمون هنا اهتموا بمختلف التفاصيل الدقيقة ، من أجل خلق جو عام يوحى للجمهور بأنه انتقل الى جزء من أرض مصر ، كما أن الأمريكيين جاءوا من كل مكان للمشاركة فى الاحتفالات سواء من سان فرانسيسكو ولوس أنجلوس فى الغرب ، أو تكساس وأريزونا فى الجنوب ، أو كلورادو وحتى ألاسكا فى الشمال . . وكان الحاضرون من كل القطاعات أناسا عاديين ، وأعضاء الكونجرس ، وقيادات من الحزبين الجمهورى والديمقراطى ، وهو أمر ركز عليه عمدة المدينة فى كلمته عندما قال : « إنه لم يحدث فى تاريخ المدينة أن توحدت جميع جهود سكانها والمناطق التى حولها كما توحدت فى ذلك الاحتفال بشكل تجاوز جميع الفروق السياسية والثقافية والمهنية ، مما جعل رمسيس الثانى رمزا ، ليس فقط لوحدة مصر ، ولكنه أيضا رمز لوحدة أهل ممفيس عاصمة ولاية تنيسى .

ويبدو أن السفير المصرى عبدالرءوف الريدى قد قام بدور رئيسى ومحورى من أجل إنجاح هذا المعرض ، فقد قال لى بعض المصريين

المقيمين فى المدينة إنه كان يتابع بنفسه كل خطوات إقامة هذا المعرض طوال عامين كاملين ، وإنه حضر بنفسه الى المدينة ست مرات أثناء فترة الإعداد ، واستطاع خلال رحلاته الى المدينة أن يمد الجسور بين مصر وأعماق الولايات المتحدة ، حيث كانت النشاطات المصرية السياسية تقتصر من قبل على الساحل الشرقى وحده .

وقد أقيم المعرض فى أكبر قاعة للمؤتمرات وهى قاعة ممفيس ، ونظم بطريقة بديعة للغاية ، تبدأ بصعود الجمهور على السلالم المتحركة ليفاجأ بروعة وعظمة تمثال رمسيس الثانى بارتفاعه الشاهق ، والذى وضع بطريقة تمكنك من استشراف أبعاده المختلفة من كل الزوايا داخل المعرض ، كما عرضت كل قطعة أثرية بمفردها داخل صندوق من البنور .

وقبل الدخول إلى المعرض كان عليك أن ترى فيلما تسجيليا عن رمسيس الثانى ، ثم تحمل فى يدك مسجلا ليطوف معك داخل المعرض شارحا كل تفاصيل المعروضات وتاريخها بصوت الممثل العالمى شارلتون هيستون .

وقد رأيت مدى حرص بقية أفراد البعثة الدبلوماسية المصرية على إنجاح هذا المعرض ، وخاصة رئيس المكتب الاعلامى الوزير المفوض محمد وهبى ، الذى كان دائب النشاط والعمل أثناء اتصالاته بأجهزة الإعلام الأمريكية لتغطية الاحتفالات .

كما كانت حرم السفير المصرى فريدة الوكيل صورة مشرفة للمرأة المصرية ولزوجة الدبلوماسى المتفهمة لدورها بكل دقة ، والتى تعتمد على ثقافة واسعة فى تاريخ مصر ، تولدت عندها من خلال قراءاتها المتعددة ، وجعلتها بعد حصولها على بكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية تتجه إلى العمارة الإسلامية وتحصل من خلالها على الماجستير .

اللقاء مع شارلتون هيستون

وفى اليوم الثانى للاحتفالات كان لقائى مع النجم الأمريكى العالمى شارلتون هيستون صاحب الاهتمامات الكبيرة بالآثار والتراث الإنسانى القديم .

قال شارلتون هيستون : إن عظمة مصر أمر يعلو على الوصف ، وإن مصر بتاريخها وحضارتها تحتل مكانا فريدا فى تاريخ البشرية ، ويكفى أن أى شخص إذا ذهب إلى هناك وجلس على أرضها فإنه يدرك قيمة هذه الأرض ومكانتها فى التاريخ ، فمن يدرى ، ربما كانت تحت أقدامه آثار أخرى أكبر وأعظم من تمثال رمسيس .

وقال إن علاقته توثقت بتمثال رمسيس منذ أن رآه مجموعة من الأجزاء المتناثرة التى كانت تتعلق ببعضها ابنته الصغيرة ، ولكن عندما تم تجميع وترميم التمثال ورأى ضخامته وعظمة فنه ، تأثر بشخصية رمسيس الثانى ، وأحس بأهمية العمل الذى قام به أهل ممفيس أمريكا عندما أعادوا ترميم هذا التمثال العظيم الذى يمثل جزءا من تاريخ مصر .

وقال إن أعظم مافى المعرض أنه قدم لنا بعض المقتنيات البسيطة من تراث مصر العظيم ، ولذا فهو واثق بأن هذا المعرض سيفتح شهية الأمريكيين لرؤية الأبعاد العميقة للحضارة على أرض مصر .

وقال ـ أيضا ـ إنه إذا كان الجمهور هنا قد استطاع أن يرى عظمة مصر من خلال بعض آثارها ، فإن هناك شيئا عظيما آخر لا يمكن رؤيته هنا ، لأن مصر لا تستطيع أن تصدره إلى أمريكا ، إنه نهر النيل ، فمع إعجابه بنهر المسيسبى وهو من أعظم أنهار الدنيا ، إلا أن للنيل سحره الفريد الذى لا يضارعه أى سحر فى هذا العالم .

وتحدث عن رحلاته العديدة إلى مصر ، ودراساته عنها قبل تمثيله لثلاثة أفلام صورت مشاهدها الخارجية على أرض مصر .

الخروج وفرعون موسى

وقد بدأت المناقشات العلمية المصاحبة لمعرض رمسيس فى رحلته إلى ممفيس يوم ٢٠ أبريل ١٩٨٧ ، واشترك فيها ٢٠ عالما مصريا وأجنبيا ، وعدد من مديرى المتاحف العالمية ، واختيرت الحضارة المصرية لتكون موضوع المناقشة ، مع اختيار موضوع عصر رمسيس كموضوع للمناقشة الخاصة وهو يتناول أهم الاكتشافات الأثرية التى جرت فى بداية هذا القرن .

وكان من بين المشاركين فى هذه المناقشات العالم الألمانى (شتاول مان) مدير معهد الآثار الألمانى ، والعالم الانجليزى (كتشن) من جامعة ليفربول ، والعالم الأمريكى (ديفيد أوكونر) من جامعة بنسلفانيا . . . ومن مصر الدكتور جمال مختار الذى دار بحثه حول أهم الاكتشافات الحديثة الخاصة بعصر الرعامسة فى مصر ، كما شارك ـ أيضا ـ الدكتور جاب الله على جاب الله وكيل كلية الآثار بجامعة القاهرة ببحث عن حفائره فى مدينة منف ، والدكتور على رضوان رئيس قسم الآثار بنفس الكلية الذى تناول مكانة رمسيس الثانى بين ملوك عصره .

وقد أقيم فى جامعة ممفيس مؤتمر خاص ، جاء توقيته مصاحبا لمعرض رمسيس ، يتناول فرعون الخروج ، أى الفرعون الذى خرج اليهود فى عهده من مصر ، وقد دعى إلى هذا المؤتمر ١٥ عالما من علماء المصريات والآثار القديمة ، وموضوع هذا المؤتمر يدور حول نقطة غير مؤكدة أثريا تعتمد على لوحة يستشهد بها بعض العلماء على قصة الخروج ، وهى منقولة من المعبد الجنائزى لأمنحتب الثالث ، وهى تقول إن المصريين كانوا يعيشون فى هذه الفترة فى جوار هادىء مع مملكة خيتا (الحيثيين) وأن بنى إسرائيل لم يكن لهم أى أثر فى مصر فى هذه الفترة ، فقد غادروها قبل عصر مرنبتاح ابن رمسيس الثانى الذى حكم مصر ما يقرب من ٦٧ عاما بينما حكم ابنه ثمانى سنوات فقط . . ويقول هؤلاء العلماء إن الملكين أسهما فى تحقيق هذا الخروج ، غير أن الرد المقابل لهذا الرأى يقول :

* أن مومياء رمسيس الثانى وابنه مرنبتاح اللتين فحصتا وصورتا بالأشعة السينية أكدتا أن وفاتهما كانت وفاة طبيعية وليست نتيجة للغرق فى البحر ، مما يدحض فكرة أن رمسيس الثانى أو ابنه هو فرعون موسى .

* كما أن هناك اعتقادا لدى بعض العلماء يقول إن الملكة حتشبسوت هى فرعون موسى ، واعتمد هذا الاعتقاد على ترجمة خطأ لنص عثر عليه فى « اسطبل عنتر » فى مصر الوسطى .

* أما الاعتقاد الثالث الذى يتردد فهو ما أشار إليه العالم فرويد المتخصص فى الآثار المصرية القديمة من أن اخناتون هو فرعون الخروج ، وأنه كان

معروفا باسم أمنحتب الرابع ، وأنه شاهد المعجزة الإلهية فى شق البحر فعاد أدراجه إلى طيبة وغير اسمه الى اخناتون وبدأ فى التوحيد وعبادة الإله الواحد . . غير أن هذا الاعتقاد يتنافى مع ماجاء فى الكتب السماوية ، حيث يقرر القرآن الكريم والعهد القديم غرق فرعون موسى فى هذه الفترة وعدم نجاته .

ويرى الدكتور إبراهيم النواوى رئيس قطاع المتاحف والتطوير فى هيئة الآثار المصرية أن أى عالم أثرى لا يستطيع أن يجزم برأى قاطع حول شخصية فرعون موسى ، والسبب أن الفراعنة لم يسجلوا فى تاريخهم الأنبياء الذين زاروا مصر مثل أبى الأنبياء إبراهيم والنبى موسى والنبى يوسف ، والسبب يعود إلى أن الملوك المصريين عبروا عن برامجهم وانجازاتهم من خلال مناظر ورسوم مدونة ، مثل منظر حاملات القرابين ومنظر انتصار فرعون على أعدائه ، ومنظر مثول الفرعون أمام الآلهة المختلفة ، ومثل هذه المناظر مكررة على المعابد المصرية من الأسرة الرابعة وحتى نهاية العصر الفرعونى ، وقد كان بعض الفراعنة يضيفون إضافات تاريخية لهذه المناظر تمثل أحداثا وقعت بالفعل فى عهدهم . . وإذا نظرنا لمسألة زيارة الأنبياء إلى مصر فإننا نجد أنها ضد الاعتقاد الدينى للفرعون ، ولذلك فهو يرى أنها لا تستحق التسجيل على المعابد مثلما كان يسجل أمجاده وانتصاراته التى يرضى عنها الآلهة التى يعتقد فيها ، وهناك نقطة هامة أخرى تؤكد أن الآثار الموجودة على أرض مصر مازالت فى معظمها غير معروفة لأنه لم يكتشف منها سوى ٣٠٪ فقط ، ومازالت مناطق شمال الدلتا وبعض أجزاء الصعيد مليئة بالمقابر والمعابد والمدن المختفية واللوحات التى قد يكون فيها ما يفسر هذا اللغز !

رحلة رمسيس إلى أمريكا

ولكن كيف وصل تمثال رمسيس لأمريكا ؟ .

لقد تم ترميم وعلاج التمثال بحيث يمكن تركيبه وفكه أثناء عمليات النقل ، وقطع التمثال ٩٧٣٠ كيلومترا من مصر إلى ممفيس ، على ظهر الباخرة التى تحركت من ميناء الاسكندرية فى طريقها إلى نيويورك ، متوقفة

فى مرسيليا بفرنسا ، بحيث نقل التمثال بعد وصوله إلى الساحل الأمريكى بواسطة سيارات النقل حتى ممفيس .

كانت الباخرة التى حملت رمسيس من الاسكندرية حتى مرسيليا باخرة إيطالية ضخمة ، ومن مرسيليا إلى أمريكا باخرة أمريكية .

وقد طاف رمسيس بعد جولته فى ممفيس فى عدد آخر من المدن الأمريكية مثل مدينة دينفر بولاية كلورادو ومتحف العلوم فى مدينة بوسطن الذى يحوى نموذجا كاملا لكيفية بناء هرم منقرع ، ثم متحف مدينة شارلوت بولاية كارولينا الشمالية ، وقد طلبت مدينة دالاس عاصمة ولاية تكساس استضافة رمسيس ومتعلقاته .

وهكذا تنتهى رحلتى . . ويظل فى رحلة رمسيس المزيد من الوقت الذى يقضيه فى ضيافة ممفيس وشقيقاتها من مدن الولايات المتحدة الأمريكية المجاورة .

ويبقى السؤال الذى طرحته فى البداية : هل تسافر آثارنا إلى الخارج . . أم نحسن عرضها فى الداخل والدعاية لها لاجتذاب مزيد من الزوار الذين يحضرون إلى مصر ؟

أعتقد أننا لو نظرنا ـ فقط ـ إلى العائد المادى فهو ليس مجزيا ، أما إذا نظرنا إلى العائد الثقافى فأعتقد أنه يفيد إلى حد كبير فى تقديم صورة الحضارة المصرية القديمة ، بشرط ألا نضع فى جعبة تلك المعارض مالدينا من كنوز الآثار الهامة التى يحسن أن تبقى لنحميها من الضياع !



مـــــــــراكش

الأذن تعشق قبل العين أحيانا !



عشقت مدينة مراكش قبل أن أراها !

وقد عبرت إلى مراكش الحمراء عروس الجنوب المغربى وهمزة الوصل بين الشمال والجنوب وبين الريف والصحراء ، من ضاحية « جيليز » التى تعتبر من أعرق مناطق المدينة وأرقاها ، وفى شوارع هذه الضاحية لفت نظرى ذلك الخليط من الأزياء الذى يجمع بين الزى المغربى والزى الأفرنجى الحديث والمودات التقليدية بآخر صيحات بيوت الأزياء فى روما وباريس !

وشد انتباهى فى شارع مراكش تلك الأعداد الهائلة من الفتيات اللاتى يركبن الدراجات البخارية . . وأيضا مئذنة جامع « الكتبية » الذى بناه الموحدون وازدهر كجامعة ، فقد لاحت لى من بعيد بارتفاعها الذى يصل إلى ٢٥٠ قدما ، فهى من أجمل مآذن الدنيا بطوابقها السبعة التى تتوجها ثلاث قباب كانت فى الماضى من الذهب المرصع بالجواهر والفيروز !

بداية الازدهار

ولأن مدينة مراكش هى ثانى عواصم المغرب فى الأقدمية بعد فاس ، فلايمكن فصلها مطلقا عن الأحداث التاريخية التى حولتها فى عصر المرابطين إلى عاصمة لدولة قوية سرعان ما تحولت إلى امبراطورية شاسعة حدودها أسبانيا الأندلسية والشمال الأفريقى والصحراء الكبرى .

فها هو الفاتح العربى العظيم يوسف بن تاشفين يجلس مزهوا بعد أن قام بكسر شوكة ملوك أسبانيا الذين حاولوا طرد المسلمين من الأندلس ، فقد لقبه أهل وطنه بأمير المؤمنين ، وسماه أعداؤه قائد الملثمين عندما فتح غرناطة وقرطبة !

إن هذا البطل هو المؤسس الحقيقى لمدينة مراكش فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، رغم أن المؤرخ الفرنسى « جاستون ديفيرون » نسب ذلك إلى ابن عمه أبوبكر بن عمر الذى اشتهر بحروبه العديدة وإخضاعه للقبائل وسيطرته على مناطقهم . . فصحيح أن هذا المقاتل الذى يرجع أصله إلى قبيلة « صنهاجة » التى تمتد جذورها فى الجزيرة العربية قبل هجرتهم لشمال افريقيا ، استطاع أن يسيطر على سكان المنطقة التى

بنيت عليها المدينة على حافة الصحراء المغربية ، لكن بانيها الأول هو يوسف ابن تاشفين الذى اشترى أرضها من أهل « أغمات » المدينة البربرية التى بنيت منذ زمن سحيق .

كان سكان مدينة أغمات لا يتعاملون إلا مع الخيام المصنوعة من الوبر ، ولم يكن على أرضهم من المبانى إلا معسكر لقوات المسلمين وقصبة لتخزين الأسلحة والأموال ، ولهذا اختار يوسف بن تاشفين بنفسه مكان بناء المدينة الجديدة وخطط له ليشرع فى بناء الدور والقصور فى فترة وجيزة لم تتجاوز ثمانية شهور ، وهى مدة قياسية فى البناء وقتئذ ، ولكن حاجته إلى مقر لائق بالحكومة ومركز متسع لحشد الجيوش هو الذى عجل بالأمر .

وقد زودت المدينة بالمياه عبر خطارات (أى قنوات جوفية) كانت تجلب المياه العذبة من مدينة « أغمات » ، ومبتكر هذا النظام هو المهندس الأندلسى عبدالله بن يونس الذى ما إن وصل إلى مراكش حتى فوجىء بأن أهلها يستخدمون الآبار البسيطة فى توفير المياه ، فقام بدراسة طبقات الأرض وابتكر طريقة جديدة تعتمد على المجارى الجوفية ، وبدأ بحفر بئر كبيرة فى أحد أطراف المدينة التى يعلو فيها مستوى سطح الأرض عن بقية المناطق بداخلها ، ومن قاع البئر حفر قنوات تسير تحت الأرض فى انحدار لتصل بالمياه الى مختلف أحيائها ، وعندما انتهى مشروعه أغدق السلطان المرابطى عليه ـ كما يذكر المؤرخ الأدريسى ـ بعطاياه ، إضافة إلى إسراع أهل المدينة إلى بناء قنوات أخرى تستمد مياهها من تلك القناة الأم ، ليتسع عمران مراكش ، وتشملها الخضرة والحدائق وتصبح قاعدة للدولتين المرابطية والموحدية ، وواحدة من أعظم مدن المغرب الإسلامى كله .

ومازالت باقية حتى اليوم تلك القنوات الجوفية البالغ عددها ٣٥٠ قناة يصل طول كل منها إلى خمسة كيلومترات ، وإن كان قد لحق الإهمال ببعضها وأصبح لا يعمل !

والغريب أن أغلب المؤرخين يتساءلون : لماذا بنى يوسف بن تاشفين لنفسه قصرا فى المدينة اقتطع أحجاره من جبل « جيليز » سماه قصر الحجر ثم هجره ؟

والحقيقة أن هذا القائد كان لا يحب الحياة فى القصور ، مفضلا الحياة دائما فى الصحراء داخل خيمته المتواضعة ، رغم أن القصر كان مبنيا من الطين والحجر ، وكان تحفة رائعة من الفن المعمارى !

والغريب ـ أيضا ـ أنه حتى اليوم لا يستطيع أحد أن يحدد مكان هذا القصر ، فقد تهدم تماما بعد سيطرة الدولة الموحدية التى عملت على إخفاء كل أثر لدولة المرابطين ومؤسسها فى قاعدتهم الجنوبية ، بما فى ذلك المسجد العظيم الذى أقامه الفاتح العربى !

وقد صك هذا البطل العربى النقود فى عصره من الذهب والفضة ، وكان وزن الدينار حوالى أربعة جرامات ذهبا ، ومكتوب فى وسطه « لا إله إلا الله ـ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين » ، بينما حرص فى وسطه على كتابة « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

ومات وعمره يفوق المائة ، وحكم حوالى خمسين سنة ، وكان اسمه يتردد من فوق أكثر من ألف منبر فى البلاد التى حكمها وامتدت من فرنسا إلى مضيق جبل طارق ومن طنجة فى المغرب إلى جبل الذهب فى السودان !

القبر الغريب

وعندما تزور مدينة مراكش اليوم سترى قبر ذلك الفاتح العربى فى قلبها ، وستندهش لأنه مجرد بناء بسيط متواضع محاط بسور من الطين ، وستسأل فى استغراب : هل هذا هو قبر بطل معركة الزلاقة ؟ ! . . وسيأتيك الجواب غريبا هو الآخر ، فالمغاربة بذلوا محاولات كثيرة لإضافة بعض الأبنية فوق القبر ، فكان يلفظها ، وكان آخر تلك المحاولات هو الفشل فى بناء قبة فوقه !

ولا تجد تعليقا على ذلك سوى أن تردد أمامه : لعلك يا يوسف بن تاشفين قد تعودت على الحياة البسيطة تحت الخيام ، متعاملا مع الهواء النظيف النقى الذى لا تلوثه الحياة العصرية ، ولهذا فقد رفضت أن يظلل جسدك فى رقدتك الأخيرة أى نوع من السقوف الثابتة ، أو الأبنية الشبيهة بالعلب التى تغلق كل النوافذ من حولك ولا تعطى لرئتيك فرصة استنشاق الهواء بحرية !

وهكذا اتضح لى أنه فى ظل رفض القبر لأى إضافة إليه ، فإن التعديل الوحيد الذى أضيف لم يكن أكثر مما فعله له المغفور له الملك محمد الخامس عندما قام بتجديد المكان .

وبعد أن زرت القبر المتواضع ليوسف بن تاشفين ، كان لابد من أن أرى مدينة « أغمات » التى اشترى من أهلها الأرض التى بنى عليها مدينة مراكش ، فهى مازالت قائمة على بعد ٣٣ كيلومترا من المدينة الحمراء ، وقد رأيتها عبارة عن قرية صغيرة من أبرز معالمها قبر آخر ملوك بنى عباد « المعتمد بن عباد » الذى توفى عام ٥٢٠ هجرية ، تاركا خلفه الكثير من المؤلفات العلمية التى خلدت اسمه وتاريخه .

والمقبرة لا تضم رفات العالم الشاعر المعتمد بن عباد وحده ، ولكنها تضم أيضا رفات زوجته « اعتماد » التى اشتهرت بعلمها واخلاقها ، ومن فرط حب المعتمد لها وتعلقه بصفاتها ، أوصى بأن يدفن إلى جوارها وأن يكتب على قبره :

قبر الغريب سقاكَ الرائحُ الغادى حقا ظفرت بأشلاء بن عباد
نعم هو الحقُّ وافانى به قدرٌ من السماءِ فوافانى لميعادى

والمعتمد بن عباد ، لم يكن ملكا فقط ، ولكنه كان شاعرا وطبيبا وخطيبا وقائدا ، وقد ولد فى « باجة » غرب الأندلس عام ٤٣٢ هجرية ، وورث الفروسية وقرض الشعر عن أبيه الملك المعتضد بالله بن القاضى أبوالقاسم محمد بن عباد . . واستطاع والده أن يضم بعض أقطار الأندلس إلى العاصمة « أشبيليه » وورث لابنه ذلك الملك القوى الأركان ، ولم يقنع الإبن بذلك فبدأ يحتل المدن القريبة منه ، وكان الشاعر بن زيدون دائما يحضه على فتح قرطبة بعد أن خرج منها هاربا ، وفعلا جهز المعتمد جيشا للفتح .

وقد تولى الملك بعد وفاة والده عام ٤٦١ هجرية وعمره تسعة وعشرون عاما ، وفى عصره حاول الملوك الأسبان استرداد الأندلس ، واستولى الفونسو السادس على طليطلة عام ٤٧٨ هجرية ، فأرسل المعتمد إلى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين يطلب منه العون ، وهنا انبرى ابن الرشيد يحذره من

ذلك ، فرد عليه قائلا : أن أكون راعيا لجمال ابن تاشفين خير من أن أكون راعيا للخنازير !

وخاضت جيوش المعتمد مع جيوش ابن تاشفين معركة عظيمة أبقت الإسلام فى الأندلس ثلاثة قرون وهى معركة الزلاقة . .

إلا أن يوسف بن تاشفين اكتشف انصراف أمراء الطوائف إلى اللهو والمجون ، فأسرع للعودة إلى بلاده وجهز جيشا للقضاء عليهم وعلى منازعاتهم ، حتى لا تتعرض بلاد الأندلس لخطر سيطرة جيوش الفونسو السادس مرة أخرى !

وتحرك جيشه فعلا وفتح قرطبة وحاصر أشبيليه ، وطلبوا من المعتمد الاستسلام فخرج من قصره وسيفه فى يده وهو ينشد :

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وألذ من طعم الخضوع على فمى السم النقيع

ورغم إصراره على عدم الاستسلام ، فقد فتحت المدينة ، وأخذ أسيرا ، وقتل ابنه الراضى ، ونقل إلى « أغمات » فى المغرب ليقاسى مرارة الذل والفقر ، إلى أن توفى فى السجن عام ٤٨٨ هجرية ، وصلوا على الغريب فى جنازته ، والتف حول قبره الشعراء الذين كان من أبرزهم الشاعر أبوبحر بن عبدالصمد الذى طاف حول القبر وقبل ترابه وأنشد وهو يبكى قصيدة طويلة ، كان من أبياتها :

يا أيها القمرُ المنيرُ أهكذا يمحى ضياءُ النير الوقاد
ما كان ظنى قبلَ قبرِك أن أرى قبرا يضم شوامخَ الأطواد

مسجد الكتبية

وأعود مرة أخرى إلى قلب مدينة مراكش ، لأعيش لحظات فى جامع الكتبية ، ذلك المسجد الذى بناه الخليفة عبدالمؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين بالمغرب بمجرد سيطرته على المدينة عقب سقوط دولة المرابطين فى عام ٥٥٣ هجرية !

وحكاية بناء المسجد يعود أصلها إلى نصيحة استمع اليها الخليفة قبل سيطرته على المدينة ، فقد قال له مستشاروه إنه لكى يخلد التاريخ دخوله للمدينة لابد من أن يشرع فى بناء هذا المسجد بمجرد إحراز النصر ، وعمل بالنصيحة فورا فهدم مسجد السلطان على بن يوسف ليبنى مكانه مسجده الذى صنع منبره ومقصورته فى الأندلس ، كما هدم قصر الحجر وشيد مكانه مسجدا آخر ، ورفع بين المسجدين منارا عظيما ، ومازالت آثار مسجد الكتبية قائمة حتى اليوم وخاصة زخارف محرابه .

إلا أننا قبل أن نترك هذا المسجد لابد من أن نتعرف على توضيح بسيط ، فالمرابطون دولة إسلامية قامت فى المغرب والأندلس فى بداية القرن الحادى عشر ، واستمدوا اسمهم من نظام الرباط ، وقام مذهبهم الدينى على يد « أبوبكر عمر اللمتونى » الذى اتبع الصرامة الشديدة فى الأخذ بتعاليم السلف ، ولمع من ملوكهم يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش الذى اتسعت فى عهده الدولة الإسلامية من السنغال إلى نهر الأيبر ومن الأطلنطى إلى الجزائر ، وكذلك ابنه على بن يوسف الذى تألقت فى عهده نهضة عمرانية كبيرة ارتكزت على جماليات الفن الإسلامى ، ولم ينته حكمهم إلا بعد حوالى ٩٤ عاما فى القرن الثانى عشر الميلادى .

أما الموحدون فقد بدأت دعوتهم على يد زعيم من البربر هو « محمد بن تومرت » الذى اشتهر بنزعته الصوفية وروحه الثورية التى اعتمد عليها فى نشر دعوته بين رجال القبائل فى المغرب ، الذين كون منهم جيشا كبيرا قاده تلميذه المخلص « عبدالمؤمن بن على » وتغلب به على المرابطين ، ليمتد نفوذه فى فترة وجيزة من برقة إلى الأندلس ، وليتولى من بعده عدة خلفاء ، ظلوا يحكمون فى شمال افريقيا والأندلس حوالى ١٣٩ سنة حتى انتهت دولتهم فى القرن الثالث عشر الميلادى .

ساحة « الفنا » وحكايات أخرى

المهم ، من جامع الكتبية انطلقت الى ساحة « جامع الفنا » العظيمة الاتساع ، التى شهدت فى الأزمنة الساحقة المشانق تنصب لإعدام الخارجين على القانون ، ومع اسم الساحة بحثت عن الجامع فلم أجده !

وفى هذه الساحة تشعر بتلاصق الناس من كثرة الزحام ، فهى تزخر بالحركة من الصباح الباكر حتى ساعة متأخرة من الليل ، وتعج بصخب ما بعده صخب ، وترى فيها بعض الناس تفترش الأرض بسلع زهيدة الثمن تمثل فى أغلبها الصناعات اليدوية ، وإلى جوارهم أعداد هائلة جاءت من كل صوب لترى فى سوقها الرقص الشعبى والقصاصين والمداحين ورواة السير الشعبية والحواة والمنجمين والمشعوذين ومروضى الثعابين ، وهذا بخلاف السقائين الذين تراهم فى أزيائهم الزاهية الألوان وهم يقرعون الطاسات النحاسية لدعوة الناس إلى شرب مياههم العذبة الباردة لقاء مبلغ زهيد .

وعلى مقربة من ميدان جامع الفنا ستعثر على أرباب الحرف اليدوية فى الدروب والمنعطفات الضيقة ، فهم ينتجون أروع وأجمل الصناعات الجلدية والخشبية والمعدنية والحريرية .

وما يرويه هؤلاء الصناع من حقائق وحكايات مثير وجذاب للغاية . . فهم يفخرون مثلا بأن مدينتهم غنية بالمعادن وخاصة الفوسفات والتوتياء ، وتراهم يتفاخرون بأن ونستون تشرشل الذى كان رئيسا لوزراء بريطانيا ورئيسا لحزب المحافظين فى الأربعينات ظل مفتونا بها . . كما أنها كانت المدينة المفضلة للرئيس اليوغسلافى الراحل تيتو ، وكانت من عشاقها جاكلين كينيدى قبل وبعد أفول نجمها فى البيت الأبيض وفرح ديبا امبراطورة ايران السابقة .

وفى مدينة مراكش سمعت من بعض المثقفين قصصا لنساء مازالت المدينة تحفظ أسماءهن . . من بين تلك الأسماء زينب النغزاوية الهوارية التى جمعت بين الجمال ورجاحة العقل ، وكانت زوجة لقائد المرابطين يوسف ابن تاشفين ، الذى بنى من أجلها مراكش رغم أنه لم يكن زوجها الأول ، فقد كان فى حياتها ثلاثة رجال قبله ، مات منهم اثنان وطلقها الثالث ، واستطاعت زينب أن تجمع ثروة بالغة أشرفت على ادارتها بنفسها ، وكانت مشهورة بالعلم والأدب وأيضا بالكرم .

وغيرها سمعت عن سيدة أخرى هى حواء بنت ابراهيم السوقى التى كانت تقرأ وتحاضر فى الأدب ، وكانت أختها زينب تحفظ أعدادا وافرة من الأبيات الشعرية .

وهناك قمر زوجة على بن يوسف بن تاشفين التى لعبت دورا سياسيا هاما فى الدولة ، وكان لا يستطيع ادارة الشئون العامة فى الدولة بدونها !

وأغرب ما قالوه لى إن عدد سكان المدينة فى القرن الثالث عشر الهجرى بلغ ٨٠٠ ألف نسمة ، ولكن الثورات والأوبئة التى التهمت أربعة ملايين من سكان المغرب جعلت التعداد يصل فى أوائل هذا القرن إلى ١٠٠ ألف نسمة ارتفعت اليوم إلى ٣٥٠ ألف نسمة !

عالم المدينة الجميل

وفى قلب المدينة التى عاش فيها الفيلسوف ابن رشد فى بلاد أبى يعقوب يوسف الموحدى ، ودفن بها فى حديقة الأمراء الشاعر والوزير والطبيب أبوبكر بن زهر ، رأيت جامع المنصور الذى كان يدخله المصلون من سبعة أبواب ، وكان به أيضا باب خاص لدخول حاكم البلاد ، وفى عهد السعديين دبروا مؤامرة لقتل السلطان أثناء تأديته للصلاة ، فحفروا سرا حفرة تحت المسجد ووضعوا بها كمية من البارود ، ووضعوا فى البارود فتيلا تسرى فيه النار على مهل ، وأدى الانفجار إلى هدم القبة الواسعة وانشقاق المنار بصورة تراها حتى اليوم ، ولم يصب السلطان ولم يهدم الجامع تماما ، وقد تم تجديده مرتين ليظل أمامنا يذكرنا بتلك الحادثة !

ومن آثار المدينة اتضح لى أنها رأت تحت حكم السعديين أبهى عصورها ، فهم الذين أعادوها عاصمة للبلاد بعد أن كانت العاصمة قد انتقلت إلى مدينة فاس .

وعلى أيامهم امتدت الامبراطورية حتى شملت النيجر والسودان ، ومن الكنوز الذى حملوها معهم من الخارج أعادوا الحياة إلى المدينة ، فبنوا قصر البديع كآية من آيات الفن الرفيع الذى اختلط فيه الذهب مع المرمر مع خشب الأرز مع القيشانى والرخام المنقوش ، لكنه هدم بعد ٧٥ عاما من انشائه ، ولم يتبق منه غير أطلال تقام فيها حفلات الفنون الشعبية فى المغرب فى شهر يونيه من كل عام ، حيث يتحول القصر إلى قطعة مضيئة بالأضواء وملابس الراقصين البراقة وأثواب الراقصات الذين يؤدون أشهر الرقصات .

ومازالت مقابر السعديين موجودة فى المدينة ، وهى تحفة من المعمار الإسلامى ، فسقوفها من خشب الأرز المطعم بالذهب ، وسواثكها صغيرة أندلسية تقوم على عمد نحيلة من الرخام الذى جىء به من إيطاليا !

ورأيت فى المدينة ـ أيضا ـ السور القديم الذى أنفقوا عليه منذ حوالى ألف عام ٧٠ ألف دينار من الذهب ، وقصة هذا السور تعود إلى اللحظة التى احتدم فيها الصراع بين دولتى المرابطين والمصامدة ، فوقتها أشار القاضى « أبوالوليد بن رشد » على أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، بأن يسرع ببناء هذا السور لحماية المدينة من الهجمات المتوقعة ، وبناه بطول تسعة كيلومترات ، ليضاف إليه فى العصر الموحدى والعصر السعدى ٨٠٠ متر ، وكانت أبواب هذا السور عند تأسيسه ٢٥ بابا مازال بعضها باقيا إلى الآن مثل المخزن ، وأغمات ، والدباغ ، والعريصة ، ونفيسة ، والصالحة ، وباب اكتاو المكتوب عليه ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾ ، ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين ﴾ . . كما أضيفت للسور أبواب حديثة مثل سيدى غريب ، ومولاى اليزيد ، وقشيش .

ولن تمل عيناك ـ بخلاف ذلك ـ رؤية بقية المشاهد فى المدينة التى لا تقع على نهر كبير ، ورغم ذلك فهى واحة خضراء وسط صحراء جرداء .

إنك لن تنسى واحة النخيل التى تحف بالمدينة ، والتى تربو على ١٠٠ ألف نخلة منتشرة فى مساحة ١٣ ألف هكتار .

ولن تنسى جبال أطلس الثلجية التى تطل عليها من الجنوب وتصل مرتفعاتها فى بعض سلاسلها إلى ١٣ ألف قدم .

ولن تخرج من ذاكرتك طوال العمر قصور الباهية والمنارة والسلام والحمراء بأقواسها الأندلسية ومقرنصاتها وزخارفها الجميلة وبركها وحدائقها الغناء .

إنها ـ باختصار ـ مدينة قد تعشقها مثلى بالأذن أولا ، ولكنك سرعان ماتعشقها أكثر عندما تستمتع بجمال الرؤية !

لعبة القط والفأر الدولية في جزيـــــرة أفروديت !



هى الجزيرة التى ولدت على شواطئها سيدة الحب والجمال « أفروديت » من زبد أمواج مرفأ « بافوس » فى الجنوب الغربى الذى يتوافد عليه اليوم آلاف السياح من معظم جنسيات العالم ، ليروا مهبط أحلى نساء الأساطير الإغريقية !

وهى ـ كذلك ـ الجزيرة التى احتلها فى القرن الثامن عشر ملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد ، من أجل إنقاذ خطيبته « فرينجاريا » وأخته « يوانا » ملكة صقلية ، وما إن دخلها غازيا حتى اختار ميناء « ليماسول » المصيف الرائع ليقيم فيه أروع الاحتفالات بزفافه من الأميرة الحالمة ، ثم باع الجزيرة إلى فرسان المعبد بمائه ألف قطعة من العملة البيزنطية !

ومع افتتانى بسحر ونظافة وجمال جزيرة قبرص فى كل المناطق التى زرتها بداية من لارنكا ونيقوسيا إلى ليماسول وفابوس ، فقد راعنى ذلك الاستغلال الأمثل لكل شبر من الأرض ، فأهلها البسطاء هم الذين يصنعون بأيديهم وعرقهم تلك المعجزات ـ التى رأيتها طوال إقامتى ـ فى السياحة والتجارة والصناعة والزراعة بأقل المقومات الاقتصادية وبدون أى ثروات بترولية أو معدنية !

ولكم كنت أود أن أجعلك تتجول معى فى مناطق الجزيرة الساحرة وآثارها المتعددة التى تشير إلى الروافد الحضارية التى اختلطت بها ، ومن بينها الإغريقية والفينيقية والآشورية والفرعونية والفارسية والرومانية والعربية والبيزنطية والعثمانية ، لولا أن اهتمامى الأول بزيارتها جاء من منطلق أنها أقرب الدول إلينا جغرافيا ، فهى لاتبعد عن بيروت واللاذقية إلا ببضع عشرات من الكيلو مترات ، والمسافة بينها وبين بورسعيد أقل من المسافة بين القاهرة وأسيوط (٣٦٥ كيلو مترا) كما أنها قريبة جدا من بعض العواصم العربية كدمشق وعمان ، والقاهرة التى تقطع منها الطائرة رحلتها إليها فى خمس وأربعين دقيقة فقط !

وبالطبع فإن مثل هذا الموقع الاستراتيجى القريب من وطننا العربى ، جعلنى أهجر هذا الجمال المفرط فى الحسن ، وأبحث فيما تحت الثياب الموشاة بألوان الزهور وحقول الحنطة الجبلية ومزارع الكروم وعبق أزهار البرتقال واليوسفى ، لأرى الدخان والشظايا وطلقات البنادق وأهوال حرب

مازال كل وقودها جاهزا ، ومعدا فى أى لحظة للاستخدام !

حقيقة اللعبة

من يأكل من ؟ . . من يقوم بدور القط . . ومن يقوم بدور الفأر فى لعبة السياسة الدولية ؟
هذا هو أساس المعادلة الصعبة الحالية فى الجزيرة التى يبدو أن لعنة جمال « أفروديت » مازالت تقود « أدونيس » الجميل - أو الشعب القبرصى كله - إلى النهاية الدرامية ، التى جعلت رجلا مثل بيريز دى كويلار السكرتير العام للأمم المتحدة يلخص المأساة بقوله : لقد سقطت الحكمة الإغريقية بعد سقوط السيف الإغريقى !

فعندما زرت قبرص هذه المرة لم أجد أى تقدم يذكر فى أحوالها ، فمازال الوضع على حاله السابق .

خط وهمى فى العاصمة نيقوسيا يفصل أبناء الجزيرة الواحدة منذ عام ١٩٧٤ ، ومراكز تفتيش ومراجعة بعد عدة أمتار منها نقاط مماثلة فى الجانب التركى يديرها رجال الجيش بدلا من قوات الأمن والموظفين المدنيين فى الماضى ، وجنود ثلاث دول من جيوش حلف الأطلنطى مدعمون على أرضها بأحدث الأسلحة والعتاد الحربى ، وأعداد هائلة من اللاجئين والعاطلين الذين لايملكون غير السخط على شتى الوجوه السياسية التى قادتهم فى طريق لايؤدى فى النهاية إلا إلى حائط مسدود !

ويزيد الطين بلة ، الموسم السياحى « المضروب » من وجهة نظر أصحاب الشركات السياحية ، والارتفاع الجنونى فى الأسعار الذى يصاحبه تضخم هائل وجه الغرابة فيه أن الجنيه القبرصى لايزال « يقاوح » ويصر على الارتفاع المطرد فى وجه شتى العملات ، بحيث أصبح يستبدل بأكثر من دولارين بعد أن كان لايتجاوز سعره دولارا ونصفا فى عام ١٩٨٥ !

ومن يتعمق فى المشكلة نفسها - بروح محايدة - سيكتشف العجب . .

القبارصة سواء كانوا يونانيين أو أتراكا أصبحوا لايملكون ـ وحدهم ـ حق التصرف فى قضيتهم ،، فهم من جانب أسرى هذا الخلاف الحاد بين اليونان وتركيا فى النزاع على بحر إيجه ، وهم من جانب آخر مطالبون بالتضحية باستقرارهم من أجل سواد عيون القواعد العسكرية وأجهزة التنصت الدولية ، وهذا بخلاف المحاولات المستميتة الخارجية فى العام الأخير لتوسيع دائرة الخلافات بتدويل القضية !

لقد أصبح العناد إلى حد الاستشهاد هو طابع المفاوضات بين الطرفين !

القبارصة اليونانيون لايقبلون مناقشة بنود الإتحاد الفيدرالى قبل مناقشة ثلاثة أمور : إنسحاب القوات التركية ، مراجعة الضمانات السابقة التى أعطت لتركيا حق الإنفراد بالتدخل فى الجزيرة ، حرية التنقل والتملك مع عودة اللاجئين !

والبنود الثلاثة ـ بالطبع ـ يعتبرها القبارصة الأتراك فخا يراد به العودة إلى نقطة البداية عندما كانوا عراة فى غابة كل أسودها جياع !

والقبارصة الأتراك يعلنون بـ « الفم المليان » أن قبرص ليست أمة ، وأنها ولدت بناء على قوميتين : يونانية وتركية ، ورغم أنهم أقلية فهم شركاء قانونا ، وأن الجمهورية التركية التى قامت فى ١٥ نوفمبر ١٩٨٣ هى التى أبعدت شتى أنواع العنف عن القبارصة الأتراك ، كما أن وجود ٢٥ ألف جندى تركى بمعداتهم على أرضهم منذ عام ١٩٧٤ هو دليل على استمرار تركيا فى تعهداتها لحماية القبارصة الأتراك ، والأمور عندهم تتطور بشكل خطير فى الفترة الأخيرة بعد استجلاب ٦٥ ألف تركى للإقامة مع القبارصة الأتراك ، وظهور نغمة جديدة تنادى بتركيا الأم متشبهة بما يحدث علي الجانب الآخر حيث يعتبرون أيضا اليونان وطنهم الأم ، ووجدت هذه النغمة تشجيعا بالغا من تركيا ، بدلالة أن تورجوت أوزال رئيس تركيا قال عند زيارته للقطاع الشمالى من الجزيرة القبرصية فى عام ١٩٨٧ ، إنه يشعر بأنه لم ينتقل إلى خارج البلاد ، وإنه يزور أحد الأقاليم التركية !

الخطـأ الفـادح

والواقع أن القبارصة اليونانيين مازالوا يدفعون ثمن أفدح خطأ فى تاريخهم المعاصر .

كان وراء هذا الخطأ ضابط قبرصى أحمق اسمه « نيقولاس سمبسون » دبر لانقلاب ضد مكاريوس بتأييد من جنرالات أثينا فى فترة الحكم العسكرى باليونان ، وكان نتيجة هذا الإنقلاب دخول قوات الغزو التركية لحماية الأقلية ، وظهور الخط الأخضر الذى يفضل القبارصة تسميته بالخط الأسود ، ليقسم الجزيرة إلى دولتين ، ولتصبح أرضها مرتعا لثلاث دول هى بريطانيا بقواعدها العسكرية وتركيا واليونان .

وقد بدأ التمهيد لهذا الخطأ مع نشوب ذلك الصراع المرير بين أهم رجلين فى قبرص وهما الرئيس مكاريوس ، والكولونيل جورج جريفاس . .

كان مكاريوس يمثل ذلك الطراز من الرجال الذين يطلون بعقولهم على شتى الأفكار والتيارات السياسية ، وقد علمته تجربته السياسية ضرورة الابتعاد عن التصلب ومعالجة شتى الأفكار والآراء بمرونة ، كما كان متفائلا إلى أقصى حدود التفاؤل ، ولايؤمن مثلا بكل مايقال عن الرقم « ١٣ » كعلامة للنحس وسوء الحظ ، لأنه ولد لراعٍ فقير فى ١٣ أغسطس عام ١٩١٣ ، وبعد حصول الجزيرة على الاستقلال حمله هذا الرقم إلى كرسى الرئاسة فى ١٣ ديسمبر ١٩٥٩ ! .

أما الكولونيل جريفاس فهو من معدن آخر ، ورغم أنه ولد من صلب تاجر غنى ، فقد كان رجلا عسكريا صارما ، لم يعرف طوال حياته معنى المهادنة ، وكان يطرب دائما كلما وصف نفسه بأنه الذئب الوحيد فى عالم السياسة ، وحبه الأول والأخير كان لليونان لأنها أعطته الجنسية اليونانية أثناء دراسته .فى أكاديميتها العسكرية ، كما أنه شارك مع أبنائها فى مقاومة الاحتلال النازى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وعندما أصر الانجليز على الاستمرار فى احتلال قبرص بعد الحرب هجر زوجته عازفة البيانو ورحل من اليونان إلى قبرص ليقود

المقاومة ضد الانجليز فى منظمة « أيوكا » التى أقلقت الانجليز إلى حد أنهم رصدوا عشرة آلاف جنيه ثمنا لرأسه ، وبعد الاستقلال تبنى المقاومة بهدف آخر هو فرض الوحدة مع اليونان (الأينوسيس) بالقوة ، ووقتها بدأ الصدام بين الرجلين بتاريخهما الطويل والحافل بالنسبة للشعب القبرصى ، ورغم أن الرئيس مكاريوس كان فى عنفوان قوته ـ وقتها ـ بعد انتخابه للمرة الثالثة ، فإنه كان يدرك تماما من خلال تجربته السياسية العريضة وبروزه كأحد قادة دول عدم الانحياز أن الوحدة مع اليونان لن تتم رغم أنه تبناها أثناء سنوات المقاومة وفى السنوات الأولى من حكمه ، ولهذا رأى فى تحركات جريفاس وأفكاره خطا مضادا لأفكاره الجديدة واعتبرها كارثة مدمرة تهدد وحدة الوطن وأمنه ، وكان أن اعتبرَ جريفاس تنازل مكاريوس عن هدف الانضمام لليونان بمثابة خيانة للقبارصة اليونانيين ، وكان لهذا الموقف أثره البالغ على علاقة اليونان بمكاريوس خاصـــة أنه يريد قبرص جزيرة مستقلة تقرر مصيرها حسب رغبة القبارصة يونانيين وأتراكا .

ومع تصاعد الصراع ووصوله إلى مداه تخلى جريفاس عن سلطاته وهاجر إلى اليونان ليعود إلى قبرص مرة أخرى فى عام ١٩٦٣ كقائد للقبارصة اليونانيين فى حربهم الأهلية ضد القبارصة الأتراك ، غير أن الحكومة اليونانية تجد نفسها مضطرة لاستدعائه فى نوفمبر ١٩٦٧ عندما تطورت الأمور وكادت تهدد بحرب ومواجهة شاملة بين تركيا واليونان ، ويصل إلى اليونان وهو فى أشد حالاته العصبية ، ولا يستقر بها طويلا فسرعان ماعاد إلى قبرص سرا فى بداية السبعينات ليبدأ حرب المنشورات والتخطيط لأعمال الإرهاب التى تمثلت فى حوادث تفجير القنابل والخطف ومهاجمة مراكز الشرطة ومحاولة اغتيال مكاريوس وغيرها من أمور إثارة القلاقل ضد الحكومة الشرعية ، وكادت مخططاته تحقق أهدافها فى التخلص من مكاريوس لولا وفاته المفاجئة إثر أزمة قلبية فى مخبئه بمدينة ليماسول عام ١٩٧٤ .

ولم تنته الفواجع بموت جريفاس ، فقد كانت كل محاولاته ومخططاته هى النبت الذى نشأ من خلاله الانقلاب العسكرى فى ١٥ يوليو عام ١٩٧٤ ، وقاد قبرص إلى حالة الانقسام وتوتر الأعصاب ودخول القوات التركية شمال الجزيرة !

ورغم فشل الإنقلاب وعودة مكاريوس مرة أخرى للحكم ، فإن التقسيم كان قد أصبح مكرسا وراسخا ، وانتهى به الحال إلى سقوطه بأزمة قلبية فى ٤ أغسطس عام ١٩٧٧ هى من صنع الأزمة القبرصية نفسها ، فقد مات الرجل وهو يبتلع مرارة الواقع وعدم القدرة على تغييره بسبب هذا الكم الهائل من المخططات الأجنبية التى وجهت سهامها ضده لمجرد أنه أخلص وتفانى لهدفه فى أن يرى قبرص جزيرة مستقلة موحدة !

وبالطبع أدى غياب مكاريوس الذى يمثل رمز وحدة الجزيرة واستقلالها ، إلى تكريس صورة الانقسام التى تأكدت من خلال استمرار وجود القوات التركية فى شمال الجزيرة ، وهو الأمر الذى عجل فى النهاية بإعلان جمهورية قبرصية تركية برئاسة رءوف دنكتاش .

هذا التطور المذهل

ويبدو أن الأحداث السياسية التى سبقت إعلان الجمهورية الجديدة التى لم تحظ باعتراف المجتمع الدولى ـ باستثناء تركيا ـ كانت سببا فى هذا التطور المذهل الذى لم تضعه فى الحسبان مختلف الحسابات السياسية ، فعقب موت مكاريوس وتولى وزير الخارجية سبيروس كبريانو لم يجد أمامه فرصة إلا فى اتباع سياسة الرئيس الراحل فى مهادنة القبارصة الأتراك والاتفاق معهم ، وأدى ذلك إلى اتفاق ١٩٧٩ الذى يقضى بقيام اتحاد فيدرالى بين الجانبين وخروج القوات الغازية على مراحل ، ولكن هذا الاتفاق سقط تماما قبل تنفيذه لأن الرئيس كبريانو لجأ إلى الأمم المتحدة لعرض القضية من جديد ، وكان من آثار هذا الانتقال المفاجىء أن اعتبر القبارصة الأتراك هذه الخطوة نقطة تراجع كاملة عن الاتفاق الذى وفر الحد الأدنى من الضمانات للجانبين ، ولهذا كان ردهم قاسيا ، فقد استبدلوا بسياسة الحوار سياسة الأمر الواقع ، فأعلنوا قيام الجمهورية التركية لشمال قبرص برئاسة زعيمهم المحامى رءوف دنكتاش الذى أصبح يعلن أمام مواطنيه رفضه التام لأى تنازلات جديدة ، بل ويدعوهم إلى الاستعداد لمواجهة أى صراع مسلح قد يحدث فى المستقبل !

وكان لابد من إضفاء الشرعية على الدولة الجديدة التى تحتل ثلث الجزيرة

الثالثة فى البحر المتوسط ـ بعد صقلية وسردينيا ـ حيث تبلغ مساحتها ٩٢٥١ كيلو مترا مربعا ، ولهذا تم إعلان قيام شتى المؤسسات الدستورية بسرعة البرق !

وبحدوث تلك التطورات المتلاحقة وجد القبارصة اليونانيون أنفسهم أمام كيان جديد للقبارصة الأتراك تسانده أكثر من مائتى دبابة تركية وعدة وحدات جوية ، وأصبح هذا الكيان يحتل ٣٧٠٠ كيلو متر مربع ، تمثل ٣٤٪ من أجود الأراضى الزراعية فى الجزيرة ، ويضم مساحة من العاصمة نيقوسيا ، وأهم المدن « فماجوستا » المطلة على البحر المتوسط إلى الشرق والذى أدى سقوطها فى أيدى الأتراك إلى انتقال السياحة القبرصية إلى مدينة ليماسول ، وهذا بخلاف عدة مدن أخرى من بينها مورفو وليفكوثا التى أقاموا بها مطارا ، وكيرينيا وهى مسقط رأس الرئيس مكاريوس وتمثل الميناء البحرى الوحيد للقوات التركية بعد تطويره !

وكان طبيعيا أن تعانى الدولة الجديدة من نقص فى السكان ، فأعداد القبارصة الأتراك لاتزيد على ١٦٥ ألف نسمة بينما أعداد القبارصة اليونانيين تصل إلى حوالى ٦٠٠ ألف نسمة ، ولهذا رحبوا باستجلاب بعض المواطنين الأتراك لتغطية العجز السكانى ولتنمية وتعمير الأراضى بعد نزوح حوالى ٧٠ ألف قبرصى يونانى خوفا من تطورات الأحداث بصورة درامية !

ومن وجهة نظر القبارصة اليونانيين فإن الهجرة بالجملة من الشمال كانت بسبب استيعابهم لدروس التاريخ فى الجزيرة على يد العثمانيين عبر ثلاثة قرون ، منذ أن انتزعها فى القرن السادس عشر (١٥٧٠ م) السلطان العثمانى سليم الثانى الفاتح من يد البنادقة بعد حصار رهيب ، إلى أن أجرها مفروشة للانجليز السلطان العثمانى عبد الحميد (١٨٧٨ م) مقابل جزية سنوية دفعوها بعض الوقت ، ثم امتنعوا عن دفعها بمجرد تحالف تركيا مع ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى ، لتصبح بعد ذلك مستعمرة بريطانية بعد إرغام تركيا على معاهدة صلح اعترفت فيها بحق الانجليز فى امتلاك الجزيرة !

وبنظرة موضوعية إلى الماضى القريب يمكننا أن نتذكر كيف ظل الانجليز ملاكا حقيقيين للجزيرة ٨٢ عاما ، بل واستطاعوا بسيطرتهم الكاملة على

الجزيرة ـ مع قناة السويس ـ أن يحكموا حوض البحر المتوسط ، وأن يشنوا العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦ من قواعدهم العسكرية الثلاث فى « ذيكبيا » بجوار مدينة لارنكا و« اكوتيرى واسبيكوبى » بجوار ليماسول ، بل وعندما احتفظت بريطانيا بعد استقلال الجزيرة بهذه القواعد السيادية التى تحتل ٩٩ ميلا مربعا فى الجزء الجنوبى ، اعتبرت تلك القواعد حاملة طائرات فى البحر قريبة من مصادر انتاج النفط ، كما أنها احدى محطات قوات التحرك السريع إلى الشرق الأوسط ، ومن هنا تم استخدامها ـ فعلا ـ كنقطة وثوب فى عدوان ١٩٦٧ لنقل العتاد العسكرى إلى إسرائيل !

وعلى كل ، فإن المعاهدات التى خرجت منها بريطانيا بنصيب الأسد فى ١٩ فبراير ١٩٥٩ ، لم تستطع أن تقضى على الخلافات التى تعمقت بين الجانبين التركى واليونانى أثناء الاحتلال ، بل وجدنا الفتيل يشتعل بعد الاستقلال نتيجة عدة نصوص فى المعاهدات أهمها : اختيار رئيس الدولة من بين القبارصة اليونانيين على أن يكون نائبه من القبارصة الأتراك بحيث يملك حق الفيتو (الاعتراض) على أى قرار (!!!) وكذلك اختيار ٧٠٪ من أعضاء البرلمان من اليونانيين و٣٠٪ من بين الأتراك مع عدم مرور أى قانون إلا بموافقة الأعضاء اليونانيين والأتراك (!!) وقد أعطت المعاهدات حق تدخل كل من اليونان وتركيا فى حالة ضم الجزيرة لأى طرف منهما !

وهكذا جاء ميلاد جمهورية قبرص فى ١٦ أغسطس ١٩٦٠ كدولة مستقلة فى حقل مزروع بالديناميت رغم ضمان كل من بريطانيا وتركيا واليونان ، وأدى ذلك مع مرور الأيام إلى ازدياد الصراع الدامى على أرضها فى ظل هذا الاستقلال المنقوص ، وتدعيم القوات الجوية الأجنبية وماتملكه من شبكات رادار تغطى كل منطقة شرقى البحر المتوسط ، كما اعتبرت القوات التركية نفسها فى النهاية مطالبة بالقيام بمهمة قانونية لحماية الأقلية التى زادت مخاوفها عندما رفع بعض المتطرفين شعار الوحدة مع اليونان الذى فجر الصراع الدموى بين الطرفين .

وكانت كل تلك الأحداث وغيرها هى البداية لإصابة الكثير من القبارصة بالإحباط ، فقد كانت المؤامرات الخارجية من حولهم أقوى من سلطانهم المحدود !

محاولات يائسة

وأمام الإحساس بالإحباط فوق الجزيرة التى أحبت فواكهها كليوباترا ، وعانى أهلها من ويلات القتال والحزن والحداد منذ آلاف السنين ، ولم ينعموا بالراحة إلا عندما كانت جزيرتهم تابعة لمصر القديمة التى كان حكامها يكتفون بالسيطرة الأسمية ويتركون لأهل الجزيرة كل شئون إدارتها .. أمام هذا الإحباط ما إن كلف مجلس الأمن السكرتير العام للأمم المتحدة ببذل مساعيه الحميدة لايجاد تسوية عادلة للمشكلة القبرصية حتى وجد ذلك استجابة كاملة من الطرفين ، فبدأت الاتصالات التى تمخضت عن أول مبادرة فى ديسمبر عام ١٩٨٤ ، تم عرضها على المؤسسات الدستورية فى كلا الجانبين فتمت الموافقة عليها بالاجماع ليحصل كل رئيس على تفويض دستورى من هذه المؤسسات بحقه فى الموافقة والتوقيع ، لكن ما إن اجتمع الرئيسان مع السكرتير العام فى ٢٩ مارس ١٩٨٥ حتى أبدى دنكتاش موافقته على التوقيع بينما رفض كبريانو التوقيع فى آخر لحظة بحجة أن هناك بعض الأمور التى تحتاج إلى مناقشات جديدة ، وهنا انسحب دنكتاش ليتم دفن المبادرة الأولى !

وبالطبع لم ييأس السكرتير العام فوضع أفكارا جديدة لمبادرة أخرى فى ابريل ١٩٨٥ وعرضها على الرئيس كبريانو فوافق عليها فورا ، واجتمع مع الرئيس دنكتاش فرفض مجرد تسلمها بحجة أنه لم يستشر مسبقا فى بنودها ، وهنا تذرع بيريز دى كويلار بالصبر وأعطاه مهلة للرد عليها فى أغسطس ١٩٨٥ ، وجاء الرد رافضا لأكثر بنودها ، وبذلك سقطت أيضا المبادرة الثانية !

وفى ٢٩ مارس ١٩٨٦ كانت المبادرة الثالثة والأخيرة بعد أن ذكر لكليهما أن عدم الموافقة عليها قد يؤدى إلى نتائج وخيمة لن يستطيع أحد تداركها ، وكانت مبادرته تدعو الطرفين المتنازعين فى الجزيرة إلى تشكيل لجنة مشتركة تعمل على وضع جدول زمنى لانسحاب القوات التركية وغير القبرصية من الجزيرة مع مسودة مشروع تتضمن تصورا لإقامة دولة فيدرالية مستقلة ذات قطاعين مستقلين إداريا مع هوية موحدة ونشيد وطنى واحد ، وعلم واحد على أن يكون لكل قطاع علمه الخاص شرط أن يتضمن بعض عناصر من العلم الفيدرالى ،

وعلى أن يشكل برلمان فيدرالى يتكون من مجلسين : مجلس نواب يضم ١٠٠ نائب بينهم ٧٠ من القبارصة اليونانيين و٣٠ من القبارصة الأتراك ، ومجلس شيوخ يضم ١٠٠ عضو نصفهم من اليونانيين والنصف الآخر من الأتراك . . على أن يكون نظام الحكم رئاسيا يكون فيه رئيس الدولة قبرصيا يونانيا ونائبه قبرصيا تركيا ويتمتع كلاهما بحق الفيتو لنقض أى قرار توافق عليه الحكومة الفيدرالية التى تتألف من ١٠ وزراء ٧ يونانيين وثلاثة أتراك يسند لأحدهم وزارة الخارجية بعد موافقة الجانبين ، مع احتفاظ القبارصة الأتراك بـ ٢٩٪ من مساحة الجزيرة عوضا عن المساحة الحالية التى تبلغ ٣٤٪،وبالنسبة لمدينة فماجوستا فإنها تعاد إلى القبارصة اليونانيين على أن تشرف عليها ادارة مشتركة تحت رعاية الأمم المتحدة بعد إعادة سكانها الأصليين واعادة فتح مطار نيقوسيا الدولى وتأمين حرية الطرفين فى استخدامه .

كانت تلك هى المبادرة الثالثة والأخيرة للسكرتير العام التى وافق عليها الجانب التركى ولم يفصح الجانب اليونانى عن رأيه فيها بالرفض أو القبول وأنما أبدى تحفظه عليها بعدة نقاط رأى أنها لابد أن تسبق المناقشة ، واقترح مناقشة تلك الأمور فى مؤتمر دولى إذا تعذر عقد مؤتمر قمة بين زعيمى الطائفتين ، وكان هذا الرد بمثابة مفاجأة غير متوقعة للسكرتير العام الذى أصر فى اتصاله بالرئيس السابق كبريانو على أن يرد عليه بوضوح ، ورد عليه ـ فعلا ـ بخطاب مفصل طالب فيه بدراسة تلك التحفظات باعتبارها أولويات واجبة قبل إتمام اى اتفاق ، وأدى هذا الرد ـ بالطبع ـ الى اعلان السكرتير العام عن عجزه تماما فى التوفيق بين الطرفين ، والى جمود القضية !

إلا أنه رغم فشل المبادرات الثلاث فقد صدر قرار مجلس الأمن بتجديد فترة قوات الطوارىء الدولية لمدة أخرى ، وحث السكرتير العام على مداومة مساعيه لإيجاد أرضية مشتركة بين الطرفين .

وعلى الفور بدأ السكرتير العام من جديد فى بذل مساعيه ، وأرسل مندوبين من الأمم المتحدة لكل من الطرفين باقتراح ـ وليس مبادرة ـ أهم ما جاء فيه أن يتم إجراء مباحثات بين الطرفين على المستوى الأقل من القمة ، وذلك بمقابلة المندوبين والتباحث معهما للخروج من هذا الجمود ، ووافق كبريانو على ذلك ، ورفض دنكتاش بحجة أنه لافائدة من إجراء مثل هذه المباحثات مادام القبارصة اليونانيون لايوافقون على مبادرة ٢٩ مارس ١٩٨٥ !

الموقف الحالى

وعلى ضوء ذلك دخلت القضية القبرصية الى مرحلة من الركود بعد الفشل الذريع فى إيجاد حل مقبول للطرفين ، وساعد على زيادة هذا الوضع المتردى اتهام كبريانو للمعارضة بأنها تريد بيع الجزيرة بأبخس الأثمان بقبولها لأى حل ، بينما رأت المعارضة أن تعنت كبريانو ورفضه لكثير من الحلول المطروحة سيؤجل القضية ، وبالتالى سيؤدى ذلك إلى فرض واقع جديد على الجزيرة بمرور الوقت !

ونتيجة لمعركة تبادل الاتهامات ، أجلوا كل شىء فى الجانب القبرصى اليونانى لحين انتهاء انتخابات الرئاسة التى بدأت معركتها فى أوائل عام ١٩٨٨ ، وأسفرت نتائجها عن مفاجأتين : المفاجأة الأولى كانت فى إبعاد كبريانو فى الجولة الانتخابية الأولى نتيجة لإخفاقه فى كسر الجمود فى قضية إعادة توحيد البلاد بعد ١١ عاما تقريبا فى السلطة . والمفاجأة الثانية جاءت بإعلان فوز المرشح المليونير المستقل رجل الأعمال جورج فاسيليو المدعوم من الحزب الشيوعى «آكل» بغالبية ضئيلة (١٠ آلاف صوت) فى الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية ، على منافسة المحامى جلافكوس كليريوس زعيم التجمع الديمقراطى اليمينى ، وليتولى رئاسة جمهورية قبرص رسميا فى ٢٨ فبراير ١٩٨٨ وسط دهشة كل المراقبين والمحللين الذين كانوا يعرفون تماما أنه لم يمارس أى نشاط سياسى فى حياته وأن خبرته كلها محصورة فى الاقتصاد ، وأن كل علاقته بالسياسة تعود الى أن والده الطبيب كان أحد المؤسسين للحزب الشيوعى فى قبرص !

وقد أعلن الرئيس الجديد بمجرد انتخابه ضرورة توحيد كل القوى لإنقاذ البلاد ، وحدد مهمته الأولى بالعمل على توحيد الجزيرة ، وسلوك نهج جديد فى السياسة ، وتشكيل مجلس قومى لمعالجة هذه المشكلة برؤية ذكية وحكيمة .

وعقب تصريحات الرئيس القبرصى الجديد ، حذر رئيس القبارصة الأتراك دنكتاش الرئيس القبرصى المنتخب من اتباع السياسات السابقة التى أدت إلى الفشل ، وتمنى أن تكون هناك نظرة أكثر وعيا تجاه الحقائق ، وكرر

دعوته لإقامة جمهورية اتحادية مكونة من منطقتين حتى يعلن الاتحاد بين أطراف متساوية !

وهكذا يدخل رئيس قبرص الجديد جورج فاسيليو فى مرحلة من التحدى الصعب لتوحيد الجزيرة ، وإن كانت المشكلة الطاغية التى واجهته منذ الأيام الأولى لممارسة سلطاته ، هى سوء الوضع الاقتصادى نتيجة ندرة الموارد الطبيعية وعدم كفاية الموارد المالية الاستثمارية فى أراضى الجانبين ، فالقبارصة الأتراك مازالوا لايستطيعون العيش بدون دفع تركيا لأكثر من نصف ميزانيتهم سنويا ، والجانب اليونانى يرى أنه لولا المساهمة الإيجابية لصناعة السياحة فى ميزان المدفوعات لتفاقمت الأزمة الاقتصادية بصورة أكبر !

وبعد أن كانت قبرص تهتم دائما بخططها الخمسية للإنماء أصبحت معظم الجهود تتجه لمواجهة الظروف الجديدة التى طفت على السطح وفى مقدمتها البطالة بين العمال وانخفاض مستوى الحياة والقوة الشرائية والأجور والمرتبات والمدخرات الاقتصادية .

سحابة صيف

وإذا كانت آثار العرب مازالت فى الجزيرة تحكى العلاقة التاريخية بين قبرص والعالم العربى ، التى يتضح منها كيف قام العرب بأول حملة بحرية فى عام ٢٥٨ هـ خلال صراعهم ضد الروم ، وكيف بدءوا أول اتصالهم بالبحر عندما وافق الخليفة عمر بن الخطاب على فتح قبرص التى كان يستخدمها الروم ضد الثغور الإسلامية على ألا يكره مسلم على القتال فى البحر لأنهم أهل بادية لم يألفوه . .

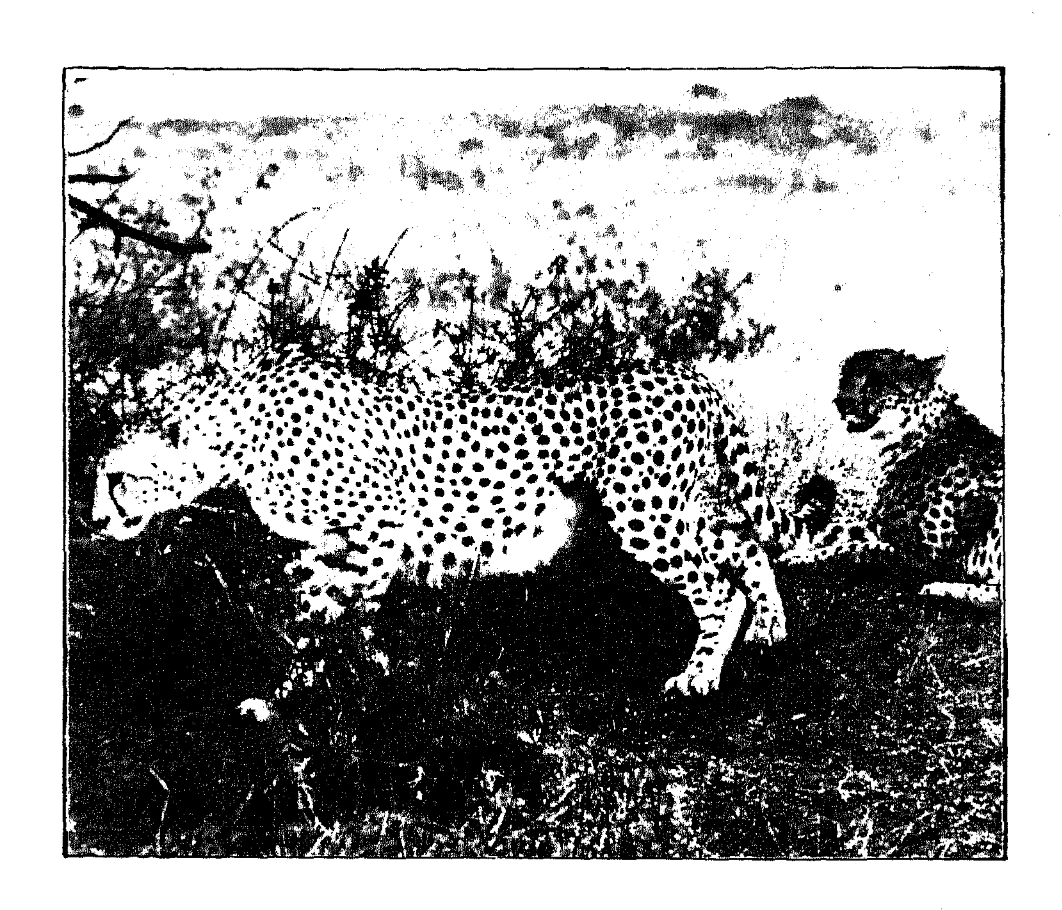
وإذا كانت تلك العلاقة مازالت ماثلة للأذهان أمام كل زائر للجزيرة ، فقد تعرضت لمحنة كبيرة نتيجة شائعة مغرضة وكاذبة نشرتها الصحف فى صيف ١٩٨٥ حول ثلاث زوجات لبنانيات أبلغن أزواجهن بأنهن تعرضن للمغازلة من ثلاثة قبارصة ، فطلب منهن الأزواج استدراج الشبان الى المنزل حيث قاموا بالاعتداء عليهم ليتولى بعض المحامين التحقيق فى قضية الاغتصاب ، وأدى ـ بالطبع ـ نشر هذا الخبر المثير الى خروج القبارصة الى الشوارع فى

حالة ثورة ودفاع عن الكرامة ، وفى أيديهم العصى والجنازير الحديدية التى ضربوا بها كل عربى قابلوه ، ورغم استنكار الدولة بشدة لهذه الحوادث وإرسال وفود للدول العربية وخروج الصحف القبرصية بعناوين اعتذار من بينها «ياعارنا» فلم تفلح شتى المحاولات فى اعادة السياح العرب الذين وصل عددهم فى آخر إحصاء قبل الحادثة إلى حوالى ١٨٠ ألف سائح ، فقد هربوا تماما ولم يصل منهم فى عام ١٩٨٧ غير العشرات ، الذين جاء معظمهم ليبيعوا شققهم وممتلكاتهم بأبخس الأثمان !

ويبدو أن هذا الحادث كان ضمن مخططات زيادة إشعال النيران فوق الجزيرة الساحرة حتى تظل لعنة جمال «افروديت» تقود «أدونيس» القبرصى الى النهاية الدرامية ، وحتى يظل رصيد القواعد العسكرية وأجهزة التنصت فى ارتفاع مستمر ، فاللعبة الدولية مازالت نشطة ، ومازال القبارصة ـ وحدهم ـ يدفعون ثمنها وهم فى قمة العذاب والألم !



لاتقتل الوحوش في غابات الدندر !



بصراحة ، أنا لا أستطيع أن أقاوم جاذبية مناطق تجمع الحيوانات البرية فى العالم ، ففى مثل تلك المناطق أحس دائما بأننى قد خلعت ثوب الزيف الذى يرتديه إنسان ذلك العصر ، وعدت إلى أحضان الطبيعة الأم ، حيث تتبدد غربتى ويضيع سأمى وأنطلق فى تلقائية مع لحظات من أمتع لحظات العمر !

ولهذا فعندما قطعت ٣١٥ ميلا من الخرطوم فى اتجاه الجنوب الشرقى نحو مديرية النيل الأزرق ، وجدت نفسى فى أعظم حظائر الحيوانات البرية فى أفريقيا .

إنها حظيرة الدندر ذات المساحة الهائلة التى تصل الى ٢٤٧٠ ميلا مربعا ، وتمتد حدودها شمالا حتى نهر الرهد ، وشرقا حتى الحدود الأثيوبية ، وتتميز بوفرة فى الثروة الطبيعية والغابات الكثيفة التى يتخللها نهر الدندر الذى يخترق الحظيرة فى جريانه من هضاب أثيوبيا الى سهول السودان ، حيث يلتقى بالنيل الأزرق داخل الأراضى السودانية ، وهو نهر موسمى فى فصل الخريف ، سرعان ما يتحول بعد ذلك الى برك متقطعة فى فصل الجفاف ، الا أنه جعل الحظيرة تتمتع بالعديد من الصور الطبيعية الساحرة ، فمن حوله الوديان الجميلة الخضراء ، التى اتخذت منها الحيوانات والطيور بيوتا آمنة لا تشعر فى قلبها بأى خوف أو تهديد من طلقات صيادى الوحوش ذوى القلوب المتحجرة !

وقبل أن أحزم حقائبى إلى حظيرة الدندر ، كنت قد حددت الموعد بدقة ، فأنسب الأوقات للزيارة هو فصل الجفاف فيما بين شهرى ديسمبر وابريل ، حيث تستطيع أن تصل اليها إما بالطريق البرى ، بأن تقطع ثمانى ساعات الى محطة «القويس» المزودة بمعسكر للراحة ، لتستأنف بعد ذلك بقية الرحلة فى ثلاث ساعات . . أو تسافر بالقطار الى محطة القويس التى تصلها بعد ١٢ ساعة ، ثم تكمل رحلتك بعد ذلك بالعربات التى تقطع حوالى مائة ميل . . وتستطيع أن تقطع ـ أيضا ـ الرحلة عن طريق الجو حيث يوجد مطار صغير فى معسكر قلقلو تسير عليه الخطوط الجوية السودانية بسفريات منتظمة ، وهذا المعسكر يستوعب مائة زائر ، وهو مزود بكل الوسائل التى تشبع هواية رواد هذه الحظيرة النادرة .

وحظيرة الدندر فى حد ذاتها هى واحدة من ثلاث حظائر عامة للحيوانات

البرية فى السودان ، فالحظيرتان الأخريان هما حظيرة نمولى والحظيرة الجنوبية ، وقد خصصت تلك الحظائر فى السودان لحماية وحفظ الحيوانات غير الأليفة ، وهذا بخلاف دورها فى حماية البيئة ، وكذلك دورها فى الدراسات العلمية والسياحية والترفيهية ودراسة التاريخ الطبيعى .

وكل هذه الحظائر لا دخل لأحد فى حياة حيواناتها أو نباتاتها ، فكل شىء هنا ـ فى حظيرة الدندر ـ متروك على حاله كما خلقه الله دون أى تدخل من إنسان أو آلة ، لدرجة أنك اذا ما توغلت فى قلب الحظيرة فستفاجأ بأن أشجار الطلح والسنط والهجليج والصفار والعرديب ذات السيقان الطويلة قد تشابكت مع بعضها وتكاثفت لتجعلك تقف فى بعض المناطق أمام طرق مسدودة.

وهذه الحظيرة لم تنشأ إلا بعد عامين من المؤتمر العالمى الذى انعقد فى لندن عام ١٩٣٣ ، تحت شعار : «حياة الوحوش فى خطر» ، فقد تم انشاؤها لحماية الحيوانات من عنف الإنسان الذى لم يكفه ما اخترعه من أسلحة فتاكة تقتل بنى جنسه ، فأصبح يتسابق على تشويه الطبيعة بكل ما فيها من رقة وشاعرية .

فتش عن الإنسان

فى داخل الحظيرة التقيت ببعض العلماء الذين جاءوا من مناطق متفرقة من العالم بحثا وراء هواية دراسة الحيوانات والطيور ، وعرفت من خلالهم أن الإنسان فى بداية حياته كان يخاف الطبيعة والحيوانات الموجودة بها ، الا أنه اليوم يقتل الحيوانات المتوحشة والطيور ويهدم الغابات ويملأ الأرض حفرا بحثا عن المناجم وغيرها ، فى محاولة لتأكيد ذاته التى تضخمت منذ عصور الاكتشافات !

وفى حوار مع أحد العلماء قلت له : إننى أتصور أن علاقة الإنسان بالطبيعة بدأت فى السنوات الأخيرة تدخل نطاق المسئولية بعد أن أصابه الذعر من نتائج ما ارتكبه من جرائم فى حقها .

وقال : نعم . . ولكنه لن يستطيع أن يصلح كل الأضرار التى فعلها ، فبسبب عنفه فى التعامل مع الطبيعة انقرضت مئات الحيوانات من الغابات ، وهناك مئات أخرى مهددة بالانقراض !

وسكت محدثى قليلا ثم عاد يقول : اننا مسئولون عن الحياة فوق الأرض . . علينا أن نوفر الحياة للوحوش البرية تماما كما نوفرها لمجتمع الإنسان ، فما أحوجنا اليوم الى تقدير وتأمل جمال صنع الخالق . . فغذاء خيال الإنسان يأتى من الطبيعة . . الفن يولد من انفعال الإنسان بالطبيعة . . وحتى لا نقع فى اللامبالاة وعدم الإحساس بالعالم كما خلقه الله من حولنا ، علينا أن نقيم رباطا قويا بيننا وبين مفردات الجمال والإلهام فى كل شبر على الأرض !

وقلت له : وهذا بالطبع بخلاف أن المحافظة على الطبيعة لها أسبابها وأهدافها العلمية لمعرفة كل كائن حى على الأرض ؟

وقال لى : هذا حقيقى ، فالفضول يدفع الإنسان الى معرفة كل شىء ، وعندما سألوا (مالورى) لماذا تريد الوصول الى قمة الإفرست ؟، قال لأنها موجودة . . وهذا هو الذي دفع أيضا الإنسان الى الوصول الى القمر وارتياد الفضاء . . ورغم أن التكنيك حديث للغاية فإن الدوافع قديمة قدم الإنسان ، ولذا فعالم الحيوان فوق الأرض يحتاج الى نفس الجهد الذى بذل تجاه القمر ، فمعارفنا عن الحيوان مازالت ناقصة ، ومازالت الحيوانات البرية تجذبنا الى الطبيعة فى أفريقيا ، حيث نراها دون قيود وأسلاك ، غير الحال فى حدائق الحيوان التى تحدد حركتها الطبيعية . . إننا فى الغابة المفتوحة نراها وهى تتصرف بتلقائية ودون إحساس بالقيد من حولها !

وأهدانى هذا العالم كتابا آثار صدوره ضجة فى أوربا . . والكتاب بعنوان «عالم الوحوش فى خطر» لمؤلفه (آلن جانكز) الذى يتحدث فيه عن ضرورة الحفاظ على الحيوانات والطيور من الانقراض بانشاء الحدائق العامة المفتوحة ، وتوفير الحماية لحيواناتها والبيئة التى تعيش فيها ، وإقامة مراكز أبحاث علمية بها للمراقبة الدائمة حتى لا يزيد عدد الحيوانات على قدرة المنطقة للاستيعاب ، وينبه الكتاب إلى ضرورة توفير المياه الكافية حتى لا تلجأ

الحيوانات الى خارج حدود المنطقة الآمنة التى تحميها ، فكثير من تلك المناطق تصبح جافة ، مثلما حدث أخيرا فى مناطق عديدة بأفريقيا - فى كينيا مثلا - فى بداية هذا القرن عندما هربت جماعات الحمار الوحشى فقتلتها الأسود.

والكتاب يتحدث عن غياب الحراسة والرقابة على تلك الحدائق أحيانا ، فكثيرا ما يهاجم التجار والصيادون هذه المناطق ، خاصة اذا كانت الموضة تحتم نوعا معينا من الجلود أو الريش ، فتكون النتيجة قتل الأفيال أو النعام أو التماسيح أو أى نوع آخر من الحيوانات .

ويروى الكتاب كيف كان الإنسان فى بداية حياته يخشى الطبيعة والحيوانات معا ، ووصل به الأمر فى أحوال عديدة إلى عبادة الطبيعة واعتبارها آلهته (!!) إلا أن هذا الإحساس الذى وصل الى حد التقديس الخاطىء ، سرعان ما انقلب الى عداء سافر ومحاولة للسيطرة وإثبات الوجود بكل الوسائل ، وكان من نتيجة ذلك أن انقرضت مئات الحيوانات بسبب الرماح والسهام والشباك والرصاصات القاتلة !

اللعبة القاتلة !

وهكذا نرى أن المسئول الأول عن اختفاء حيوانات كانت مزدهرة فى وقت من الأوقات هو الإنسان ، فهو - فعلا - بطل ملحمة انقراضها على كل شبر من الأرض !

صحيح أنه فى الحقبة الأولى - أى ما قبل التاريخ - انقرضت بعض الأنواع الضخمة بسبب عدم قدرتها على التكيف مع الظروف المتغيرة من حولها ، إلا أن كل الثوابت تؤكد أننا قضينا على أعداد هائلة من الحيوانات طوال المائتى سنة الماضية ، إما بسبب تركها للأمراض القاتلة ، أو بحجة البحث عن الأمن ، أو جريا وراء لحومها وفرائها ومتعة صيدها !

لقد ازداد هواة التدمير فى القرن الثامن عشر مع استخدام الأسلحة النارية ، وأصبح هذا الاختراع الجهنمى لعبة قاتلة فى يد البشر أضرت بميزان الطبيعة

بصورة صارخة ، حتى أن السنوات الخمسين الأخيرة وحدها رأت اختفاء أربعين نوعا من الثدييات ، من بينها الفيل الأمريكى الصغير الذى استخدمه القائد «هانيبال» فى غزواته الشهيرة !

وقبل اختراع الأسلحة النارية لم تكن وسائل الرجل الأسود فى الصيد تؤدى إلى الانقراض ، لأنه لم يكن يسعى - مثل الرجل الأبيض - إلى أهداف تجارية وثروات بالغة من وراء جلود النمور وسن الفيل مثلا ، ولم يُصدر فى عام واحد - كما تقول إحدى الإحصائيات - ١٥٠ ألف جلد نمر من شرق أفريقيا وحدها !

ميزان الطبيعة والتلوث

إن قتل نوع أو انقراضه فى الطبيعة ليس حدثا تقتصر أضراره على النوع وحده ، فالطبيعة عادة تُقيم العدل من تلقاء نفسها إزاء من يؤذيها ، وهكذا فالإنسان يتلقى عقابه بالضرورة من الطبيعة عندما يشيع الفوضى فى أنحائها .

ففى كل القارة الأفريقية مثلا بدأت أعداد النمور تتناقص ، وبالتالى زاد عدد الخنازير البرية والقردة التى تزيد خسائر الإنسان فى الزراعة وغيرها !

وهناك أنواع من الطيور الجارحة التى يحاول الإنسان القضاء عليها تفيد الإنسان ، فبعضها يقتل الثعابين ويأكلها ، ولهذا فإن اختفاءها يؤدى إلى كثرة الثعابين التى تبتلع الضفادع ، ولأن الضفادع تقوم بمهمة أكل الجراد ، فمعنى ذلك أنه لن يبقى فى الميدان غير أسراب الجراد التى تهلك الزرع والضرع !

وقد تكون هناك أسباب أخرى لانقراض بعض الأنواع غير تدخل الإنسان ، منها مثلا الموت أو العقم ، إلا أن أسوأ أسباب الموت الآن هو تلوث مياه البحار بالبترول وتلوث الأنهار بنفايات المصانع وغيرها واستخدام المبيدات الزراعية .

ورغم أن الباحثين اليوم يبذلون جهودا فائقة لاستخدام أساليب بيولوجية حديثة للقضاء على الأوبئة الزراعية بدلا من الوسائل الكيماوية مثل تعقيم دودة

القطن ، فإنهم مازالوا غير قادرين على الاستغناء عن المبيدات تماما !

وإذا ما أضفنا لكل ذلك تدمير الكثير من مواطن الحيوانات والطيور لإقامة المدن والمساكن ، وعمليات إزالة الغابات لاستخدام أخشابها ، وزيادة الطلب على البترول والبحث عنه بتخريب المناطق الطبيعية وزيادة انكماشها ، لأدركنا مدى الكارثة التى تتعرض لها تلك المناطق البكر سواء فى السودان أو غيرها من الدول الأفريقية .

اننا نستطيع أن نصنع صاروخا أو طائرة . . أن نشترى تليفزيونا أوآلة لغسل الأطباق ، ولكننا لن نستطيع أن نصنع حيوانا انقرض ، ولهذا فمن غير المعقول ألا نترك للأجيال التى سوف تأتى من بعدنا أى فكرة عن حياة الغابة إلا من الكتب ، فالأرض فى حاجة الى أصدقاء لحمايتها بدلا من الأعداء الذين يحطمونها ، وعلينا أن ننقذ الحياة الطبيعية وألا نتركها تختفى بالتدريج ، حتى لا يأتى اليوم الذي يسألنا فيه أحفادنا : ما شكل النمر ؟! . . هل كان هناك شىء اسمه التمساح ؟! وحتى لا نشعر بالمرارة والندم بعد فوات الآوان ، وساعتها سيستيقظ الضمير من داخلنا ليسألنا : لماذا حطمنا بأيدينا الجمال والطبيعة والمعرفة الإنسانية ؟!

حكم القوى

إن حظيرة الدندر فى السودان كغابة مفتوحة من السافانا التى تكثر بها الأشجار الشوكية والحشائش الطويلة ، استطاعت ـ فعلا ـ أن تلبى نداءات العالم بالحفاظ على الحيوانات ، بعد أن أصبحت تعج بأنواع كثيرة منها ، بداية من الأسود والفهود والزراف والنعام والتيتل وأبو عوف ، ونهاية بالأنواع المختلفة من الغزلان والثعالب والجاموس والقرود والنسانيس والتماسيح ، وهذا بخلاف الأفيال التى تأتيها من هضاب ومرتفعات أثيوبيا ، والطيوز التى من بينها النسور والصقور الجارحة .

والحظيرة مع بداية شهور الصيف ، تدب فيها حركة واسعة ، ففى الشهور الواقعة من ابريل الى يونيه يأتى فصل التزاوج . . وفى هذا الفصل يكثر

استعراض الطيور والحيوانات لجمالها وقوتها ، ويسيطر كل طير على منطقة ليحولها إلى مقاطعة خاصة ، وهذه المقاطعة لا يسمح للذكور التى من نفس نوعه بدخولها ، فالطائر يدافع عن حدودها فى شراسة وقوة ، وعندما يستقر به الأمر ويضمن عدم منافسة أى مخلوق له فى مقاطعته يبدأ فى الغناء لسببين : أولهما ، لكى ينذر أى طائر تحدثه نفسه بالاقتراب من مقاطعته . . وثانيهما ، لكى يعلن عن نفسه فتعرف الأنثى أنه وحيد أعزب يبحث عن شريكة للحياة ، والغناء يكون دائما فى أوج قوته عند الفجر وفى لحظات الغروب !

وفى كثير من الطيور تلاحظ أن الذكر يقف فى وضع خاص أمام الأنثى التى يبدو وكأنها غير مهتمة به ، ولكنها فى النهاية تخضع لإغرائه !

وفى طيور أخرى نجد الذكر يُقدم لأنثاه الطعام بمنقاره حتى يشعرها بحنانه ، أما ذكر النعام فيرقد أمام الأنثى على الأرض فاردا جناحيه كالمروحة ليُشعرها بخفته وحيويته وعاطفته الجياشة !

وفى عالم الحيوان والزواحف داخل الحظيرة تشاهد أيضا حركة بالغة فى هذا الفصل ، فالثعبان يقف أمام أنثاه مثل الفنان الذى يتأمل تمثاله فى صمت . . والقرود والنسانيس تصبح أنانية الى أبعد الحدود ، والذكر منها يستحوذ على الإناث وكأنها سلع مادية ، وفى نفس الوقت يحكم على الذكور الضعيفة بأن تقضى حياة العزوبية طوال حياتها !

والجاموس البرى ذو الذقن القصير ، شغوف باصطحاب كل أفراد عائلته الى أى مكان يذهب اليه وخاصة فى أوقات رعى العشب ، وهو لا يعرف طرق تهذيب الصغار ، ومبدؤه أن يتصرف وفق هواه دون مراعاة لشعور الحيوانات التى حوله !

والزرافة الأم تعنى بصغارها ، وعندما يتخلف واحد منها عن إطاعة الأوامر تلكزه برأسها حتى يستقيم حاله !

أما وحيد القرن فأنثاه اذا ما أرادت الرحيل ، فانها تجعل صغيرها يسير أمامها حرصا منها على سلامته ، وتوجه الأم صغيرها فى الطريق بواسطة قرنها الذى تدفعه به فى مؤخرته !

ومن الأوامر والتعليمات المتداولة عند الفيلة ، أن تسير الإناث والصغار فى المؤخرة ، وعندما يحدث أى خطر للجماعة تندفع الاناث للإحاطة بالصغار لحمايتها ويتقدم الذكور نحو العدو صانعين خطا قتاليا لا يستطيع أى حيوان مفترس مهما كانت قوته أن يجد ثغرة فيه أو نقطة ضعف !

دموع التماسيح

وعندما سألت الاخصائيين فى حظيرة الدندر : لمن تكون الكلمة بعد الحياة الزوجية فى الغابة . . هل هى للذكور أم للإناث ؟ . . عرفت أن الذكور هى التى تسيطر فى الغالب ، ففى الفزانات مثلا نجد أن الديوك هى التى تسيطر على الإناث ، وفى النسانيس والقرود يكون الذكر هو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة فى اختيار نوع الحياة التى يعيشها مع الأنثى ، أما الأسد فانه أرنب أمام رغبات زوجته !

وسألتهم عن حكاية دموع التماسيح التى يضرب بها المثل ، وعرفت أن التمساح لا يبكى على الفريسة بعد أن يأكلها ، ولكن بعض العلماء يفسرون سبب الدموع بحكاية تقول إن طائر (الفيشر) هو أقرب الأصدقاء للتمساح ، وعندما ينتهى التمساح من الأكل يفتح فمه ليأتى هذا الطائر ويجمع الفضلات من بين أسنانه ، وكلما طال الوقت الذى يفتح فيه التمساح فمه لينظف الطائر أسنانه ، كثرت الدموع المنهمرة من عينيه !

وقالوا أيضا إن الأسد هو ملك الغابة بدون منازع ، وإن ضربة واحدة منه كفيلة بأن تجعل الجاموس البرى الضخم يفقد وعيه ، كما أنه يستطيع بمجهود قليل أن يأخذ بين أنيابه غزالا ويقفز به فوق صخرة ارتفاعها عشرة أمتار !

وأكدوا أن أكبر ممثل فى الغابة هو الفهد وليس الثعلب ، فهو أمام فريسته يتقلب ويدور حول نفسه على الأرض ، ويقفز بحركات بهلوانية تلفت نظر الفريسة ، وعندما تقترب منه لرؤية المشهد يتحول الممثل إلى قـاتل عنيف لا يعرف الرحمة !

وقالوا إن صيد الحيوانات أو الطيور ممنوع اليوم فى غابة الدندر ، وأنه فى

السنوات الماضية وقبل صدور قوانين الصيد كانت مئات الحيوانات والطيور تقتلها بنادق الصيادين ، ومن قبلها كان الأهالى الرحل يمارسون الصيد بمطاردة الحيوان على صهوات الخيل حتى تخور قواه ، ثم يثخنونه بجراح سيوفهم ورماحهم !

ووضحوا لى كيف أن التخريب فى المناطق البرية ينشأ من نهم الإنسان وجشعه لاستغلال المصادر الطبيعية ، وينشأ أيضا من عدم الاستخدام الملائم للبيئة والجهل بها ، وأن انشاء أى حديقة عامة يعنى الحفاظ على الحياة البرية كلها : الماء ، الزرع ، الحيوانات ، الحشرات ، الطيور ، الثدييات ، الزواحف . . فالطبيعة كل لا يتجزأ . . وهناك ١٢٠ حديقة طبيعية بمساحات شاسعة فى العالم . . وهذه الحدائق متعة للحيوان وللإنسان أيضا !

وأعود من هذه الرحلة وقد تيقنت تماما أن هناك رابطة حب خفية بين الانسان والحيوان ، تأصلت منذ تاريخ بالغ القدم ، فهى التى دفعت الملكة العظيمة حتشبسوت إلى أن تسعى لجلب مجموعة من الحيوانات المختلفة لاقتنائها فى حدائق قصورها مثل الزراف والنمور والقردة ، وشاركها بعد ذلك فى تلك الهواية ملوك آخرون مثل شرلمان ملك فرنسا ووليم الكبير وهنرى الثالث ، وكلهم حرصوا على تملك مجموعات متنوعة من الحيوانات والطيور ، ومن قبل هؤلاء كان الفاتح الكبير الاسكندر الأكبر مغرما باقتناء كل ما تقع عليه عيناه أو يقتنصه فى رحلاته !

وهكذا يتأكد لنا أن لقاء الإنسان بالحيوان والطائر لم يكن فى كل الأحوال لقاء الصائد بالفريسة ، ولكن هناك خيوطا من الحب والود والوفاء تقيم رباطا قويا بينهما ، وخاصة ما تناوله الأدباء الكبار فى أعمالهم من مشاعر الحب والوفاء والصداقة بين الفارس وحصانه ، والكلب وصاحبه .

إن العلاقة بين الاثنين متعة ما بعدها متعة ، بشرط ألا تتحول إلى أداة للقتل والتدمير !



روما [١٩٨٠]
الفن والفوضى



لم تستطع مدينة روما أن تعقد اتفاق «جنتلمان» بين القوى السياسية المتصارعة داخل كيانها ، رغم أنها استطاعت أن تصل إلى هذا الاتفاق منذ أربعين عاما وفى سنوات دامية ذاق مرارتها العالم كله !

ففى سنوات الحرب العالمية الثانية اتفق الطرفان المتحاربان على اعتبار روما مدينة مفتوحة حتى يحافظوا على كل ما بها من حضارة إنسانية ، وانتهت الحرب وهزمت الفاشية ، وظلت المدينة ملتقى للفن والثقافة وكل العلوم الإنسانية .

وفى السنوات العشر الأخيرة ظهرت الفاشية من جديد لتزرع الرعب فى كل أنحاء ايطاليا ، ولتجعل روما مدينة مفتوحة للفوضى ، كل ما فيها مهدد بالضياع تحت أقدام جحافل الإرهاب الأسود ، ممن يقيمون المذابح الجماعية لإثارة الفزع والهلع وإصابة البلاد بشلل سياسى يعطل جهازها البيروقراطى ويصرعها فى الوقت المناسب بالضربة القاضية التى تؤدى إلى ارتمائها فى أحضان دكتاتورية أشد قسوة من دكتاتورية موسولينى ، فوقتها يستولى على الحكم ذئاب الفاشية الجدد ـ كما يسمونهم هنا ـ لتصبح إيطاليا فى ظلهم كما كانت من قبل على كف عفريت !

ولعل أدق من صور روما فى محنتها السابقة والحالية ، هو المخرج الإيطالى العظيم فللينى ، الذى صورها دائما فى أفلامه ، مدينة تفتح ذراعيها للجميع : المثقفين وأصحاب الملايين والمهربين والنصابين وجعلها فى كل الأحوال تمد يدها لإنقاذ حتى الذين أرادوا تشويهها وتمزيقها سواء كانوا من الفاشيين أو الإرهابيين !

أما المخرج الإيطالى «فرانشيسكو روزى» فقد أدى قلقه وتوتره وحيرته من الأوضاع السائدة فى العاصمة ، إلى اختيار قصة الكاتب الإيطالى «ليوناردو سكياسكيا» ليوجه بها فى السبعينات اتهاما مباشرا للمسئولين عن هذه الفوضى الضاربة الأعماق فى نخاع المدينة ، واختار لفيلمه اسما يجعلك تستنكره منذ أول وهلة : جثث لذيذة . . أراد به أن يحتج على مصرع العدل ، أو قضية اغتيال القضاة الذين مازالوا يتعرضون للرصاصات الإرهابية التى تريد أن تقضى على الأمن والجمال والحضارة ، لتقيم الكيان الجديد فوق أنقاض

الكراهية والعنف والابتزاز ، ولتعيد عجلة التاريخ لذلك اليوم الذى سقطت فيه الجماهير تحت «بنج» الوعود ، وظل كل ساكن فى المدينة مسلوب الإرادة ، يعيش فوق جبل من الأحلام ، لم يحقق منه غير العار والضياع والسقوط الدامى الى الهاوية !

الخروج من الأزمة

من يدخل روما سيراها غير الأمس .

رجل الشارع هنا يستنكر بشدة حوادث العنف التى ارتكبها الفاشيون وآخرها انفجار قنبلة محطة سكة حديد بولونيا التى أودت بحياة ٧٩ إنسانا . . وهو يدين بنفس القوة أعضاء منظمة الألوية الحمراء الذين يوجهون ضرباتهم للسياسيين والقضاة ورجال الأعمال .

ورغم مضى عامين على حكم «ساندرو برتينى» أو الرئيس السابع لإيطاليا منذ الحرب العالمية الثانية ، فمازالت الدولة عاجزة عن قمع الإرهاب ، ومازالت الجهود تبذل لتحقيق الوحدة الوطنية وسط ظروف بالغة التعقيد لجمع الأحزاب الستة الرئيسية[1] حول اتفاق سياسى ينقذ البلاد من الفوضى السياسية والركود الاقتصادى وزيادة القروض والعنف ، وجيش العاطلين البالغ عدده مليونا و ٧٠٠ الف مواطن ، وعمق الفجوة بين الشمال الصناعى والجنوب الزراعى والتى تجعل أهل الجنوب يتندرون فى جلساتهم بالقول : «نحن نعمل وأهل روما يلتهمون طعامنا» !

والمعروف ان الرئيس الايطالى بسنوات عمره الثلاث والثمانين ، وغليونه المميز ، كان قد رشح نفسه من منطلق التركيز على الوحدة الوطنية ، ووجد هذا المنطلق حماسا لدى الناخبين الذين أعطوه أصواتا لم يحصل عليها اى رئيس جمهورية فى تاريخ البلاد . . ولم يكن برنامجه ـ وحده ـ هو السبب فى

---

١ ـ اهم الاحزاب السياسية فى إيطاليا : الديمقراطى المسيحى ، الاشتراكى ، الجمهورى ، الاشتراكى الديمقراطى ، الليبرالى ، الشيوعى .

هذا التأييد العارم ، فقد دعمه ماضيه الحافل بالأحداث والمتمثل فى مقاومة الفاشية والسجن بسبب ذلك سبع سنوات ، وكرهه للنازية الذى أدى إلى صدور الحكم عليه بالموت وهروبه من السجن لينظم حركة المقاومة فى وسط وشمال إيطاليا ضد الألمان ، ومواقف وطنية أخرى جعلت الجماهير تعقد الآمال على قدرة رجل له مثل هذا السجل على حل التناقضات وعلاج الأمراض التى يعانى منها المجتمع الإيطالى .

إن مجرد قضاء بضعة أيام فى العاصمة روما ، تجعلك تتأكد من أن إيطاليا لم تعد ذلك المجتمع الذى كان معروفا فى أوربا وخارجها بأنه مجتمع تقليدى ومحافظ إلى حد بعيد ، فقد أصبحت رجل أوربا المريض منذ الحرب العالمية الثانية ، وانعكست أزمة العالم الاقتصادية على كل ما نراه داخلها من تفكك اجتماعى وأخلاقى وموقف متفجر فى طول البلاد وعرضها ، يقوده ذلك السباق المجنون بين اليمين الفاشى واليسار المتطرف !

إن مدينة روما ـ بحق ـ هى مدينة المتناقضات ، وإيطاليا أكثر دولة ترتفع فيها نسبة أيام الإضراب فى العالم ، لأنها تصل إلى أكثر من الف يوم ، وهو رقم مذهل لا مثيل له فى اى دولة تتمتع بحرية الرأى والتعبير .

فظاهرة احتجاب الصحف فجأة أصبحت من الأمور المألوفة فى الفترة الأخيرة ، وكثيرا ما يضرب العمال والصحفيون المطالبون بصدور قانون الصحافة الإصلاحى الذى مازال نائما فى أدراج البرلمان الإيطالى رغم مضى عامين على مناقشته .

ومع ارتفاع أسعار الصحف فى الأيام القادمة ـ كما هو متوقع ـ سيضاف عبء جديد على المواطن الذى يصرخ من ارتفاع الأسعار فى كل شىء بشكل جنونى وفى اندفاع غير معقول .

ووسط موجة الغلاء البالغة والسوق السوداء ، ستجد رءوس الأموال الغربية وهى تتزاحم على شراء المؤسسات الصناعية الإيطالية قبل اعلان افلاسها ، كما ستجد التاجر الإيطالى ـ كما هو ـ الابتسامة العريضة على شفتيه ، وكلمات الترحيب المسرحية تتبعك منذ دخول المكان وانتزاع ما فى

جيبك من نقود ، حتى لحظة الوداع التى تخرج فيها من الباب محملا بالبضائع !

وإذا كانت محنة الطلبة الجامعيين انهم لا يجدون عملا بعد تخرجهم فيضطرون لاستكمال الدراسة ، فإن المرأة الإيطالية تشكو من شيئين : عدم قدرتها على تحقيق أحلامها ، وإرهاق العمل الذى يجعلها غير قادرة على الاهتمام بشئون بيتها .

وفى أماكن كثيرة هنا يمكنك ملاحظة الفتيات الصغيرات وهن يدخن فى شراهة ، وكثيرا ما ترى مناقشاتهن الحامية حول قانون الأحوال المدنية والشخصية الذى حرم النساء من المساواة مع الرجال فى شتى مجالات العمل !

وفى نفس الوقت الذى تجد فيه المرأة المهتمة بأناقتها والتى تجيد أطباق المكرونة بأنواعها ، وتفضل مهنتى التدريس والآلة الكاتبة ، فانه تصادفك المرأة التى تحمل سلاحا ، والتى وصفها متحدث من وزارة الخارجية بأنها تقتل ببرود شديد وبابتسامة على الشفتين ، ولعلنا نعرف ان الفتاة «فلورا بيرى» اشتركت فى اختطاف رئيس الوزراء الأسبق زعيم الحزب الديمقراطى المسيحى «الدو مورو»[1] كما أن «ريناتو كورسيلا» وزوجته هما اللذان أسسا منظمة الألوية الحمراء ، وعند اعتقالهما منذ خمس سنوات حررتهما امرأة هى «مرجريت كاجول» التى قتلها البوليس عقب معركة عنيفة استخدمت فيها الرشاشات !

مازالت صبية

ورغم كل هذه الظروف والأحداث التى أصبحت الشغل الشاغل لرجل الشارع فى روما ، فإن وجه المدينة الثقافى المتألق مازال له بريق خاص ،

---

١ ـ بعد اختطاف الدو مورو اكثر من اربعين يوما ، تم قتله ، الا ان السلطات فى إيطاليا قبضت على الزعماء الإرهابيين الذين اشتركوا فى اختطافه وقتله ، وكان فى مقدمتهم تسعة من كبار اعضاء الألوية الحمراء ، وقدمتهم للمحاكمة ليتم الحكم عليهم بالسجن لمدد طويلة .

يضرب بعروقه الأصيلة فى أعماق التاريخ إلى قرون خلت ، ليظل نفوذها الساحر كواحدة من أجمل عواصم الدنيا ، ويكفى أن أقول لك إن عدد سياح العالم الذين يدخلون الى العاصمة سنويا يصل الى ٦ ملايين سائح .

فروما هى الاشعاع الدافىء الذى يسرى فى القلب عندما ترى ميادينها ونافوراتها وحدائقها وحواريها وتلالها السبعة التى يتعايش فيها القديم مع الجديد .

وهى مازالت متواضعة ، لا تعرف الكبرياء ، تأخذك فى حنان وشوق لتذوب عشقا فى حواريها وأزقتها النابضة بالفن والحياة ، بنفس القدر الذى تنهل فيه من قصورها وتماثيلها العديدة المتناثرة فى حدائق بورجيزى ذات الأشجار المتشابكة والتى يتربع فى أحد أركانها تمثال للشاعر العربى الكبير : أحمد شوقى .

وهى مدينة النافورات التى تجاوزت الثلاثمائة بأشكالها وأحجامها المختلفة ، والتى جمعت بين عظمة الفن المعمارى وإعجاز فن النحت ، فلكم توقفت عند أشهر نافوراتها «فونتانا دى تريفى» التى جسم تماثيلها «سالفى» المثال العظيم فى القرن السادس عشر ، واستعان ببعض الفنانين لزخرفة ما حولها من تماثيل ، ووضع فى وسطها تمثال «اجريبا» التى صورتها الأسطورة بأنها أول من جعلت الماء يجرى فى عروق المدينة !

وفى آخر مرة ودعت فيها نافورة التمنيات أدرت لها ظهرى وألقيت ثلاث قطع معدنية ، مثل كل الذين قالوا لهم إن من يفعل ذلك يعود مرة أخرى لينهل من فنها وفيضها الذى لا ينضب . . غير أننى فى المساء جلست مع أحد الأصدقاء لأعبر له عن دهشتى وذهولى مما رأيته فى هذا العمل الفذ ، ورويت له قصة إلقائى بالقطع المعدنية فى البحيرة الصغيرة فضحك ملء شدقيه وهو يقول : لقد ساهمت بهذا العمل فى ملء جيوب الصبية الصغار الذين يعرفون أن أمثالك يملئون النافورة بالنقود فى النهار ، ليستيقظوا قبل الفجر ويأخذوا كل ما بها من عملات دون التعرض لعقوبات الحراس الغارقين فى النوم !

وفى مدينة روما التى بلغت من العمر ٢٧٣٣ عاما ، وكانت فى الماضى عاصمة للعالم ، واستطاعت بانتصاراتها ان تبنى امبراطورية من أكبر

الامبراطوريات ، كان أول شيء يطالعنى هو «الكولوزيوم» الذى استمر العمل فيه ثمانين عاما منذ عام ٧٢ ميلادية ، وكانت تجرى على مسرحه الاحتفالات والمهرجانات والمذابح الدموية ، التى شاركت فيها الوحوش الكاسرة والأسلحة الفتاكة فى قتل ألوف العبيد الأرقاء الذين كانوا يواجهون شرف الموت تحت أقدام السادة الجدد من الأباطرة الرومانيين الذين أخضعوا العالم بالحديد والنار .

وحول الكولوزيوم ذكروا أن حكيما فى روما القديمة قال عقب بنائه : مادام قائما ، فستبقى روما ، واذا ما انهار فسوف تنهار ، واذا ما انهارت روما انهار معها العالم !

والغريب ان هذا الأثر تعرض للانهيار !

الطيف الجميل

وفى المدينة الصغيرة الواقعة فى وسط إيطاليا على نهر التيبر ، يمكنك أن تدرك منذ الوهلة الأولى أنها متحف كبير ، فى قلبها ترى قصر «بالاتزوفينيتسيا» الذى أقامه «باولو الثانى» فى القرن الخامس عشر ، وهو عبارة عن تحفة معمارية خالدة ، اتخذه موسولينى مقرا رسميا يلقى من شرفته ـ التى تطل على ميدان فسيح ـ خطبه الملتهبة لترتفع هتافات الجماهير المضللة !

ومن أشهر معالمها قلعة «سانت أنجلو» من القرن السادس ، وهى التى خلدها الموسيقار «جياكومو بوتشينى» فى أوبرا توسكا ، وحدائق «البنشو» الساحرة ، ومخلفات قصور «اندرست» التى كانت قائمة منذ اكثر من ٢٣ قرنا ومازالت بعض آثارها باقية .

أما أهم أثر فى روما ، بل وفى أوربا كلها ، فهو الفاتيكان ، بما يحوى من أعمال فنانى عصر النهضة الخالدين امثال ليوناردو دافنشى ورفائيللو ومايكل أنجلو . . وبمناسبة ذكر الأخير سيقفز الى الأذهان على الفور ، سقف كنيسة «سكستين» الذى يبلغ سطحه الف متر مربع والذى أبدع لوحاته وهو مستلق

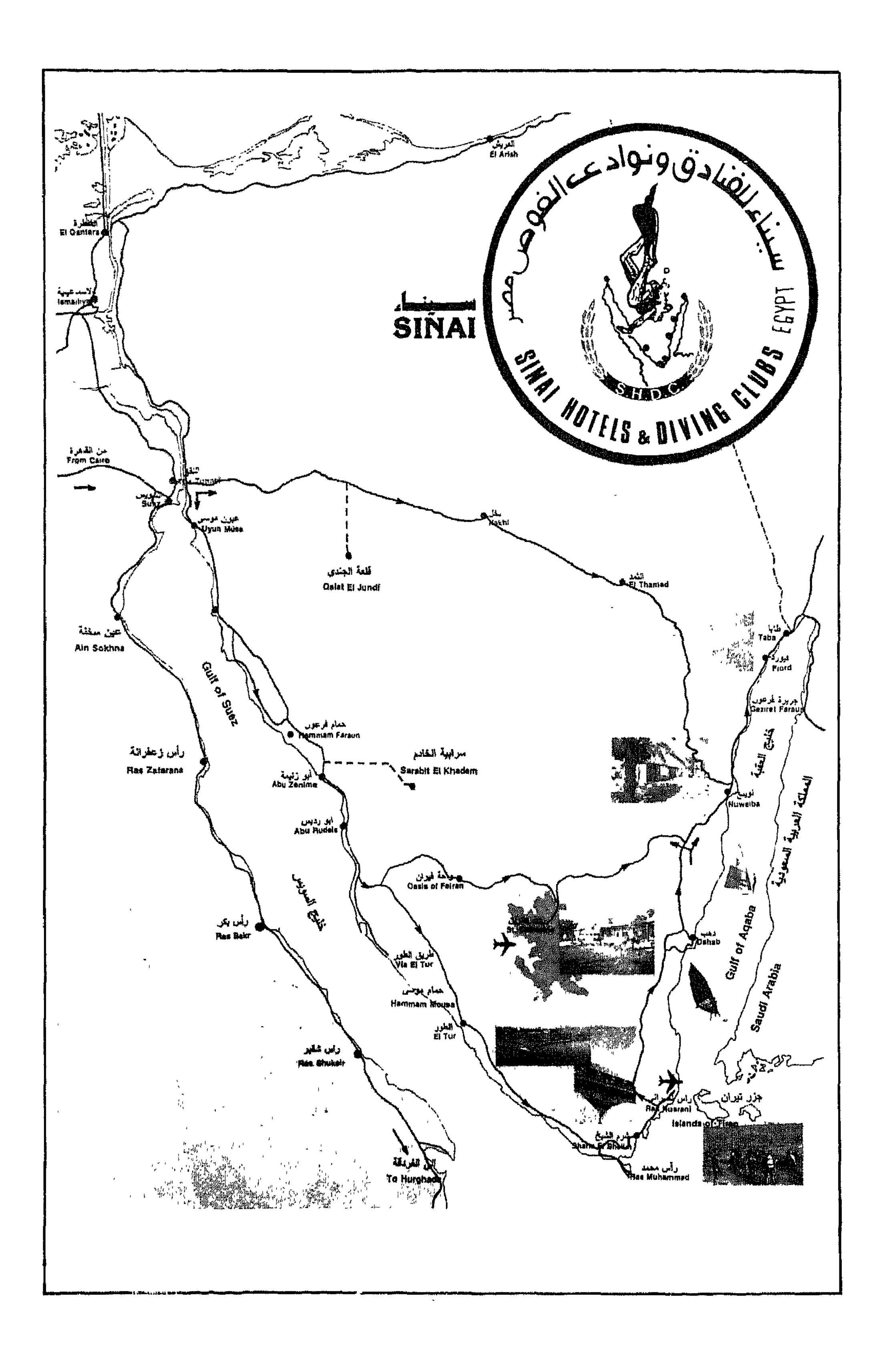
على ظهره أكثر من ثلاث سنوات !

ولأننى كنت مفتونا بروما قبل أن أراها ، فإن كل ما جرى بها من أحداث جسام ، كان لا يأخذ من نفسى إلا مكانا منزويا ، لتبرز ذكرياتى عما قرأته عن شاعر إيطاليا الأول «دانتى الجيرى» الذى تسللت إلى قلبه فى صباه صورة الصبية الجميلة «الابيتشى» التى اتخذها فى كل قصائدة رمزا للسعادة والغبطة . . كما ظلت فى أعماقى صورة أعذب الشعراء فى العصر الوسيط «فرانشيسكوبترارِكا» الذى تغنى بالأصدقاء وحب روما والفن والطبيعة وأحلام الليل ورغبات النهار وبكى على حريته المفقودة وعلى طيفه الجميل «لاورا» التى كان يسمعها عندما يسمع فروع الشجر والنسيم والأغصان وشدو العصافير والمياه تنساب فى رقة بين الحشائش الخضراء . .

وكنت لا أستطيع أن أنسى الروائى «سيزار بافيرى» الذى مات فى الخمسينات منتحرا ، لأنه رفض أن يكون أداة تخذل الجمهور المتعطش الى الحقيقة . . أو أنسى الروائى «فابريزيو أوتوفيرى» الذى قال لنا فى روايته «روما ديسمبر ٣١» إنه يرفض المجتمع الذى يضع أخلاقياته تحت رحمة التغييرات السياسية .

لقد عاشت أعمالهما وأعمال الروائيين امثال البرتو مورافيا وايليو فيتورينى وبراتولينى فى وجدانى ووجدان العالم كله ، لأنها ارتكزت على الصدق الفنى والبناء الدرامى المتماسك والشكل الجميل البالغ الإتقان !

وكنت أبحث دائما عن سر جاذبية المدينة واستمرار عطائها الفياض . . هل يرجع إلى قوة الشموخ التى جعلت من تاريخها قبل الميلاد سجلا للفتوحات والانتصارات خارج الحدود ، وقت أن كانت الامبراطورية الرومانية تسيطر على كل دول البحر المتوسط ؟ . . أم أنه نتاج اللمسة الفنية التى جعلت منها مدينة عصر النهضة الخالدة ؟ . . أو أنه يعود إلى الروح الأدبية المتمردة الخصبة التى أعطتنا قمة فى الشعراء وقمة فى الرواية ؟ . . وكنت أجد الجواب دائما فى أفلام مخرج إيطاليا العظيم «فللينى» الذى جعلنى فى أعماله السينمائية أحس بها شابة حانية تفتح ذراعيها للجميع ، وتجدد خلاياها باستمرار لإدراكها أن الحياة لا تعرف التوقف أو الجمود !


سيناء
SIÑAI
سيناء للفنادق ونوادي الغوص مصر
SINAI HOTELS & DIVING CLUBS
EGYPT
S.H.D.C.
El Arish
El Qantara
Ismailiya
From Cairo
Suez
Uyun Musa
Qalat El Jundi
Nakhl
El Thamad
Ain Sokhna
Gulf of Suez
Taba
Fiord
Gezirat Faraun
Hammam Faraun
Sarabit El Khadem
Ras Zatarana
Abu Zenima
Abu Rudeis
Nuweiba
Oasis of Feiran
Ras Bakr
Via El Tur
Dahab
Gulf of Aqaba
Saudi Arabia
Hammam Mousa
El Tur
Ras Shukeir
Ras Nusrani
Islands of Tiran
Sharm El Sheikh
Ras Muhammed
To Hurghada


بنك مصر
فروع المعاملات الإسلامية
تحقق رغبة الملايين وتقوم بإصدار
شهادات بنك مصر
للمعاملات الاسلامية
ذات العائد الشهري بالجنيه المصري والدولار الأمريكي
تستثمر أموال هذه الشهادات فى مشروعات إسلامية ويكون البنك
وكيلاً مفوضاً من أصحابها فى تحديد مجالات الاستثمار أو الربح
بإشراف لجنة مكونة من كبار علماء الأزهر الشريف
• فئة الشهادة ١٠٠ جنيه مصري أو دولار أمريكي ومضاعفاتها.
• الشهادة إسمية ومدتها ٥ سنوات قابلة للتجديد.
• تاريخ إصدار الشهادة هو آخر شهر للشراء.
• يمكن صرف العائد من الفرع المنفذ "البائع" للشهادة أو الفرع الإسلامي المصدر لها.
• يمكن حصول العميل على قرض حسن بضمان الشهادة.
• يحق للعميل حفظ الشهادات فى خزائن البنك ويتولى البنك تحصيل الكوبونات وإضافتها لحساب العميل.
• يمكن استرداد قيمة الشهادة فى أى وقت بعد مرور ٦ شهور من تاريخ الإصدار.
يصرف عائد شهرى بنفس عملة المشاركة تحت حساب الربح أو الخسارة، يتم تسويته كل ٦ شهور فى "٦/٣٠ و ١٢/٣١"
الاشتراك فى هذا النظام
للمصريين فى الداخل والخارج والأخوة العرب
هكذا يكون البنك

رقم الايداع : ٩٣٧٧ ـ ١٩٩٠

الترقيم الدولى : ٥ ـ ٩٥٥ . ـ .. ـ ٩٧٧ .I.S.B.N

طبعت بمطابع اخبار اليوم

Boeing
747-300
Combi

بوينج
٧٤٧-٣٠٠
كومبى



Service is our inherited tradition

الخدمه فن توارثناه

EGYPTAIR  مصر للطيران

فى هذا الكتاب

- يا زمان الأندلس !
- بندقية بلا رصاص بين الأسود والأفيال !
- نيويورك غابة السوبرمان والمسرات البابلية !
- تونس فوق صهوة جواد الزمن !
- رأيت غجر اوربا يبكون ويرقصون !
- باريس : وجه لا يعرف التجاعيد !
- أبطال المواقف فى الكوفة والنجف وكربلاء
- مسلمون منسيون على ساحل المحيط الهندى
- مراكش : الأذن تعشق قبل العين أحيانا !
- لابد من صنعاء وإن طال السفر !
- نوبيون والأصل مجرى !
- من بنغازى الى النهر الصناعى العظيم
- وداعا للغوص وأهلا بالتحديث فى قطر
- مغامرة لصيد النعام فى جبال علبة
- بومباى : ما بعد هزيمة اللؤلؤ الطب
- رمسيس وقصيدة عشق على نهر المس
- روما : الفن والفوضى !
- لاتقتل الوحوش فى غابات الدندر !